سلسلة علم النفس

التحليل النفسي

إعداد

كامل محمد محمد عويضة

مراجعة

أ. د محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

مقدمة

مكونات الشخصية

تعريف الشخصية:

الشخصية هي وحدة الحياة النفسية. وتعتبر أساس دراسة علم النفس. ومن المعروف أن الأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث تكوين كل منهم، وأنه لا يوجد أي فردين متشابهين تشابهاً تاماً على الإطلاق بل لكل شخص طابعه الفريد الذي يميزه عن غيره، ومن أجل هذا نجد أن كثيراً من الاتجاهات في علم النفس قد تركزت في بحث الفروق الفردية وقد أدى ذلك إلى الاهتمام بعلم النفس الفردي، ودراسة الفروق الفردية، كما نجد أيضاً اهتماماً بدراسة الصفات الطائفية وأنواع السلوك المختلفة، وأنواع الشخصيات... وهذا ما يسمى بسيكلوجية الشخصية.

ودراسة الشخصية يقصد بها الاهتمام بتلك الصفات الخاصة بكل فرد. والتي تجعل منه وحدة متميزة مختلفة عن غيره من حيث العوامل المختلفة التي تفاعلت مع بعضها فأدت إلى هذا الأسلوب الخاص من السلوك، وهذا الطابع الذي لا يشترك فيه شخصان اشتراكاً كاملاً في جميع النواحي.

وإذا تتبعنا جهود علماء النفس لتعريف كلمة الشخصية فسنجد أنه ليس هناك اتفاق كامل بينهم على تعريف محدد للشخصية فكل منهم كان ينظر إلى الشخصية من زاوية خاصة، وسنوضح فيما يلي الخطوات

التي تطور فيها معنى هذه الكلمة وهي في جملتها تتبع مراحل تطور علم النفس وأساليب البحث فيه.

قامت تعاريف الشخصية في البداية على فكرة التمثيل المسرحي وما يقوم به الشخص أمام الغير من حركات وصفات ظاهرية بصرف النظر عما يخفيه في نفسه من صفات داخلية. وهذا كان يعزى للمعنى الأصلي لكلمة «شخصية» وهي الظهور أمام الغير في شكل تمثيلي. أي أن كلمة شخصية تحمل في معناها المظهر الذي يؤثر به الشخص على الآخرين، فارتبط بهذه الفكرة تعريف الشخصية بالقدرة على التأثير في الغير، أو الأثر الذي يتركه الشخص فيمن حوله، ولا يرتبط بذلك ما قد يكون لدى الفرد من صفات معينة. ولكن هذا التعريف لا يوضح لنا شيئاً عن الصفات الداخلية الحقيقية في الفرد، فالشخص يمكن أن يعتبر عدداً من الشخصيات، وهي: الشخص كما يراه غيره والشخص كما يرى نفسه، والشخص على حقيقته، ومن ثم فتعريف الشخصية السابق يعتبر غير شامل لأنه يهمل الناحيتين الأخيرتين ويهتم فقط بالشخص كما يراه غيره.

وعلى العكس من ذلك تماماً فقد نظر البعض إلى الشخصية على أنها تركيب نفسي معقد، لا يمكن تحليله أو فهمه، أو أنها قوة مركزية داخلية تحد الفرد في حركاته وتحدد سلوكه وطبيعي أن مثل هذه النظرة لا تغير من فهم طبيعة النفس لأنها تترك باب البحث مغلقاً أمام فهم عناصر الشخصية ومكوناتها، ويرتبط بذلك أيضاً التعاريف التي تهتم بفكرة الشخص عن نفسه، وتحليله لما هو عليه، ومعرفة صفاته النفسية الداخلية ويتمشى هذا مع طريقة التأمل الباطني وهي إحدى طرق البحث الهامة في علم النفس - كما كان التعريف الأول متمشياً مع طريقة

الملاحظة الخارجية ـ ولهذا يمكن أن نقول إن هذا التعريف للشخصية يعتبر ناقصاً كذلك لأنه يهتم بمظهر واحد من جوانب الشخصية، وهو الشخص كما يرى نفسه.

ثم انتقل التعريف إلى الناحية الاجتماعية عندما اتجه إلى الاهتمام بالإشارة إلى تعامل الفرد مع المجتمع فأصبح التعريف يتضمن شعور الفرد بقيمته في المجتمع ومبلغ أهميته فيه، ومدى معرفة الفرد لحقوقه وواجباته. وهذه الصفة الاجتماعية في تعريف الشخصية بجانب فكرة المرء عن نفسه ترتبط بمبلغ حاجة المجتمع إلى الفرد، وقد ظهرت هذه النزعة في تعريفي «أولبرت Allpart» «ومادي Mdy» حيث يؤكدان فكرة تعامل الفرد مع المجتمع وقيمته من حيث تأثيره في المجتمع وتأثير المجتمع به. وينظران إلى الشخص كعامل فعال في المجتمع، وتقاس شخصيته بمبلغ اشتراكه في نواحي النشاط المختلفة التي تؤدي إلى إحداث التغير والتطور في هذا المجتمع.

ويؤخذ على هذه التعاريف السابقة أنها كانت وصفية عامة وليس لها فائدة إيجابية مباشرة لتوجيه البحث في الشخصية. ثم تطورت التعاريف فقامت على تحليل الصفات ومحاولة تجميعها فألقت ضوءاً على عناصر الشخصية وأفادتنا من الناحية الدراسية فائدة مباشرة ومن أمثلة ذلك ما يلي:

عرف «مورتون Morton» الشخصية بأنها «حاصل جمع كل الاستعدادات والميول والغرائز والدوافع والقوى البيولوجية الفطرية الموروثة، وكذلك الصفات والاستعدادات والميول المكتسبة من الخبرة».

وهنـاك تعاريف كثيـرة من هذا النـوع تبدأ كلهـا بفكرة مجمـوع أو حـاصل جمـع الصفات الـداخلية والخـارجية المـوروثـة والمكتسبـة أو مجموع الصفات العقلية والجسمية والاجتماعية وهكذا.

ولكن هذا التعاريف القائمة على مجرد تعداد الصفـات والتي تنظر إلى حـاصل جمعهـا فقط تحمل في طيـاتها خـطر اعتبار هـذه الصفات وحدات منعزلة بعضها عن البعض، أو أن كل عنصر منهـا وحدة قـائمة بذاتها. ولكن الواقع خلاف ذلك تماماً فالنظرة الحديثة للشخصية تعتبرها وحدة أو تنظيماً كلياً عاماً، إذ إن الكـائن الحي أكثر من مجـرد مجموع صفـاته،وكـل صفة من صفـاته لا يكـون لهـا معنى إلا في وجـود بـاقي الصفات. والفرق بين النـظريتين يوازي الفـرق بين المخلوط والمركب في الكيمياء، فالمخلوط يمكن فصل مكوناته بعضها عن بعض بسهولة، وصفاته هي مجرد مجموع صفات العناصـر الداخلة في تـركيبه. بينمـا المركب الكيميائي ينتـج لنا مـادة جديـدة لها خصـائصها التي يخـالف صفات مركباتها، ولهـذا استفادت التعـاريف الجديـدة من هذه الفكـرة فأكدت أهمية التكامل، ولذا أصبحت تبـدأ بكون الشخصيـة عبارة عن تكوين عام أو تكامل منتظم لمجموعة صفات. . أو تركيب كلي أو وحدة وهكذا.

ثم أضيف إلى التعاريف ذلك العنصر الاجتماعي الـذي يظهـر في تكييف الفرد لنفسه في المجتمع وتعامله مع البيئة ومبلغ اندماجه فيها، ومن أمثلة هذه التعاريف ما قاله «كمف Kempf» وهو أن «الشخصية هي تكـامل مجمـوعات العـادات التي تمثل خصـائص الفرد في تعـامله مع المجتمع».

وأخيراً نجد فكرة التميز أو الانفرادية تتخذ مكاناً بارزاً في التعاريف

كما في تعريف «شن Schoen» حيث يقول:
«الشخصية هي التكوين المنتظم أو الوحدة العامة الناتجة من العادات والاستعدادات والعواطف التي تميز فرداً عن المجتمع وتجعل منه وحدة مختلفة عن باقي وحدات المجموعة التي ينتمي إليها».

أما التعاريف الحديثة التي يؤخذ بها الآن فتقوم على جميع الخطوات السابقة والاستفادة من جميع التعاريف بحيث نجدها وافية شاملة. ومن أمثلة ذلك تعريف «أولبرت» القائل بأن:

«الشخصية هي التنظيم الديناميكي في أنفس الفرد لتلك الاستعادات الجسمية النفسية التي تحدد طريقته الخاصة مع البيئة».

وهذا لا يختلف كثيراً عن تعريف «بيرت» القائل بأن: «الشخصية هي ذلك النظام الكامل من الميول والاستعدادات الجسمية والعقلية، الثابتة نسبياً، التي تعتبر مميزاً خاصاً للفرد، وبمقتضاها يتحدد أسلوبه الخاص للتكيف مع البيئة المادية والاجتماعية».

يتضح من التعريفين السابقين ما يأتي:

أولاً: إن تعريف «أولبرت» يشير إلى فكرة الديناميكة في الشخصية إشارة على التفاعل المستمر بين عناصرها... كما أن تعريف «بيرت» يشير إلى «النبات نسبياً» أي أن أهمية عناصر الشخصية التي لا تتغير كثيراً على طول الزمن فهذه هي الصفات التي يصح الاستناد عليها في الحكم على الشخصية مثل هيئة الجسم والذكاء العام والصفات الموروثة أو المكتسبة التي لها صفة الدوام نسبياً.

ثانياً: كل من التعريفين يؤكد فكرة التكامل وكون الشخصية ليست

مجرد مجموع الصفات، وإنما وحدة الناتج منها، فهي أكثر من مجرد حاصل الجمع.

ثالثاً: بعض الصفات الداخلة في تكوين الشخصية بيولوجية جسمية مثل لون الشعر وقوة الجسم والتركيب الغددي والعضلي.. وهكذا، وبعضها صفات عقلية مثل الذكاء والانفعال والمزاج.

رابعاً: لم يهمل التعريفان أهمية البيئة وأثر الصفات في تكيف الفرد معها ولذا لا يمكن دراسة الفرد منعزلاً عن المجموع الذي يحيط به كما يتضح من إشارة «بيرت» إلى أهمية التكيف نحو البيئة الاجتماعية.

خامساً: يظهر في كل من التعرية فكرة التمييز التي تجعل كل فرد مختلفاً عن غيره بحيث لا يوجد اثنان متشابهان شبهاً تاماً ـ وهذا التمييز في نظر «أولبرت» هو الأساس الهام لمعنى الشخصية.

ومن كل ما سبق يمكن أن ندركِ ما يأتي:

١ ـ إن الشخصية وحدة يجب دراستها كتنظيم كلي عام «أوجشتالت Gestalt».

٢ ـ إنه إذا جاز لنا تحليل عوامل الشخصية فإنما يكون ذلك بقصد التصنيف والدراسة فقط، على أن نضع في أذهاننا دائماً فكرة اندماج العناصر وتفاعلها المستمر مع بعضها البعض.

مكونات الشخصية:

إذا اقتنعنا بفكرة وحدة الشخصية وتداخل مكوناتها واستمرار تفاعل عناصرها مع بعضها البعض أمكننا أن ندرك الصعوبة التي تواجهنا عند محاولة إحصاء هذه العناصر أو تصنيف هذه المكونات. ولكن لابد لنا

من رسم خطة عامة تحدد أركان الشخصية الرئيسية إذا ما أردنا دراستها أو الحكم عليها. فما هي إذن أهم النواحي التي يصح أن تؤخذ في الاعتبار عند ما نود أن نصف شخصية ما بالقوة أو الضعف أو بأنها شخصية سوية او منحرفة أو بأنها شخصية متكاملة أو مفككة؟ وهناك اعتبارات كثيرة يمكن أن نتخذ أساساً لذلك، فيصح أن نجمع الصفات المختلفة مبوبة بحسب الموروث منها والمكتسب، أو الصفات الجسمية والعقلية. . . وهكذا.

وقد أخذ «كاتل Cattell» بهذه الاعتبارات جميعها في تقسيمه للشخصية إلى وحداتها الأولية في كتابه «وصف وقياس الشخصية» حيث وضع هذه الوحدات في جدول كالآتي:

	وحدات تكوينية «موروثة»	وحدات «مكتسبة» من البيئة
العوامل الديناميكية	١ ـ الدوافع والرغبات والحاجات	٤ ـ العواطف والاتجاهات العقلية
العوامل المزاجية	٢ ـ الصفات الانفعالية والمزاجية	٥ ـ الصفات الخلقية
العوامل المعرفية	٣ ـ الذكاء والمواهب الخاصة كالذاكرة والقدرة الموسيقية	٦ ـ المهارات المكتسبة والمعلومات العامة شعورية/ لا شعورية

وقد قضى «كاتل» في شرحه وتقسيمه لهذه الوحدات الست الرئيسية إلى فروعها وعوامها بشيء من التفصيل، إلى أن وصل لوضع قائمة

طويلة للصفات التي يصح دراستها للحكم على الشخصية حكماً شاملاً من جميع النواحي، ووصل عدد هذه الصفات في القائمة المذكورة إلى ١٧١ صفة.

ولكن مما يؤخذ على تقسيم كهذا إهماله التام للنواحي الجسمية، ونظره إلى الشخصية بمعناها المحدود وبما يقع في دائرة علم النفس وحده.

ويلاحظ أن كثرة الصفات والقوائم الطويلة التي يلجأ إليها بعض العلماء في دراسة الشخصية لا تفيد كثيراً في إعطاء صورة سريعة للشخصية وإن كانت تفيد من يريد القيام بأبحاث إحصائية بقصد دراسة الصفات التي تتمشى مع بعضها البعض والتي تتعاون في تكوين أنماط لسلوك وأنواع الشخصيات المختلفة.

وإذا فحصنا القوائم الكثيرة التي يضعها العلماء المختلفون لمكونات الشخصية فإنا نجدها ـ وإن اختلفت في ظاهرها من حيث العدد والاسترسال في التفاصيل ـ غالباً تتفق على الأبعاد الرئيسية التي ينبغي ألا تغفل في أي تقسيم أو تصنيف وهي:

أ ـ النواحي الجسمية.

ب ـ النواحي العقلية المعرفية.

جـ ـ النواحي المزاجية.

د ـ النواحي الخلقية.

هـ ـ النواحي البيئية.

ويختلف الباحثون في الشخصية في نظرتهم للأهمية النسبية لهذه النواحي، فنجد علماء النفس التربوي مثلاً يولون اهتماماً خاصاً للنواحي العقلية المعرفية كالذكاء والقدرات التحصيلية، بينما علماء

النفس الطبي يولون للنواحي الجسمية والانفعالية والمزاجية اهتماماً أكبر في نظرتهم إلى الشخصية، وكذلك علماء النفس الجنائي والباحثون في الإجرام ويؤكدون أهمية النواحي الخلقية والاجتماعية. . . وهكذا.

وقد يكون من المفيد أن نضع تخطيطاً عاماً لمكونات الشخصية وعواملها الفرعية في شكل يسهل إدراك وحدتها وتحليلها عند الدراسة والبحث كما في التنظيم المبين على الصفحة التالية.

وينبغي أن نؤكد هنا أهمية تداخل هذه العوامل جميعها، وتفاعلها المستمر، بحيث ينتج منها جميعاً تركيب عام يميز الفرد ويجعل منه شخصية فريدة.

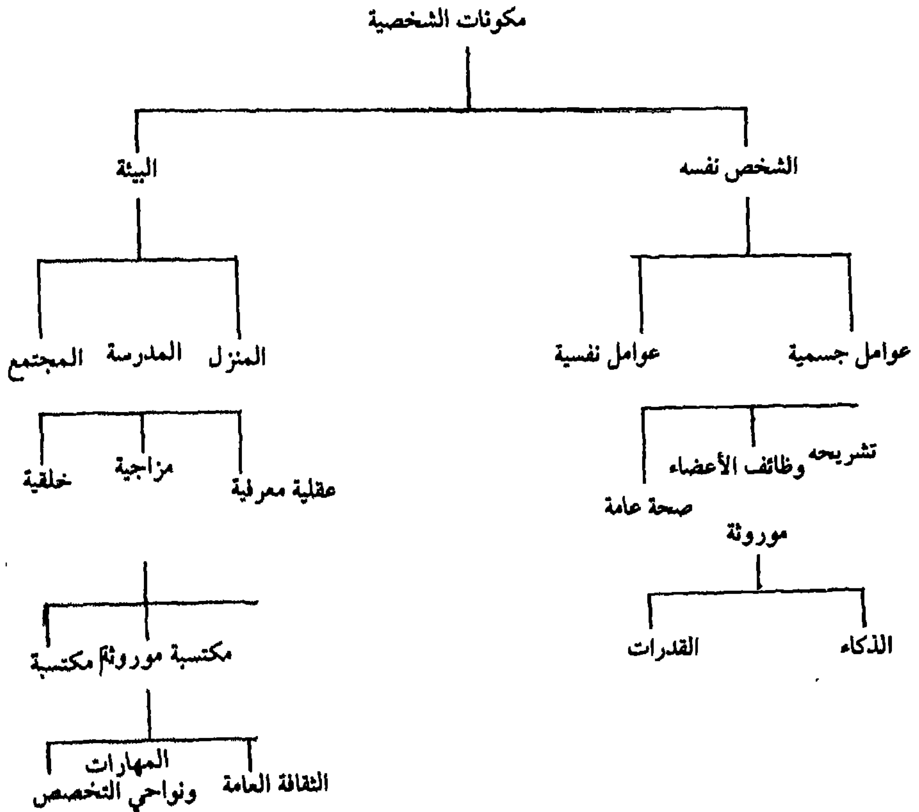
هذا ومن الممكن أن نستمر في التحليل عند كل ناحية من نواحي الشخصية فنقسم العوامل المنزلية مثلاً إلى: علاقة الفرد بباقي أفراد المنزل، وتأثير الوسط المنزلي في النواحي الثقافية والخلقية. . . إلخ. ويمكن بنفس الأسلوب أن نقسم النواحي الجسمية من حيث وظائف الأعضاء إلى حالة الجهاز العصبي، وتأثير الغدد الصماء، وحالة الجهاز الهضمي. . . إلخ. وكذلك في المهارات المكتسبة التي يمكن تقسيمها إلى نواحي التخصص الدراسي ونواحي التخصص المهني وما ينطوي تحت كل منهما من صفات لا ينكر أثرها في تكون الشخصية. . . وهكذا.

ويمكن بصفة عامة أن يفيدنا هذا التخطيط العام فيما يأتي:

أولاً: يسهل على الباحث الاجتماعي أو أي أخصائي يهمه دراسة الحالات أو تحليل شخصية أحد الأفراد ـ طفلاً كان أو رجلاً، عادياً أو شاذاً ـ في تنظيم عمله وترتيبه. فإذا أردنا دراسة طفل منحرف أو متهم،

بجريمة، فيمكن أن نتخذ هذا التقسيم أساساً لهـذه الدراسـة. وإذا كنا بصدد تصميم بطاقة مدرسية لتكون سجلاً لحالـة كل تلميـذ في حياتـه المـدرسية فيصـح أن نستعين بهذا التخـطيط حتى لا نغفل. نـاحية من النواحي التي تكون ذات أثر هام في الحكم على الشخصية عند توجيه التلميذ تعليمياً أو مهنياً.

تخطيط عام لدراسة مكونات الشخصية:



ثانياً: يوضح هذا التخطيط أهمية العلاقة بين علم النفس وباقي العلوم البيولوجية والاجتماعية الأخرى، وتعاون هذه العلوم المختلفة وترابط ميادين الدراسة فيها وتداخلها بشكل يجعل الإحاطة بها جميعاً أمراً واجباً لكل من يتعرض لدراسة الشخصية في أي صورة من صورها. فمثلاً عوامل البيئة من حيث المنزل والمدرسة والمجتمع يمكن فهم آثارها على الشخصية من فهمنا لمبادىء علوم الخدمة الاجتماعية والتربية والاجتماع والأنثروبولوجيا. والعوامل الجسمية تتطلب الإلمام بعلوم التشريح والفسيولوجيا والصحة العامة والعلوم الطبية بصفة عامة. وطبيعي أن تكون العوامل العقلية هي ميدان علم النفس لذا لا غنى له عن التعاون مع هذه العلوم جميعاً.

النواحي الجسمية:

بالرغم من أن النواحي الجسمية تدخل في نطاق بحث العلوم الطبية إلا أن دراسة الشخصية لا تكتمل إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار نواحي التكوين الجسمي سواء من حيث التشريح أو وظائف الأعضاء أو الصحة العامة وأثرها في الشخصية بوجه عام. ومما لا شك فيه أن النواحي الجسمية تؤثر في الحالة النفسية وبالأخص في الناحية الانفعالية المزاجية التي تعتمد في أساسها على التركيب الكيميائي والغددي والدموي. وهناك أمثلة كثيرة توضح أثر النواحي الجسمية في الحالة العقلية مثل حالات الأمراض والعاهات وما تحدثه من آلام نفسية تؤثر في الشخصية كلها، بل إن الشعور بالنقص وهو حالة نفسية قد يكون سببه حالة جسمية صرفة. ومن أهم النواحي الجسمية التي يظهر لها أثر واضح في تكوين الشخصية ما يأتي:

١ ـ بنية الجسم من حيث النمو والنضج .
٢ ـ حالة الجهاز العصبي .
٣ ـ حالة الغدد الصماء .
٤ ـ المظاهر الحركية .
٥ ـ العاهات والأمراض الجسمية .

أولاً ـ بنية الجسم :

لا شك أن التكوين الجسمي واكتمال نمو أجهزة الجسم المختلفة من النواحي التشريحية ووظائف الأعضاء لها تأثير كبير في الحالة النفسية وفي تكوين الشخصية. وكثيراً ما نلجأ في أحكامنا على الشخصية إلى معرفة العمر الزمني الذي أمكن للشخص فيه أن يمشي أو يتكلم، أو التاريخ الذي تم عنده البلوغ والنضوج الجنسي، فمثل هذه النواحي من مظاهر النمو الجسمي تلقى كثيراً من الضوء على سمات الشخصية التي يراد بحثها لأن المعروف أن لكل ناحية من نواحي النمو وقتها وموعدها الطبيعي، فإذا تأخر النمو أو النضج عن موعده الطبيعي، أو على العكس حدث قبل ذلك فإن هذا يؤدي إلى عدم التوافق بين النمو الجسمي والنمو العقلي، ويترتب على ذلك اختلال في وظائف بعض الأعضاء مما ينعكس أثره على الشخصية كلها.

وتتأثر الشخصية من حيث بنية الجسم بالتكوين الطبيعي الذي يظهر فيه الطول والقصر ووزن الجسم وتكوين الأعضاء المختلفة والتناسق بينها. وعلى العموم فإن التكوين الجسمي يؤثر كثيراً على اتجاهات الشخص وعلى كثير من سلوكه ـ سواء في معاملة الناس له أو نظرتهم نحوه، أو نظرته نحو نفسه وموقفه من الناس ـ وكثير من أنواع الشذوذ

كالتعاظم أو الشعور بالحقد ضد المجتمع سببها الأصلي الشذوذ في النمو الجسمي العام .

ثانياً ـ حالة الجهاز العصبي :

يتكون الجهاز العصبي من الجهاز العصبي المركزي والجهاز العصبي الثانوي .

ويتكون الجهاز العصبي المركزي من المخ ، والمخيخ ، والنخاع المستطيل، والنخاع الشوكي ، والأعصاب المنتشرة في الجسم . وعلى الرغم من أن هذا الجهاز يعمل كوحدة متكاملة ، فإن لكل جزء فيه وظيفة خاصة يقوم بها .

فالمخ يعتبر أهم أجزاء الجهاز العصبي لأنه المسئول عن تنظيم الإدراك والتعلم والتفكير والتخيل وكل ما يحدث من كسب الفرد لخبرات جديدة وما يحدث في الشخصية من تكامل وتنسيق لوظائفها المختلفة .

أما المخيخ فإنه يقوم بدور هام في إيجاد التوافق بين نشاط العضلات وحفظ التوازن الحركي . ويعتبر النخاع الشوكي مركز الإشارات العصبية التي تحدث الأفعال المنعكسة وتؤدي إلى حركة الأطراف . ويعمل النخاع المستطيل في السيطرة على بعض العمليات الحيوية كالتنفس ووظائف القلب والهضم وضغط الدم .

وتظهر أهمية الجهاز العصبي في حالات اختلال أحد أجزائه وما يحدث للشخص من تفكك . وتستخدم لقياس سلامة هذا الجهاز العصبي أجهزة دقيقة تساعد على تحديد نوع الاضطرابات العصبية .

أما الجهاز العصبي الثانوي فهو المسئول عن الاتزان الانفعالي للشخصية، ويتكون من قسمين أو جهازين: هما الجهاز العصبي السمباثوي والجهاز العصبي الباراسمباثوي، ولهذين الجهازين أهمية خاصة في المواقف الانفعالية، ولكل منها وظيفته التي تعارض الآخر. فالجهاز السمباثوي يترتب على نشاطة زيادة ضربات القلب كما يحدث في حالتي الخوف والغضب وتنشيط للأوعية الدموية الموصلة لأطراف الجسم وعرقلة نمو عملية الهضم وإرخاء العضلات القابضة كتلك التي تؤدي إلى فقد السيطرة على البول أثناء الانفعال. أي أن نشاط هذا الجهاز يترتب عليه التقلب الانفعالي والشعور بعدم الراحة والتعب. أما الجهاز الباراسباثوي فيقوم، بعمليات تعويض بنائية ولذا ينشط هذا الجهاز وقت الراحة والاستجمام، وهو المسئول عن عمليات الهضم والامتصاص وتخزين السكر في الجسم. والجهازان يتعاونان معاً في تكوين الحالة المزاجية للشخص ولعملهما ارتباط وثيق بالغدد الصماء وغيرها من الأجهزة التي تتأثر بالتكوين المزاجي.

ثالثاً ـ الغدد الصماء:

يمكن بوجه عام تقسيم الغدد بالجسم إلى نوعين: غدد تخرج خلاياها إفرازات تنساب منها عن طريق قنوات مفتوحة كغدد العرق، والغدد الدمعية، والغدد اللعابية، وهذه الأخيرة على سبيل المثال تفرز اللعاب فينساب منها في قنوات تصب في الفم بواسطة فتحات خاصة. أما النوع الثاني من الغدد فتخرج خلاياها إفرازات ولكن هذه الإفرازات لا تخرج من الغدد في قنوات كما هو الحال في النوع الأول ولكن يمتصها الدم وتسري فيه. وبمعنى آخر إنها «أي الإفرازات» تنساب في

الدم مباشرة ولهذا سمى هذا النوع الأخير من الغدد بالغدد الصماء أي الغدد اللاقنوية.

وتلقى الغدد الصماء اهتماماً كبيراً في العصر الحديث بعد أن اتضحت وتبينت أهميتها في التكوين الجسمي والنفسي حتى أن علاج تلك الغدد أصبح فرعاً من فروع علم الطب الحديث. وللغدد الصماء تأثيرها في النمو الجسمي والحركي وفي السلوك الجنسي وفي الحالة المزاجية والصحية ومدى تفاعل الإنسان مع بيئته وتكيفه معها وتكوين شخصيته. وإفرازاتها تسير في الدم مباشرة كما قلنا إلى كل أنحاء الجسم. وقد سميت هذه الإفرازات بالهرمونات. وكلمة «هرمون» كلمة يونانية معناها «مثير» أي «منبه» وسميت كذلك لأنها تثير الأنسجة وتنشطها للنمو حيناً ولأداء وظيفتها حيناً آخر... بمعنى أنه إذا قلت هذه الهرمونات انقطع إفرازها أصيب الجسم بالمرض، كذلك إذا زادت الهرمونات عن حدها الطبيعي أصاب الجسم ضرر او خلل في أدائه لوظائفه.

والغدد الصماء التي يهمنا دراستها هي الغدة النخامية والغدة الدرقية وغدتا الأدرنالين، والغدد التناسلية.

١ ـ الغدة النخامية:

وتقع وسط الرأس في قاع الجمجمة، وتعتبر من أعقد الغدد وأهمها ويسميها البعض سيدة الغدد لأنها منظمة ومحركة لباقي الغدد حيث نجد لإفرازاتها آثاراً عليها جميعاً. فلها هرمونات تؤثر في النمو وطول القامة أو قصرها، وإفرازات تتعادل مع إفرازات الغدد التناسلية فتؤثر على النضوج الجنسي وإفرازات تؤثر على بناء أنسجة الجسم فترتبط بذلك مع الغدة

الدرقية. وإذا زاد إفراز هذه الغدة زيادة غير طبيعية حدثت استطالة غير طبيعية في الجسم، والعكس صحيح أي أن قلة إفراز تلك الغدة تؤدي إلى بطء النمو وقصر القامة بالإضافة إلى السمنة المصحوبة بالضعف الجنسي وتوزيع الدهن على أعضاء الجسم بطريقة غير طبيعية.

٢ ـ الغدة الدرقية:

ومكانها أسفل الرقبة أمام القصبة الهوائية عند الحنجرة. وهرمونها ضروري جداً لنشاط الأنسجة وللنمو الجسمي والعقلي، كما أنه منشط للجهاز التناسلي، فإذا انعدم أو قل إفراز هذا الهرمون في سن مبكر انحرف الجسم عن نموه الطبيعي وأصيب العقل بالبلادة ويبدو الشخص بطيئاً خاملاً، كثير النسيان قليل القدرة على تركيز الانتباه أو على سرعة التفكير، كما تفتر الغدد التناسلية عن القيام بوظيفتها فيصاب المرء بالطفولة الجنسية فلا يمكن للأنثى أن تحمل ولا يمكن للذكر أن ينجب أطفالاً. أما إذا زاد إفراز هذه الغدد زيادة غير طبيعية تسبب عنه نشاط غير طبيعي يظهر في صورة القلق وعدم الاستقرار وسرعة الاستثارة، ويصاحب ذلك عادة تضخم في الرقبة، وجحوظ في العينين وضعف في العضلات وسرعة في ضربات القلب وارتفاع ضغط الدم.

كما توجد حول الغدة الدرقية أربع غدد صغيرة الحجم تعرف بجارات الدرقية وهي تعادل بعملها نشاط الغدة الدرقية وإذا أزيل جزء منها كان الشخص سريع التهيج شديد العصبية:

٣ ـ غدتا الادرنالين:

هما الغدتان فوق الكليتين. وتفرز كل منهما أنواعاً من الهرمونات لها أثرها في مظاهر الحياة الانفعالية في الشخصية وما يصاحب الانفعال

من تغيرات جسمية ذات قيمة بيولـوجية تساعد على مـواجهة المـرافق والأخطار. وتحتوي إفرازات هاتين الغدتين على مادة الادرنالين وزيادتها عن الحد الطبيعي تسبب ازدياد ضربات القلب وعمل الـرئتين واندفـاع الـدم للمخ وتنشيط العضـلات الخارجيـة، ويـرتبط نشـاط هـذه الغـدد بالجهاز العصبي السمباثوي والباراسمباثوي، وإذا توقف إفراز هذه الغدد حدث الخمول والهبوط الانفعالي والتردد في مواجهة الأزمات.

٤ ـ الغدد التناسلية:

وهي الخصيتان في الرجل وتفرزان الحيوانات المنوية، والمبيضان في المـرأة ويفرزان البـويضات. والغـدد التناسليـة هي المسئـولـة عن التحكم في نضوج وعمل الأجهزة التناسلية ومظاهر الرجـولة أو الأنـوثة وعلاماتها التي تؤثر تأثيراً ظـاهراً في نـوع الشخصية. وإلى نشـاط هذه الغدد وإفرازاتها يرجع وجود صفات الأنوثة التي قد تصل إلى درجة كبيرة من التخنث عند بعض الذكور ووجود صفات الرجولة التي تصل أحيانـاً لـدرجة ظـاهرة في بعض الإنـاث وما يصـاحب ذلك من أثـر في طابـع الشخصية العامة وأسلوبها في الحياة.

وقد يحدث عند اضطراب إفرازات هذه الغدد حدوث البلوغ مبكراً وقبل الأوان، ويحدث ذلك في الغالب بسبب الزيادة المفـرطة لإفـرازات هذه الغدد المصحوب بضمور أو ضعف في إفرازات الغدد الأخرى بحيث لا تتوازن إفرازاتها، وطبيعي أن الشخصية في هذه الحالة تتأثر في جملتها بسبب عدم تناسب النمو الجنسي والانفعالي مع النمو الجسمي، وما قد تؤدي إليه ذلك من إشباع الميل الجنسي بطرق غير مشروعة، ويقال إن هناك حالات حدوث فيها البلوغ عند سن السابعـة وحالات حـدث فيها البلوغ من سن الرابعة!! وعلى النقيض من ذلـك قد يحـدث أن يتأخـر

موعد البلوغ عن أوانه المعتاد بسبب عدم كفاية الإفرازات الداخلية أو هورمونات الغدد التناسلية، وطبيعي أن يبقى الشخص رغم كبر سنه متصفاً بصفات فيها مظاهر الطفولة فنجد هذا النوع من الرجال صغاراً في تصرفاتهم، ولا يستطيعون بسهولة أن يكيفوا أنفسهم في الوسط المحيط بهم حيث تتغير النظرة إليهم لما يبدو عليهم غالباً من صفات أقرب إلى الأنوثة منها إلى الرجولة. ويلاحظ في مثل هذه الحالات أن غدتي الطفولة وهما الغدد التيموسية والغدة الصنوبرية تظلان في حالة نشاط مستمر إذ أن حدوث البلوغ يصحبه عادة ضمور هاتين الغدتين، لأن عملهما مضاد لعمل الغدد التناسلية.

ويجب أن نضع في أذهاننا عند بحث آثار الغدد الصماء على الشخصية أن نشاط الغدد جميعها متداخل، وأن أي أغراض من التي سبق ذكرها يمكن أن ترجع لأكثر من غدة من الغدد السابقة ولهذا فإن الحكم النهائي على نشاط هذه الغدد وأثرها يجب أن يترك للأخصائيين.

رابعاً ـ المظاهر الحركية:

تتوقف المظاهر الحركية على عوامل جسمية وعوامل عقلية في آن واحد. فسرعة الحركة أو بطؤها والاندفاع أو القدرة على التحكم في الحركات والتوافق الحركي سواء في المشي أو الكتابة أو القيام بأعمال يدوية يحتاج لمهارات خاصة، كلها تتوقف على ما يتكون بين الجهاز العصبي والعضلي وبين عمليات الإحساس والإدراك والانتباه من ارتباطات، وما يحدث للشخص من تغيرات انفعالية ومزاجية.

وللنواحي الحركية أهمية كبيرة في الحكم على الشخصية لأنها من العوامل الظاهرة الممكن ملاحظتها بوضوح، ولهذا يقال أحياناً إن من

الممكن أن نميز أنواع شخصيات الناس من حركاتهم وكلامهم وإشاراتهم وطريقة نومهم أو جلوسهم وغير ذلك من المظاهر الحركية، فالشخص المضطرب الانفعالي المتغير المزاج يكون مضطرباً في حركاته ومرتبكاً في مشيته وطريقة كلامه، والشخص الهادىء المتزن نجده متزناً في مشيته وحديثه وحركاته. . . وهكذا وفي بعض الأمراض العقلية تتخذ الأغراض الحركية مقياساً مساعداً لتشخيص الحالة المرضية. ومن أمثلة ذلك: الحركات النمطية، والحركات العنادية أو الجمود الحركي في حركية معينة بدون سبب مفهوم، وغير ذلك كما في المرض العقلي المسمى «بالفصام الكتانوني».

خامساً ـ العاهات والأمراض الجسمية:

العاهات من أبرز العوامل التي تميز صاحبها في شخصيته تبعاً لنوع العاهة وما تحدثه من شعور بالنقص إزاء الغير، وبحسب ما يحدث بسببها أحياناً من تقليل الفرص أمام الشخص، سواء من حيث كسب الخبرة الحسية كما في عادات الحواس، أو من حيث الانتقال والحركة في عاهات الأطراف. . . وغني عن الذكر ما تحدثه العاهات الناتجة من حوادث الإصابة في المخ أو أي جزء آخر من أجزاء الجهاز العصبي من شذوذ وتأثير بالغ في الشخصية عموما. ولا يفوتنا أن نشير إلى ما قد تحدثه بعض العاهات من أثر تعويض حيث تبرز في الشخصية نواح تساعد صاحبها على النجاح أو الظهور مما ينطبق عليه المثل القائل «كل ذي عاهة جبار».

أما الأمراض وخصوصاً المزمنة منها فأثرها قد يكون أبعد من تأثير العاهات في تكوين الشخصية، إذ أن الأمراض عادة تتناول الجسم كله،

وتؤثـر على الشخصية بـأجمعهـا من حيث استغـلال الـطاقـة الجسميـة والعقلية وتوجيهها. . . ويضاف إلى ذلـك أن بعض الأمراض لا يكـون ظاهراً فيشعر به الغير، ولذا لا يستـدر الشفقة أو العـطف من المحيطين بالشخص كما يحدث في حالات العاهات الـظاهرة ولـذلك فـإن تأثيـر لأمراض في تكوين الشخصية لا يقل في أهميته عن أي عامل آخر.

ومن كـل هـذا يتبين إن الحكم الصحيـح على الشخصيـة يشمـل النواحي الجسمية خصوصاً في دراسة الشخصيات المرضية أو الشـاذة، فكثيـر ما تلقى هـذه العوامـل الجسمية الضـوء على النـواحي النفسيـة والعقلية للشخصية.

النواحي العقلية المعرفية:

النواحي العقلية المعرفية هي دراسة ميدان علم النفس، وهي أهم نواحي مكونات الشخصية لأنها تتناول ما وراء السلوك من عمليات عقلية وقدرات معرفية يتوقف عليها كسب المعرفة والخبرة، وتشمل العمليات العقلية كل ما يتصل بالإحساس، والإدراك، والتصور، والتخيل، والقـدرة على التذكر والتفكير والتعلم، أي جميع العمليات العقلية التي يقوم بها العقل في تكـوين الخبرات المعـرفية. أمـا القـدرات العقليـة فهي المـواهب والاستعدادات التي يزود بها الفرد وتساعده على اكتساب الخبرة وهـذه القدرات على نوعين: قـدرات موروثـة، وقدرات مكتسبـة. والقدرات الموروثة هي تلك القدرات التي يولد بها الشخص ولا تتغير كثيراً مدى الحياة وتعتبر من الصفات الثابتـة نسبياً في الشخصيـة وهي نوعـان هما القـدرة العقلية المعـرفية العـامة أو الـذكاء، والقـدرات الخاصـة. أمـا القدرات المكتسبة فتشمل الثقافة العامة عند الشخص وكذلك الثقافات أو الميول الخاصة.

والذكاء كما سبق أن ذكرنا هو القدرة العقلية المعرفية الفطرية العامة ويعتبر دعامة من دعامات الشخصية من حيث التصرف والتكيف والتحكم في النزعات والدوافع الفطرية والتوفيق بينها وبين تقاليد البيئة ومقتضياتها. وعلى قدر ما يكون لدى الشخص من ذكاء تكون قدرته على الإستفادة بما حوله من تسهيلات وقدرته على اختيار ما يصلح من خبرات وتعلم ما ينبغي أن يتعلّمه من المعارف لتكوين مجال حياته. فالشخص الذكي يستطيع أن يعمل على تهيئة الظروف الاجتماعية المحيطة به بما يساعد على تحسين مستواه واستكمال نواحي النقص في شخصيته. بينما الشخص الغبي لا يمكنه قصوره العقلي من هذا، بل كثيراً ما يسوقه ضعفه العقلي إلى ما يحط من شأنه، وما يزيد في انحلال شخصيته وشذوذها.

وبجانب نسبة الذكاء العام الموجودة عند الشخص فإنه قد يكون لديه نوع من الاستعداد أو القدرة الفطرية في نواح عقلية معرفية أو فكرية خاصة فيكون قادراً على التفوق فيها دون غيرها وهذا هو ما نعنيه بالقدرات الخاصة التي سبق أن تحدثنا عنها تفصيلياً في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب.

ورغم تأكيدنا لأهمية الذكاء والقدرات الخاصة في تكوين الشخصية فإن القدرات المكتسبة لا تقل عنها أهمية، فهي أكثر وضوحاً، وتخضع للقياس المباشر لاتصالها بما يظهر به الشخص فعلاً، وما يقوم به من أعمال، وما يكتسبه من قدرات ثقافية عامة، وقدرات ثقافية خاصة.

وكما أن هناك طبقات مختلفة من مراتب الذكاء ومستوياته فكذلك يمكن أن نجد من الأشخاص من يتميزون بقدرة ثقافية واسعة في كل النواحي تقريباً وبصفة عامة، ومن نجد ثقافتهم محدودة وسطحية جداً

بوجه عام، والبحث في المستوى الثقافي العام وأخذ نتائجه في الاعتبار عند الحكم على الشخصية لا يقل في أهميته عن قياس الذكاء والقدرات الخاصة إذ أن القدرات الثقافية العامة توضح لنا المحصلة النهائية لفعل كل من الذكاء والقوى الثقافية المختلفة وتبين لنا الشخص كما هو. ويمكن أن ندرك مبلغ أثر العامل الثقافي العام في تكوين الشخصية إذا قارنا بين الأشخاص ذوي الكفايات المتفاوتة في مستوياتها، من حيث مكانتهم الاجتماعية وقدرتهم على التعامل في البيئة وأثر ذلك في نجاحهم في الحياة.

أما القدرات الثقافية الخاصة فتتصل كثيراً بما نسميه الميول الخاصة، وهذه الميول يمكن أن تتعدد وتتنوع بحسب تشعب العوامل الكثيرة التي تتفاعل في تكوينها، وعلى ضوء هذه الميول الخاصة يمكن أن نميز أنواعاً مختلفة من الشخصيات بحسب ما لديهم من هذه الميول.

النواحي المزاجية:

يقصد بالنواحي المزاجية الاستعدادات الثابتة نسبياً، المبنية على ما لدى الشخص من الطاقة الانفعالية والدوافع الغريزية التي يزود بها منذ بداية طفولته، والتي تعتبر وراثيه في أساسها ولذا لا تتغير كثيراً طول حياته، والتي تعتمد على التكوين الكيميائي والغددي والدموي وتتصل اتصالاً وثيقاً بالنواحي الفسيولوجية والعصبية، والتي تظهر في الحالات الوجدانية والطبائع والمشاعر، وفي الدوافع والغرائز والانفعالات من حيث سرعة استثارتها أو بطئها، ومن حيث قوتها أو ضعفها، ومن حيث قابليتها للبقاء أو الزوال والتغير.

والنواحي المزاجية ـ كالنواحي الجسمية والنواحي العقلية المعرفية ـ

تعتبر من العوامل الهامة التي تبنى عليها أساليب السلوك، بل إن التكوين المزاجي يعتبر أبرز نواحي الشخصية وأهمها في تكوين الحالات النفسية التي تدل على مدى إتزان السلوك أو انحرافه، ولهذا نجد أن بعض علماء النفس يركزون اهتمامهم على التكوين المزاجي لاعتقادهم أن الشخصية ما هي إلا نواحي مزاجية وخلقية.

والنواحي المزاجية بعضها موروث، وبعضها الآخر مكتسب، وليس من السهل أن نفصل بين العوامل الفطرية وعوامل البيئة في تكوين الصفات المزاجية، فالحالة المزاجية لأي شخص تنتج من تفاعل وتداخل العوامل كلها، وليس من السهل كذلك أن نجد عوامل كلها مكتسبة أو عوامل كلها وراثية.

وقد افترض بعض الباحثين في سيكلوجية الشخصية وجود ما يمكن أن يسمى بالطاقة المزاجية أو الطاقة الانفعالية وتكمن وراء السلوك كله، وما يهمنا هو أن هذه الطاقة المزاجية تعتبر من المكونات الهامة للشخصية، وأن الناس يختلفون فيما لديهم منها من حيث الكم والنوع. وقد دلت الدراسات والبحوث النفسية على وجود اختلافات فردية في الطاقة الانفعالية، فالبعض يولد مزوداً بكمية كبيرة منها، بينما يرث البعض قدراً ضئيلاً من هذه الطاقة. ويتميز ذوو الطاقة الانفعالية الكبيرة بقوة الانفعال وعنفه، وعدم القدرة على السيطرة عليه، فتبدو عليهم علامات القلق وعدم الثبات والاستقرار. وعلى النقيض من ذلك فإن من قلت طاقتهم الانفعالية يوصفون بالبلادة المزاجية والخمول والبرود الانفعالي، وبين هذين الشقين يوجد فريق ثالث يتميز بالاستقرار والثبات الانفعالي، وهؤلاء يسهل عليهم التكيف مع البيئة الخارجية بدون عنف أو صراع. ولهذا يمكن القول بأن الثبات الانفعالي من أهم الصفات النفسية التي

تؤخذ في الاعتبار عند الحكم على الشخصية.

ومن الصفات المزاجية التي يغلب عليها العنصر المكتسب: العواطف، وهي مجموعة من الانفعالات تتركز حول أشخاص أو موضوعات معينة أو أفكار خاصة بحيث تجعل الشخص مهيأ لأن يسلك سلوكاً خاصاً في المواقف المختلفة. ويعتقد «مكدوجل» أن الشخصية تعتمد في تكوينها على مجموعة العواطف التي تنمو فيها، وأن تكامل الشخصية يتوقف على تكامل وانسجام هذه العواطف. ومن الممكن أن نتخذ من أنواع العواطف عند الأفراد أساساً لتقسيمهم إلى أنواع الشخصيات حيث نجد أشخاصاً تسود عندهم عاطفة الميل نحو الأمانة أو الصداقة أو حب الدين أو المال أو حب الذات. وبعض العواطف قد تتعارض أو تتصادم أو تتعاون، وعلى قدر ما يكون بينها من تعاون أو تصادم تتوقف قوة الشخصية.

النواحي الخلقية:

يرى بعض علماء النفس أن النواحي الخلقية هي الشخصية، وربما يعزى ذلك لارتباط الخلق بأساليب السلوك والتعامل مع البيئة. ولكن مما هو جدير بالذكر أن النواحي الخلقية ما هي إلا جانب واحد من الجوانب الرئيسية للشخصية الإنسانية.

ويقصد بالنواحي الخلقية: العادات والميول، وأساليب السلوك المكتسبة ذات الطابع الثابت نسبيا والتي يمكن ملاحظتها في الشخص من تكرار ظهورها عنده فتجعله متميزاً عن غيره من أفراد بيئته، وتتكون الصفات الخلقية عند كل فرد نتيجة ما يمتصه من البيئة الخارجية التي

تحيط بـه سواء عن طـريق المنزل أو المـدرسة أو المصنـع أو المجتمع بصفة عامة، وهذه الصفات تعتمد أساساً على التعلم والتربية، ومن ثم نجد أن النواحي الخلقية في الشخصية هي أكثر مكوناتها قـابلية للتغيـر والتطور والتقدم، وهي المجـال الذي يـظهر فيـه التفاوت بـوضوح بين الشخصيات المختلفة.

وحاول بعض العلماء تجميع الصفات الخلقية التي يمكن الاستعانة بها في تقديـر الشخصية، وقـد وضعوا لـذلك قـوائم مختلفة ومن هـذه القوائم ما ذكره «كاتل Cattell» والتي أمكنه أن يبوبها في مجموعات تعبر عن مناطق الشخصية المختلفة، وقد وصف كل صفة تذكر بعكسها مما يسهل تقدير الأشخاص بتعيين الدرجة التي توجد بها كل صفة أو ضدها عنده، كأن نقول مثلاً أن أحـد الأشخاص شجـاع جداً، أو شجـاع، أو متوسط، أو جبان، أو جبان جداً . . . وهكذا.

وهذه بعض الصفات التي ذكرت في قائمة «كاتل»:

١ ـ التهذيب والتكامل الخلقي، وما يتبع ذلك من صفـات الأمانـة وإنكار الذات.

٢ ـ النضـوج والتكامـل الانفعالي، ومـا يتبع ذلـك من مدى قـدرة الشخص على مواجهة الواقع، واليقظة.

٣ ـ الصراحة والتفاؤل والاتزان، وما يتبع ذلك من الروح الرياضية والتحرر من التعصب.

٤ ـ التعقل ووضوح التفكير وصفاء الذهن، وما يتبع ذلك من قدرة على الابتكار والتصرف الحكيم.

٥ ـ نظرة الشخص لنفسه ولغيره، وما يتبع ذلك من ميـل إلى حب الظهور والغرور أو التواضع، ولوم النفس أو لوم الغير.

٦ ـ الشجاعة والإقدام ضد الجبن والإحجام، وما يتبع ذلك من حب المخاطرة والتحمس، والاعتداد بالنفس.

٧ ـ الروح الاجتماعية وما ينطوي تحتها من حب العزلة والانكماش والخجل والاكتفاء الذاتي، أو حب الاختلاط والاشتراك في العمل مع الغير.

٨ ـ الثبات الانفعالي والاتزان المزاجي، وما يتبع ذلك من تقلب أو تطرف، ومن القدرة على ضبط النفس أو التسرع.

٩ ـ التمسك بالمبادىء والمثل العليا، وما يتبع ذلك من العرفان بالجميل أو إنكاره، والاستخفاف بالأمور، وتقدير القيم الأخلاقية والعمل بها.

١٠ ـ النشاط والحيوية ومدى ما لدى الشخص من طاقة فعالة، وما يتبع ذلك من التحمس والمثابرة وبذل الجهد، أو القابلية للتعب والملل والتواكل.

١١ ـ القابلية على التحرر من القيود والعادات والأوضاع الجديدة، وما يتبع ذلك من تمسك بالقديم والمحافظة على النظم والمواعيد الدقيقة. واتباع القواعد الدينية بحذافيرها، أو التحرر في الرأي والقابلية للتغيير.

١٢ ـ البوهيمية وعدم النظام والفوضى. أو عدم العمل على أسس وخطط موضوعة، وما يتبع ذلك من وجود فلسفة خاصة عند الشخص، ومدى انسجام أهدافه وأغراضه.

١٣ ـ الميل نحو الفنون الجميلة وتقدير الجمال والإبداع، وما يتبع ذلك من قدرات موسيقية أو هبات جمالية وابتكارية أخرى.

١٤ ـ صفات القوة الجسمية والصحة العامة، وما يتبع ذلك من

احتمال المشاق والصبر على مواجهة الصعوبات، والتركيز والإقبال على العمل مدة طويلة.

١٥ ـ هواية النشاط الرياضي واللعب.

١٦ ـ الجري وراء الشهوات الدنيوية، كإدمان المخدرات والخضوع للذة الذاتية، وعدم الاكتراث أو الاهتمام بتوجيه الحياة إلى ما هو أجدى.

١٧ ـ اتساع الأفق وكثرة الميول، وحب الاستطلاع والبحث والتثقيف والاهتمام بما يجري في المجتمع وبالتغييرات السياسية في الداخل والخارج.

١٨ ـ الاندفاع وراء الرغبات الحاضرة وعدم تقدير العواقب، أو بعد النظر والعمل للمستقبل.

١٩ ـ مدى شعور الشخص بالرضا بما هو فيه، وما يتبع ذلك من القناعة أو الطموح، والمحافظة على عدم التغيير أو التبديل.

٢٠ ـ الاستقرار المكاني وتهيئة الذهن على الوضع المألوف، وما يتبع ذلك من صعوبات التكيف في البيئة الجديدة إذا تغيرت. أو حب الرحيل والتنقل وسهولة الانسجام في الوسط الجديد.

وقد نجد بعض التداخل والتشابه والتكرار في الصفات مما يدل على صعوبة تحديدها، وذلك لأن الشخصية كلها وحدة وكل محاولة لتحليلها تعتبر تحايلاً على تسهيل البحث والدراسة.

النواحي البيئية:

يقصد بالبيئة جميع العوامل الخارجية التي تؤثر في الشخص من بدء

نموه سواء كان ذلك متصلاً بعوامل طبيعية أو اجتماعية. أو يتصل بالعوامل الثقافية من عادات ونظم تربوية أو ظروف أسرية أو مدرسية. ويمكن أن ندرس تأثير البيئة في تكوين الشخصية بدراسة البيئة المنزلية والمدرسية وبيئة المجتمع العام.

وقد دلت بعض الدراسات والبحوث التجريبية على أن أساس شخصية الفرد ودستورها يوضع في الطفولة المبكرة وكذلك بدور الصحة النفسية. وأن هذه الأسس التي تتكون في المنزل في الأعوام الأولى من حياة الطفل يصعب تعديلها فيما بعد. وأن البيئة المدرسية لا ينفذ أثرها بعيداً عن النواحي المعرفية والثقافية. والعوامل التي تؤثر في تكوين شخصية الطفل يصعب تعديلها في أربعة عوامل هي:

١ ـ الحالة الاقتصادية للأسرة بمعنى أن يكون دخلها كافياً لسد حاجاتها الأساسية من المأكل والملبس والتعليم والنشاط الترويحي.

٢ ـ الآباء وهما مصدرا العطف والاطمئنان للأبناء، فإذا فقد أحدهم بسبب الوفاة أو بسبب الطلاق والتفكك العائلي أو اختل الوضع الطبيعي للأسرة بأن يشرف على الطفل مثلاً زوجة أبيه أو زوج أمه أو أحد الأفراد فإن هذا من شأنه أن يؤثر في شخصية الطفل.

٣ ـ المعاملة التي يلقاها الأبناء من الوالدين ومدى اتفاقهما أو تناقضهما في هذه المعاملة، وكذلك مدى تشددهم وتساهلهم في الثواب والعقاب. كل هذا ينعكس على شخصية أبنائهم ويؤثر في حياتهم النفسية.

٤ ـ مدى صلاحية المنزل للتربية. وهذا يشمل ما يقدمه الآباء للأبناء من وسائل تعليمية وما يحيطونهم به من جو ثقافي، أو ما يبديه

أحد الآباء من شذوذ في السلوك كالانحراف الجنسي أو إدمان الخمر وتعاطي المخدرات وغيرها.

أما العوامل المدرسية ذات الأثر المباشر في تكوين شخصية الطفل فإنها تستطيع أن تفعل الكثير من أجله إذا قامت برسالتها على أكمل وجه، وتستطيع الحياة المدرسية عامة أن تنمي فيه العادات والاتجاهات الاجتماعية السليمة، ويتوقف مدى تأثير المدرسة كذلك في شخصية الطفل على مدى ما تحققه من أغراض تربوية عامة وما تبذله من جهود لتربية الشخصية من جميع نواحيها. كما أن للمدرسين آثاراً هامة في تكوين فكرة الطفل على نفسه وتكوين شخصيته، ويتوقف تأثير المدرسين على التلاميذ على ما يشعرون به نحو مدرسيهم من تقدير واحترام. وكذلك النجاح الدراسي له أثره الكبير في تكوين الشخصية نظراً لما يتبعه عادة من تقدير ورضا وشعور بالارتياح والثقة بالنفس.

وبالنسبة للمجتمع العام فإن أنواع الثقافات ودرجة التعليم لها صلة وثيقة بشخصيات من يحتضنهم المجتمع من أفراد، وما يتبع ذلك من تمسك بالخرافات والاعتقاد بالشعوذة أو التصرف في الأمور بناء على الأسس العلمية الصحيحة. كما أن المعايير الخلقية والاجتماعية في البيئة ومدى ما يوجد بين الناس في نزعات عدوانية أو تزمت وتشدد أو حب الأخذ بالثأر أو مساعدة الضعيف والتعاون مع الآخرين والتسامح معهم كل هذا ينعكس على تكوين الشخصية. ولعل مما يساعد على توافق الشخصية أن يهيىء المجتمع لجميع أفراده العمل المناسب الذي يتفق مع ميول كل منهم واستعداداته وقدراته، بالإضافة إلى الطرق الصحيحة التي يقضي فيها أوقات فراغه وخير هذه السبل الهوايات العلمية والمجالات العملية والجماعات العلمية للأنشطة المختلفة.

الفصل الثاني
مقاييس الشخصية

يرى بعض علماء النفس أن قياس الشخصية يجب أن يعتمـد على الاتجاه العلمي الذي يقوم على التجريب والقياس، بينما يـرى البعض الآخر أن قياس الشخصية يعتمد على الاتجاه الإكلينيكي الذي يقوم على الدراسة الفردية للحالات وخاصة حالات الشخصية المرضية والعصابية وحالات الأطفال المشكلين. والفريق الأول ويرى أن الاتجاه الإكلينيكي يتوقف النجاح فيه على العوامل الذاتية وليست العوامل الموضوعية، الأمر الذي لا تقبله الطريقة العلمية ويضيف الفريق الأول أن هذا الاتجـاه لا يصلح إلا مع المتدربين من الأخصائيين حيث يتوقف نجاحهم على مدى خبرتهم وقدرتهم على التنسيق والتشخيص والاستنتاج. بينما يرى الفريق الآخر أنه ليس من السهل تقدير الشخصية بالطرق الموضوعية، ويؤكدون التشخيص الذاتي الذي يقـوم به الأخصـائي للشخصية التي يـدرسها. ونحن نقول أن كلا الاتجاهين صحيح في دراسة الشخصية وأن الاتجاه العلمي لا ينفي الاتجاه الاكلينيكي، فالاختبارات الموضوعية بـأنواعهـا المختلفـة التي تتضمنهـا الـطريقـة العلميـة تلقي الضـوء على صفـات الشخصية عند الأسوياء من الناس، بينما الطريقة الاكلينيكية تعتمد على دراية وخبرة الأخصائي النفسي وما لديه من قدرة على التنسيق والاستنتاج وهذا له أثره وفوائده في تقدير الشخصيات المرضية.

ويجب أن نشير إلى أن الطرق الصحيحة لتقدير الشخصية هي التي تتنـاول جوانب الشخصيـة المختلفة، والتي تجمـع بين نتائـج أكثر من

طريقة من طرق قياس الشخصية، بحيث يمكن الوصول إلى تقدير تلك الوحدة الشاملة التي نعبر عنها بالشخصية. والطرق التي تتبع لقياس الشخصية تتوقف على الغرض منها، وعما إذا كان هذا الغرض هو قياس النواحي الجسمية أو العقلية أو المزاجية أو الاجتماعية، والمعروف أن الصفات الجسمية من طبيعة عمل الطبيب حيث يستخدم وسائل الكشف الطبي المختلفة للوقوف على التكوين الغددي والكيمياوي والدموي وقياس ضربات القلب وضغط الدم وغير ذلك. وفيما يلي يختص بالعوامل الاجتماعية والبيئية فهذا يتعلق بعمل الأخصائي الاجتماعي حيث يقوم بجمع البيانات عن طريق ظروف البيئة والحياة المنزلية والمدرسية أو ظروف العمل. أما في الظواهر النفسية فإن تقديرها يتصل بطبيعة عمل الأخصائي النفسي، وقد سبق أن تحدثنا في الفصلين العاشر والحادي عشر عن الاختبارات العقلية وما يسمى باختبارات الذكاء والقدرات الخاصة. وفيما يلي سنحاول مناقشة بعض الطرق التي تسهم في قياس الشخصية وخصوصاً تلك التي تهدف إلى قياس النواحي المزاجية والانفعالية عند الأشخاص.

طريقة المقابلة:

من الطرق الموضوعية التي يجب اتباعها في تقدير الشخصية أو الاختبار الشخصي ـ وقدعالجناها تفصيلياً في هذا الكتاب (انظر صفحة ١١٣) والمقابلة يقوم بها الأخصائي النفسي أو الطبيب النفسي، وليس هناك قاعدة عامة تتبع في جميع حالات المقابلة إنما يتوقف الأمر عادة على طبيعة الحالة.

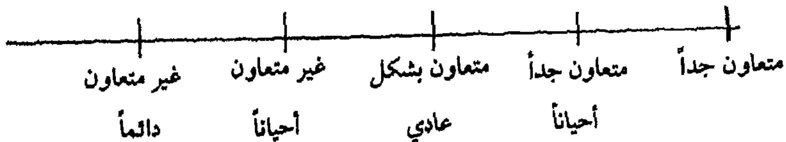
طريقة بحث الحالات:

تعتبر طريقة بحث الحالات الفردية من الطرق الهامة في دراسة الشخصية والتي تتبع في العيادات السيكولوجية حيث تتم دراسة الحالة من جميع النواحي الجسمية والنفسية والاجتماعية التي يحتمل أن تكون لها صلة بالانحراف والاضطراب، ويكون ذلك بتتبع الحالة من بدء الطفولة للوقوف على ما تعرض له الفرد من أمراض أو مشاكل أو صدمات تغير في التشخيص والعلاج الذي يتعاون فيه فريق من المختصين في النواحي الطبية والنفسية والاجتماعية.

ولما كانت هذه الطريقة في دراسة الحالات الفردية تستحق مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلاً، فإنها لا تستخدم إلا مع الحالات الخاصة كدراسة العباقرة وغيرهم من أصحاب الشذوذ كالمرضى والمنحرفين.

مقاييس التقدير:

هي وسائل تقدير الفرد في صفة من الصفات أو مجموعة منها مثل: الزعامة، والشجاعة، والتعاون، والكرم، وتحمل المسئولية، والحساسية الاجتماعية وهكذا... ثم نحلل كل صفة من هذه الصفات إلى سلم تدريجي لمظاهرها، على أن نفسر المعاني المقصودة بكل درجة من درجات هذه الصفة، فإذا كان المراد قياسه مثلاً في الفرد سمة التعاون يكون السلم التدريجي لمظاهر القدرة على التعاون على النحو الآتي:



ودرجة الاعتماد على هذه الموازين يتوقف على الأشخاص الذين يقومون بعملية التقدير ودرجة كفايتهم من حيث فهم المراد قياسه لأن صفة ما عند أحد المقدرين قد تعني شيئاً آخر عند مقدر آخر، لذلك يجب تحديد الصفة تحديداً واضحاً وكافياً لاستبعاد اللبس أو الغموض، فتعطى تعريفات محددة أو مرادفات لغوية لها، أو تعطى أمثلة محددة من السلوك الذي يدخل تحتها.

وهذه الموازين يستطيع أن يطبقها المدرسون على تلاميذهم والآباء على أبنائهم وأصحاب العمل على عمالهم، والأصدقاء على زملائهم. . . وغير ذلك ممن يكون لهم اتصال وثيق بالأفراد المراد تقدير صفاتهم كما يستطيع الأشخاص أن يطبقوا هذه الموازين على أنفسهم بتقدير درجة الصفة التي تنطبق على حالة كل منهم.

ويجب أن نشير أنه ليس من السهل الحكم على صحة مقاييس التقدير لأنه ليست هناك تقديرات سابقة ثبتت صحتها ليمكن الاستناد عليها لقياس محامل الصحة، ومن ثم لا يكتفي بالدور الذي يقوم به المقدر الواحد، بل يؤخذ متوسط نتائج عدد من المقدرين ذوي القدرة والكفاية على التقدير الصحيح مع استبعاد العوامل التي تؤثر في صحة الأحكام كالتحيز والتعصب وعدم المعرفة الكافية بالأفراد.

الاختبارات الاسقاطية:

الإسقاط عملية عقلية لا شعورية يقوم فيها الفرد بلصق أو نسب بعض أفكاره أو مشاعره أو رغباته أو صفاته الانفعالية إلى أشياء أو أشخاص في البيئة المحيطة به، وتظهر هذه العملية بوضوح عندما يقوم

الشخص بتفسير بعض خبراته تفسيراً لا يتفق مع الواقع وإنما يتأثر بما يجري في نفسه.

وقامت فكرة الاختبارات الإسقاطية على أساس إعطاء الفرد بعض المثيرات ليقوم بتفسيرها أو تحليل ما يراه فيها من أشياء غامضة مثل اختبارات الصور، وبقع الحبر، والتداعي، وتحليل القصص وغيرها. . . ويختلف الأشخاص فيما بينهم في تفسير هذه الأشياء، فحين يتحدث الشخص عن صورة ما فهو يكشف عن نواحي تتصل بأفكاره ومشاعره وما تنطوي عليه اتجاهاته النفسية، وبعبارة أخرى يظهر عالمه الداخلي باسقاطه على الأشياء التي يراها دون علم نفسه، أي يكشف عن شخصيته بما لديه من قيم ومثل وميول ورغبات ومعتقدات واتجاهات، أو مخاوف شعورية أو لا شعورية.

وتستخدم الاختبارات الإسقاطية في تشخيص وعلاج الحالات التي تعاني من صراعات أو اضطرابات نفسية أو عاطفية ويتولى إجراؤها علماء النفس والأطباء النفسيون، ومن أهم هذه الاختبارات. اختبار رورشاخ لبقع الحبر، واختبار تفهُّم الموضوع أو تفسير الصور الغامضة، واختبارات التداعي، واختبارات تحليل القصص وغيرها. . .

ومن أهم هذه الاختبارات ما يلي:

اختبار بقع الحبر لرورشاخ: وضع فكرة هذا الاختبار العالم السويسري «رورشاخ» وهو يتكون من عشر بطاقات من الورق المقوي على كل منها بقعة من الحبر، ونصفها ملون والنصف الآخر غير ملون ولكل شكل من أشكال بقع الحبر خواصه الفريدة من حيث الشكل واللون والظلال وكذلك الفراغات البيضاء. وتصلح هذه البطاقات

للتطبيق على الأشخاص في جميع مراحل النمو. وتتلخص فكرتها في عرضها على المفحوص الواحدة بعد الأخرى، ويطلب منه أن يذكر ما يراه، وما يجول بخاطره في شأنها فيكشف عن عالمه الخاص عندما يتحدث عما يراه في البطاقات العديدة التي قد يسقط عليها أفكاره ومدلولاته ووجدانياته دون أن يعي ما يقول. ويقوم الأخصائي بتسجيل استجابات الفحوص عن كل بطاقة بالإضافة إلى كل تعبيراته وحركاته التي تثيرها كل منها تمهيداً للدراسة التي تقوم على معرفة الردود التي ترى البقعة ككل أو أجزاء متفرقة، وهل الردود تتصل بالشكل العام أو الألوان أو الإحساسات الحركية وهل تتعلق بالنبات أو الحيوان أو الأشخاص وهل تدل على الابتكار أو أشياء شائعة. ومن هذه الردود يمكن تفسير ووصف شخصية المفحوص على النحو التالي:

* رؤية البقعة ككل تدل على مستوى عقلي أعلى للفرد.

* رؤية التفاصيل تدل على الدقة والنقد، وزيادتها بدرجة كبيرة تدل على القلق والوساوس.

* التأثر بالألوان يدل على الاندفاع وعدم الاستقرار.
* التأثر بالألوان والشكل معاً يدل على ضبط النفس.
* رؤية الحيوانات تشير إلى عدم النضج.
* رؤية الأشياء الصغيرة تشير إلى الانشغال بتوافه الأمور.
* الردود الابتكارية تشير إلى عمق التفكير.
* الردود الشائعة تشير إلى سطحية التفكير.

والاختبار يطبق على نطاق واسع في ميدان الصحة العقلية في العيادات النفسية، وقد أسهم في فهم الشخصيات المنحرفة المختلفة كالأحداث المنحرفين، ومدمني الخمور، والمرضى بالتهتهة

والفصـاميين، وقـد مكن من إلقـاء الضـوء على مـدى فـاعليـة العـلاج النفسي. وقـد نـال رورشـاخ أهمية كبرى في إنجلتـرا وأمريكـا، وأثبتت نتائجه آثارا قيمة في دراسة الأسوياء والمصابين بأمراض عقلية حيث إنه يكشف عن المستوى العقلي للفرد وطـريقته في التفكيـر مما قـد تعجز الاختبارات الأخرى عن تشخيصه.

٢ ـ **اختبار تفهم الموضوع**: يتكون هذا الاختبار من ٣٠ صورة عشر منها للذكور، وعشر للإنـاث، والباقي تصلح لـلأطفال والكبـار من كل جنس، وتحتوي كل منها على شخص يمكن أن يتقمصه المفحـوص، ويطلب منه أن يروى قصة تدور حول هـذه الصورة ثم يقـوم الأخصائي بتسجيل مايدلي به الشخص. ولما كانت الصور من النوع الغامض الذي يحتمـل كثيراً من التفسيـرات ويمكن أن يثيـر كثيـراً من الأفكـار، فـإن القصص التي يرويها الفرد غالبـاً ما تكشـف عن حيـاته ورغبـاته وميـوله ومخاوفه ومتاعبه دون أن يفطن لذلك مما يلقي الضوء على شخصيته.

٣ ـ **اختبـار تداعي المعـاني**: تقوم فكـرة هذا الاختبـار على إعداد قائمة من الكلمات تسهم في الكشف عن الصراعات النفسية والمخاوف اللاشعورية عند الأفراد ويجري الاختبار بأن نقدم للمفحوص كلمة بعد الأخرى، ليرد على كل منها بذكر أول كلمة تخطر على ذهنه مع حساب عـامل الـزمن في الرد على كـل منها، ومـلاحـظة مـظاهـر الاضـطراب والانفعال والتردد أو الحرج أو التوقف عند الرد على مختلف الكلمات. ويستعان بهذا النوع من الاختبارات في التحقيقات الجنائيـة فيما يبـديه الشخص من تـوقف عن الإجـابـة أو طـول الـزمن الـرجعي للرد على الأسئلة.

وهناك اختبارات إسقاطية أخرى يمكن الاسترشـاد بها في الكشف

عن جوانب الشخصية كاختبار تفسير الصور عند الأطفال واختبار تكميل القصص وصور السحب والتغيير باللعب وكلها يمكن أن تعكس المشاعر والأفكار الخاصة عند الأفراد.

ومما هو جدير بالإشارة أنه في جميع الأحوال يحسن أن يقترن تفسير هـذه الاختبـارات بمـا يؤيـده من المصـادر والـطرق الأخـرى لـدراسـة الشخصية.

الفصل الثالث

التحليل النفسي

سكولوجيا الهفوات:

لن نبدأ اليوم بفروض وقضايا مسلمة ، بل ببحث طائفة معينة من الظواهر المشاعة المألوفة ، لا يعيرها الناس اهتماماً كافياً. وهي بعد ظواهر غير مرضية لأنها مذاعة بين الأسوياء من الناس. وأعني تلك الظواهر التي نطلق عليها اسم الهفوات والتي يقع كل واحد منا في أمثالها: أن ينطق المرء أو أن يكتب كلمة غير التي يريد أن ينطق بها أو أن يكتبها ـ سواء لاحظ ذلك أو لم يلاحظه ـ وتلك ما تسمى فلتات اللسان وزلات القلم. . أو أن يقرأ القارىء شيئاً غير ما هو مسطور أمامه بالفعل، أو أن يسمع السامع غير ما يقال له، دون أن يكون لديه عيب في حاسة السمع بطبيعة الحال. وثمة نوع آخر من تلك الظواهر يقوم على نسيان الأشياء نسياناً مؤقتاً لا دائماً، كما يعجز الإنسان مثلاً عن تذكر اسم يعرفه حق المعرفة ويستطيع أن يتعرفه متى رآه. أو كما ينسى تنفيذ شيء قصد إليه ثم يتذكره فيما بعد، فيكون بذلك قد أنسيه فترة محدودة فقط. وثمة نوع ثالث من هذه الظواهر لا يكون مؤقتاً كالنوع السابق، كما يعجز الإنسان عن العثور على أشياء حفظها في مكان ما. وهذا ضرب من النسيان لا ننظر إليه كما ننظر إلى النسيان المألوف، بل ندهش له أو نضيق به ولا نفهم له معنى. وتتصل بهذه الظواهر أخطاء معينة تدوم وقتاً قصيراً ثم تزول، كأن يعتقد الإنسان بصحة شيء برهة من الزمن، في حين يراه باطلاً قبل هذه البرهة وبعدها. هذا إلى عدد كبير من الظواهر المشابهة لتلك، تعرف بأسماء كثيرة مختلفة.

هذه الهفوات تكاد تكون جميعها أفعالاً من نوع غير هام. وهي في أغلب أحوالها مؤقتة وليست لها دلالة كبيرة أو أهمية علمية في الحياة، اللهم إلا في حالات نادرة كما لو فقد المرء شيئاً مُعيناً مثلاً. لذا لا يكترث الناس بها كثيراً فلا تستثير منهم وجداناً ظاهراً.

تلك هي الظواهر التي أطلب منكم الآن أن تتأملوها وأن تنظروا فيها. غير أني أسمعكم تتهامسون وتعترضون غير راضين «إن دنيا النفس الفسيحة والضيقة تزخر بألغاز معقدة كثيرة، وإن مجال الاضطراب النفسي حافل بمعميات شتى بها حاجة إلى التفسير وهي جديرة به. أفليس من السخف أن نضيع جهودنا ونصرف اهتمامنا إلى هذه التوافه من الأمور؟ لو كان في وسعك أن تفسر لنا كيف يتسنى لشخص سليم السمع والبصر، أن يرى وأن يسمع في رائعة النهار أشياء لا وجود لها في الواقع، أو أن تفسر لنا كيف ينقلب على حين فجأة فيعتقد أن أقرب الناس إليه وأعزهم عليه يكيدون له ويتربصون به الدوائر، أو أن تعلل لنا بحجج بارعة هجاساً يبدو هراء وسخفاً في نظر أي طفل. لو استطعت هذا، إذن لأقبلنا على التحليل النفسي، ولكان حرياً أن نضعه موضع اعتبار. فإن لم يستطع التحليل أن يشغلنا بشيء أكثر خطراً من أن نبحث عن السبب في خروج اللفظ بالمتكلم عما يريد، أو في عجز ربة البيت عن العثور على مفاتيح لها، إلى غير تلك من التوافه، إذن لانصرفنا عنه إلى ما يشغل أوقاتنا واهتمامنا بما هو خير من ذلك».

فأوصيكم بالصبر إن اعتراضكم ليس في الاتجاه السليم. صحيح إن التحليل لا يستطيع أن يزهو بأنه لم يتناول قط أشياء تافهة. بل الأمر على خلاف هذا فالملاحظات التي يقوم بها تستمد عادة من أحداث الحياة الجارية المألوفة، أعرضت عنها العلوم الأخرى فلم تر فيها أشياء

ذات بال يُعتد بها بل نفاية من نفايات علم الظواهر، إن جاز التعبير. لكن ألستم في نقدكم هذا تخلطون بين أهمية المشكلة وبين مظاهرها وإماراتها؟ ألا تبدو الأمور الهامة الجسيمة، في بعض الظروف وفي بعض الأحيان، في صورة أمارات طفيفة زهيدة جداً؟ ولا يشق علي أن أضرب لكم أمثلة عديدة على هذا. فلو أن شاباً منكم جاز رضاء سيدة من بين من يستمعن إلي مثلاً، ففي أي صورة ينكشف هذا الرضاء؟ أتراه ينتظر منها تصريحاً سافراً بهذا؟ أم يتوقع أن تهجم عليه فتعانقه عناقاً حاراً؟ أم تراه يقنع بنظرة لا يكاد يحسها الغير أو بإيماءة عابرة أو بمصافحة يطول أمدها بعض الطول؟ ولو أن أحدكم كان يقوم بتحقيق جنائي في جريمة قتل، فهل ينتظر أن يترك له القاتل في مكان الجريمة، صورته الشمسية وعليها اسمه وعنوانه، أم نراه مضطراً إلى أن يقنع بآثار طفيفة يكشف بها عن هوية القاتل؟ فخليق بنا ألا نغض من شأن العلاقات الطفيفة المستصغرة، فقد تتيح لنا الوقوع على أشياء أعظم منها خطراً. ثم إني أرى كما ترون أن المشكلات الكبرى في العالم وفي ميدان العلم هي التي يجب أن تشغلنا قبل غيرها من المشكلات. غير أنه مما لا طائل فيه بوجه عام، أن يعقد المرء عزماً نهائياً على تكريس جهده لبحث هذه المشكلة الكبرى أو تلك فكثيراً ما يمسي في حيرة من أمر توجيه خطواته في هذه الحالة. وخير لمن يقوم ببحث علمي أن يتناول كل شيء يعرض له من تلقاء نفسه متى كان السبيل إلى ارتياده ميسوراً. فإذا ما أحسن القيام به والمضي فيه، دون أن ينقاد للأحكام السابقة أو للآراء المقررة من قبل، فقد يجد في مثل هذا العمل المتواضع - إن صاحبة التوفيق ما يفضي به - إلى دراسة المشكلات الكبرى، وذلك لما بين الأمور جميعها، وبين صغيرها وكبيرها من صلات وروابط.

هذا ما أردت أن أسوقه إليكم طمعاً في أن أظفر باهتمامكم إذ أعالج

تلك الهفوات التي تبدو في ظاهرها زهيدة لا يعتد بها والتي يتورط فيها الأسوياء من الناس. وهنا أقترح أن أسأل بعض من ليست لهم معرفة بالتحليل النفسي أن يفسروا لنا هذه الهفوات.

لا شك أنه سيجيبنا أول الأمر بقوله. «إنها أشياء لا تستأهل أي تفسير، إن هي إلا حوادث مستصغرة غير ذات بال». ترى ماذا يعني بقوله هذا؟ أيعني أن هناك أحداثاً على درجة من الصغر والضآلة بحيث تفلت من الخضوع للتتابع العلمي للظواهر، وبحيث يمكن أن تكون غيرها ما هي عليه؟ أما من حاول أنه يتملص، على هذا النحو، من حتمية الظواهر الطبيعية، حتى في ناحية فردية منها، فقد قلب النظرة العلمية إلى العالم برمتها وعلينا أن نذكره أن النظرة الدينية إلى العالم أكثر تماسكاً وأبعد عن التناقض مما يقول فهي تؤكد لنا بصورة قاطعة «أنه ما من عصفور يهوى إلى الأرض إلا إذا شاء الله. وهنا أخال صاحبنا يعرض عن استخلاص النتيجة المنطقية التي تترتب على جوابه الأول، بل يمتثل فيقول إنه لو درس هذه الأشياء فسرعان ما يقع لها على تفسير. فلا بد أننا بصدد اضطرابات وظيفية طفيفة أو خلل في بعض أوجه النشاط النفسي يمكن الكشف عن شروطه وظروفه. فالإنسان الذي يتكلم عادة في غير تعثر، قد يزل لسانه ١ - متى كان متعباً أو كانت به وعكة خفيفة ٢ - أو متى كان مهتاجاً ٣ - أو متى كان انتباهه مركزاً في شيء آخر غير ما يقول. وإثبات هذا ليس بعزيز. ففلتات اللسان كثيرة الحدوث بالفعل متى كان الإنسان متعباً أو يشكو من صداع أو كان على وشك أن تصيبه نوبة من نوبات الشقيقة. ونسيان أسماء الأعلام غالباً ما يحدث في هذه الأحوال، بل كثيراً ما يكون العجز عن تذكر هذه الأسماء نذيراً بحلول الشقيقة. وفي حالات الاهتياج الشديد يخلط الفرد بين

الألفاظ وبين الأشياء بعضها وبعض، ويصيبه الخرق في أداء الأعمال. ثم إن نسيان الفرد لماينوي القيام به، أو قيامه بأعمال لا يقصد إليها، مما يكثر تواتره في لحظات الغفلة بوجه خاص، أي حين يكون انتباهه مشتتاً في أشياء أخرى. ومن الأمثلة المعروفة لهذه الغفلة حالة الأستاذ في أوبريت «الأوراق الطائرة» Fliegende Blatter إذ ينسى مظلته ويأخذ قبعة غير قبعته لأنه كان يفكر في أمور ستكون موضوع كتابه التالي. وكلنا يعرف من خبرته الخاصة ما ينساه من وعود أو مشروعات عليه أن ينجزها إذا جد شيئاً يستحوذ على انتباهه في تلك الفترات استحواذاً كبيراً.

كل هذا يلوح لكم واضحاً مفهوماً وفي منأى عن الاعتراض والنقض. وربما لا يكون على جانب كبير من الطرافة، أو لا يكون من الطرافة ما كنا نتوقع. فلننعم النظر إذن في هذا التفسير للهفوات. إن الظروف المختلفة التي يقال إنها لازمة لحدوث هذه الظواهر، ليست كلها من نوع واحد. فالمرض واضطرابات الدورة الدموية أسس فسيولوجية لاختلال الوظائف السوية، في حين أن الاهتياج والتعب والغفلة ظروف من نوع آخر يمكن أن توصف بأنها ظروف سيكوفسيولوجية. وليس من العسير أن تستقيم في هذه الظروف الأخيرة نظرية فحواها أن التعب وغيبة الذهن، وربما كان الاهتياج العام أيضاً تؤدي إلى شرود الانتباه، فلا يستطيع الفرد أن يوجه إلى الفعل الذي يقصد إليه قدراً كافياً من الانتباه وعندئذ يكون من اليسير جداً أن يضطرب الفعل أو أن يؤدي أداء غير محكم. وقد يكون للمرض الطفيف أو لتغير توزيع الدم في الجهاز العصبي المركزي هذه النتيجة عينها، إذ يؤثران بنفس الطريقة في توزيع الانتباه وهو العامل الحاسم في هذه الحالة. فالمسألة في كل هذه الأحوال لا تعدو أن تكون نتيجة لاضطراب الانتباه لأسباب عضوية أو نفسية.

غيـر أن هذا كله لا تبـدو له أهميـة من شأنهـا أن تستثير اهتمـامنـا بالتحليل النفسي وهذا قد يميل بنا، مرة أخرى، إلى أن ننفض أيدينا من هذا الموضوع . والحق أننا لو محصنا الحقائق تمحيصاً دقيقـاً، لظهـر لنا أنها لا تتمشى جميعها مع «نظريـة الانتباه» هـذه، أو أننا على الأقـل لا نستطيع أن نستنتج كل شيء من النظرية مباشرة. فـأمثال هـذه الهفوات وذلك النسيان يقع أيضاً من أناس ليسوا متعبين أو مهتاجين، بل في حالة سوية من جميع الوجوه، اللهم إلا إذا عزونا إليهم من أجل هذه الهفوات بذاتها، حالة من الاهتياج لا يعترفون بها أنفسهم كما أن الأمر ليس من البسـاطة بمـا يجعلنا نقـول إن الأداء الصحيح لـلأفعال مـرهون بتـركيز الانتباه، وأن الخطأ فيها مصدره نقصان الانتباه فكثير من الأفعال يقوم بها الفرد بصورة آلية محضة لا يكاد يصاحبهـا انتباه، وهـذا لا يمنع من أن يؤديها أداءً حسناً. من تلك أن السائر في الطريق لا يكاد يعرف أين هو ذاهب، ومع هذا فهو يتخذ الطريق الصحيح حتى يقف عند غايتـه دون أن يضل. هذا ما يحدث على الأقـل عادة. والعـازف المدرب تنسـاب أصابعه على المفاتيح الصحيحة من البيانـو دون تفكير فيهـا. وقد يقـع بطبيعة الحال في خطأ عارض، لكن العزف الآلي لـو كان من شـأنه أن يزيد من الأخطاء لكان هـذا العازف أكثـر تعرضـاً من غيره، فقـد جعله تدريبه المتواصل يعزف بصورة آلية محضة. بل المشاهد عكس هذا، إذ نـرى أن كثيراً من الأفعـال يؤديها صـاحبها أداءً صحيحـاً حين لا يكون انتباهه مركزاً فيهـا بوجـه خاص، وأن الأخـطاء قد تقـع بالتحـديد حين يحرص الحرص كله على مراعاة الدقة في عمله أي حين لا يكـون ثمة شـرود في انتباهــه ألبتة. ورب قـائل يقـول إن الخطأ نتيجـة «لاهتياج» الفرد. لكنا لا نفهم لِمَ لا يكـون هذا الاهتيـاج خليقاً بـإرهاف الانتبـاه وتركيزه في الهدف الذي يحـرص الفرد على بلوغـه الحرص كله وعلى

هذا فلو أن خطيباً كان يلقي حديثاً هاماً، فخرج به اللفظ إلى عكس ما يريد، لعز علينا أن نفسر هفوته تلك بالنظرية السيكوفسيولوجية أو كما نسميها نظرية الانتباه.

ثم أن هناك ظواهر ثانوية صغرى تصاحب الهفوات نفسها، ولا يمكن فهمها وإيضاحها بأمثال هذه التفاسير. من تلك أن ينسى المرء اسماً معيناً نسياناً مؤقتاً فيضيق صدره بذلك، ويصمم على استحضار هذا الاسم، فيدأب في ذلك ولا يرتاح إلا إذا وجده. فلمَ لا يفلح على الأغلب من ضيق صدره ومن تلهفه، ورغبته في توجيه انتباهه إلى تلك الكلمة التي يقول إنها «على طرف لسانه»، والتي يتعرفها من فوره أن ذكرت له؟. وثمة حالات أخرى تكثر فيها الهفوات ويتشابك بعضها مع بعض، أو يقوم بعضها بديلاً عن بعض. فقد ينسى المرء موعداً ما فيعزم على ألا ينساه مرة أخرى، غير أنه يكتشف أنه أخطأ يوم الموعد أو الساعة المحددة له. أو أن يلجأ أحدنا إلى شتى الحيل ليتذكر كلمة منسية، فإذا به ينسى، في أثناء محاولاته تلك، كلمة ثانية قد تفيده في استحضار الكلمة الأولى. فإذا أخذ يبحث عن الكلمة الثانية، نسي كلمة ثالثة وهكذا. ويحدث مثل هذا أيضاً في الأخطاء المطبعية، وهي ما يمكن اعتبارها هفوات يقع فيها صفاف الحروف. من أمثال هذه الهفوات الملحة ما حدث لجريدة ديمقراطية اشتراكية أرادت أن تعلق على حفلة من الحفلات فقالت: «وكان وزر الدولة من الحاضرين» [بدل أن تكتب وزير الدولة] فحاولت في اليوم التالي أن تصحح هذا الخطأ وتستدركه فاعتذرت قائلة: «وكان زير الدولة من الحاضرين». ونحن نميل إلى أن نعزو أمثال هذه الهفوات إلى روح شريرة تساكن آلة الطباعة، أو إلى شيطان رجيم إلى غير تلك من التعبيرات المجازية،

التي تتضمن، على الأقل، شيئاً أكثر من التفسير السيكوفسيولوجي للخطأ المطبعي.

لست أدري ما إذا كنتم تعرفون أن فلتات اللسان يمكن استثارتها. بصورة ما، عن طريق الإيحاء. فإليكم فكاهة توضح ما أريد: عُهد إلى ممثل مسرحي ناشىء أن يقول العبارة الآتية في موقف جدي من مواقف الرواية «من علامات الرحمة أن تكون خياراً لا اضطراراً». فأراد أحد زملائه أن يداعبه في أثناء التجربة بأن أخذ يعيد عليه هذه العبارة محرفة على النحو الآتي: «من علامات الرحمة أن تكون خياراً لا فشاراً». فلما كان المساء وبدىء في التمثيل إذا بذلك الممثل الناشىء يتورط مكرها في العبارة المحرفة على الرغم من أنه حذر من ذلك تحذيراً كافياً قبل التمثيل، أو لعله تورط في الخطأ من جراء هذا التحذير بعينه. إن كل هذه الخصائص الصغيرة التي تتسم بها الهفوات لا تنجلي كثيراً في ضوء نظرية الانتباه الشارد. غير أن هذا لا يوجب حتماً أن تكون النظرية خاطئة، فقد تكون هناك حلقة مفقودة، إن وقفنا عليها، أمست النظرية مقبولة قبولاً تاماً. على أن كثيراً من الهفوات نفسها يمكن النظر إليها من ناحية أخرى.

ولنختر من الهفوات فلتات اللسان على أنها خير مثال يلائم الغرض الذي ننشده. وقد كان في وسعنا أن نختار زلات القلم أو عثرات القراءة، فهي في الأمر سواء. ولنذكر أننا لم نتصد حتى الآن إلا للظروف التي يعثر فيها اللسان، ومتى يعثر، وأننا لم نتلق جواباً إلا عن هذه الناحية ليس غير. على أنه من الممكن أن ننظر إلى الموضوع من ناحية أخرى فنتساءل: ولمَ تقع هذه الفلتة بذاتها من دون غيرها من الفلتات؟ أي من الممكن أن ننظر في طبيعة الهفوة نفسها والشكل الذي

تتخذه. وسترون أننا ما دمنا لم نعثر على جواب لهذا السؤال، وما دمنا لم نفسر صدى الهفوة ونتيجتها، فستظل هذه الظاهرة مجرد حادثة عارضة من الناحية السيكولوجية، حتى إن وجدنا لها تفسيراً فسيولوجياً. من الواضح الجلي أن زلة اللسان التي أتورط فيها، يمكن أن تتخذ أشكالاً لا عداد لها، فقد استبدل بالكلمة الصحيحة ألافاً غيرها، وقد أحرفها وأمسخها بطرق شتى. ترى هل ثمة أسباب حاسمة تقسرني على أن أرتكب، في موقف معين، فلتة خاصة بعينها من بين ذلك القدر الضخم من الفلتات الممكنة، أم أن الأمور تجري تعسفاً واعتباطاً، بحيث لا نجد للسؤال الذي طرحناه جواباً معقولاً؟.

لقد حاول مرنجر Meringer وماير Mayer (أولهما من فقهاء اللغة والآخر من علماء الطب العقلي) أن يتناولا مشكلة فلتات اللسان من هذه الناحية، وكان ذلك في عام ١٨٩٥. فجمعا أمثلة منها وعالجاها أول الأمر من ناحية وصفية محضة، فلم يتح لهما هذا الاتجاه، بطبيعة الحال، أي تفسير وإن كان قد هداهما إلى الطريق الذي يمكن أن يسلم إلى بعض التفاسير. ثم ميزا بين أنواع مختلفة من التحريف الذي يصيب العبارة المقصودة، فمنها: القلب (في وضع الكلمات أو المقاطع أو الحروف) والسبق والاستتباع والادغام أو التضمير والابدال فمن الأمثلة على «القلب» - في وضع الكلمات - أن يقول المرء، «على عزم أهل القدر تأتي العزائم» بدل «على قدر أهل العزم...» ومنها تلك الفلتة المعروفة لنزيل الفندق الذي طرق باب غرفة يقطنها أحد الأمراء فلما قيل له «من الطارق؟»، أجاب «الأمير، أيها الندل» أو أن يقول القائل: «استثار فيهم رهبة غائلة» بدل أن يقول: «رغبة هائلة» ومن أمثلة «السبق» أن يقول الإنسان: «صدرت هذه الفكرة...» بدل أن يقول: «ثقلت هذه

الفكرة على ضدري»، وأن يهفو الخطيب فيقول: «تفزعون عند الفزع» بدل أن يقول: «تكثرون عن الفزع». أما «الاستتباع» فيتضح من تلك الحالة الشهيرة التي قال فيها أحد المدعوين إلى حفل ما، وهو في معرض كلامه عن تكريم رئيسه: «قدمت لكم أن سرورنا لا يقدر بفقد رئيسنا» بدل أن يقول بفوز رئيسنا. فورود «قد» مرتين قبل أن ينطق الخطيب بالهفوة استتبع الوقوع فيها. هذه الطرز الثلاثة من الفلتات ليست على جانب كبير من الذيوع. وأكثر منها تلك الفلتات التي تنجم عن اندماج كلمتين بعضهما في بعض بعد أن تنضمر كل واحدة منهما. وهذا هو «الإدغام» أو «التضمير»: كما لو تقدم رجل إلى سيدة يريد أن يرافقها في طريقها فقال لها: «هل تأذنين لي في أن أراقبك في الطريق». فهنا حدث الإدغام بين كلمتين همالأرافقك وأعاينك. (ونذكر بهذا الصدد أن رجلاً يخاطب امرأة على هذا النحو لا يكون له في نفسها من الرضا ما يريد). وأما «الإبدال» فمن الأمثلة عليه أن يقال إن فلانا يغفو عن كثير من أخطاء مرءوسيه، بدل أن يقال يعفو. وقد أراد رجل أن يقول إن ابنه محروس هو الذي كسر الإناء فقال: إن كسره هو محروق.

أما التفسير الذي يحاول هذان الباحثان أن يستخلصاه مما جمعا من أمثلة، فتفسير قاصر على وجه غريب. فهما يريان أن مقاطع الكلمة والأصوات التي تتألف منها تتفاوت أهميتها من حيث فاعليتها العصبية وقوتها، وأن الأصوات ذات الأثر الأكبر قد تتداخل في أخرى أقل منها أثراً فتظهر عليها. ومن الواضح أنهما يصدران عن هذه النتيجة من حالات السبق والاستتباع، وهي حالات قليلة الحدوث، على حين أننا لا نلاحظ هذه الغلبة التي تكون لبعض الأصوات على بعض ـ حتى إن وجدت ـ ولا نلمس لها أثراً في الأنواع الأخرى من الفلتات فأكثر الفلتات

ذيوعاً تلك التي يهفو فيها اللسان بكلمة تشبه الكلمة المقصودة، حتى أن كثيراً من الناس يرون في هذا التشابه تفسيراً كافياً للفلتة. من ذلك أن أستاذاً قال لطلابه وهو يحيي الأستاذ السابق في المحاضرة الافتتاحية: «لا يسعني إلا أن أشير إلى جموده في البحث» بدل أن يقول: «إلى جهوده في البحث».

إن أظهر فلتات اللسان وأكثرها استرعاء للإنتباه، تلك التي ينطق فيها المتكلم بالكلمة المضادة لما يريده تماماً. وتلك حالات بعيدة كل البعد عن أن تكون نتيجة لأية علاقات بين الأصوات، أو لأي تخليط يرجع إلى التشابه فإذا أخرجنا هذين العاملين من حسابنا، صح لنا أن نستأنس بحقيقة معروفة، هي أن الأضداد يقوم بين بعضها وبعض صلات قوية في الذهن، وأنها وثيقة الإرتباط بعضها ببعض من الناحية النفسية. وثم أمثلة مشهورة لما نقول. فقد حدث مرة أن افتتح رئيس مجلس النواب إحدى الجلسات بقوله: «العدد القانوني، فأعلن انفضاض الجلسة».

ثم أن أي نوع آخر من أنواع التداعي المألوفة قد يكون له من الأثر الخادع ما لتداعي الأضداد، وقد يؤدي في بعض الظروف إلى ما تؤدي إليه تلك من عواقب غير مناسبة. من أمثال ذلك ما يحكى من أن ديبوا ريمون ـ Duhois Revmond الفسيولوجي الشهير كان يتحدث في حفل أقيم لزواج أحد أولاد هلمهولتز Helmholtz من ابنة سيمنز Siemens المخترع المعروف وأحد كبار رجال الصناعة: وقد اختتم حديثه البارع دون شك بقوله: «أرجو التوفيق للشركة الجديدة بين سيمنز وهالسكه Halske. وقد كان هذا في الواقع اسم الشركة القديمة «سيمنز ـ هالسكه»، والتداعي بين هذين مألوف لكل من يقيم في برلين.

من أجل هذا لا مناص من أن ندخل تأثير التداعي اللفظي في حسابنا، كما أدخلنا تأثير التشابه اللفظي والتأثير العصبي للأصوات. وحتى إن فعلنا، فلست أرى في هذا تفسيراً كافياً. ذلك أن هناك طرازاً من الفلتات لا يمكن تفسيرها تفسيراً سديداً إلا إذا نظرنا إلى العبارة التي نطق بها المتكلم أو التي كان يفكر فيها سابقاً. وهنا يؤكد «مرنجر» مرة أخرى أننا بصدد حالات من «الاستتباع» ولو أنها تنشأ من مصدر بعيد. وعلى هذا يتعين على أن أصرح لكم أنه يلوح لي أننا الآن أبعد عن فهم الفلتات مما كنا عليه من قبل.

على أني أرجو ألا أكون مخطئاً إن زعمت أننا خرجنا من فحص الأمثلة السابقة بانطباع جديد، ربما كان حرياً أن نعيره اهتماماً أكبر. لقد كنا نبحث في الظروف العامة التي تقع فيها فلتات اللسان، ثم بحثنا في العوامل التي تعين نوع التحريف فيها، لكنا لم نفحص إلى الآن صدى الفلتة نفسه، كموضوع جدير بالاهتمام في ذاته بغض النظر عن منشئها وأصلها. ولئن فعلنا، رأينا أنفسنا مضطرين إلى أن نصرح، آخر الأمر، في جُرأة بأن الفلتة نفسها يكون لها في بعض الأحيان معنى. لكن ماذا نعني حين نقول إن للفلتة معنى؟ نعني أن صدى الفلتة قد يكون جديراً بأن ننظر إليه في ذاته على أنه فعل نفسي مكتمل يهدف إلى تحقيق غرض خاص به، وعلى أنه مظهر له مضمونه ودلالته. إننا لم نتحدث بعد إلا عن الهفوات، غير أنه يلوح لنا الآن أن الهفوة قد تكون في بعض الأونة سلوكاً يتسم بما يتسم به كل سلوك سوى، إلا أنه زج بنفسه مكان السلوك الذي يتوقعه الفرد أو يقصد إليه.

وقد يبدو المعنى الذي تنطوي عليه الفلتة نفسها واضحاً لا يخطئه التقدير في بعض الأحوال، فعندما أعلن رئيس مجلس النواب انفضاض

الجلسة في حديثه الافتتاحي، كانت الظروف التي وقعت فيها الفلتة مما يبيح لنا أن نـرى فيها معنى، فقـد كان الـرئيس لا يرجـو خيراً من هـذه الجلسة، وكان يود أن تنفض على الفور. وهنا لا يعز علينـا أن نكشف عن معنى الفلتة أو تأويـل مدلـولها. ومن أمثـال ذلك أيضـاً قول سيـدة معروفة بصرامة خلقها وإصرارها: «سأل زوجي الطبيب عن نوع الغذاء الذي ينبغي أن يقدم له، لكن الطبيب أجابه بأنه ليس في حاجة إلى غذاء خاص، وأنه يستطيع أن يأكل وأن يشرب ما أريـده أنا». وهكـذا كانت الفلتة إفصاحاً ظاهراً لا يخطئه التقديـر عن الخطة التي تنتهجهـا المرأة إزاء زوجها.

ولنفـرض الآن أن ظهر لنـا أن المعنى الذي تنـطوي عليـه فلتـات اللسان والهفوات بوجه عام، ليس من حظ حالات معـدودة بل من حظ الكثرة الكثيرة منها. عندئذ يصبح معنى الهفـوة ـ ولم نلق له حتى الآن بالاً في بحثنا المركز الذي نوجه إليه أكبر قسط من اهتمامنـا، والجانب الذي يكون له الصدارة على غيره من الجوانب الأخرى جميعاً. وعندئذ يكــون في وسعنــا أن نتجـاهــل كــل الــظروف الـفسيـولـوجيـة والسيكـوفسيولـوجية، وأن نقصـر اهتمامنـا على البحث السيكـولـوجي المحض في معنى الهفـوات أي عما تنـطوي عليه من مغـزى وقصـد ـ وهكذا يتاح لنا أن نمضي في بحثنا ننظر فيه من هذه الناحية.

وأود قبل أن أبدأ بهذا، أن أوجه أنظاركم إلى ناحية أخرى. هي أن الشعراء كثيراً ما يستعملون فلتات اللسان وغيرها من الهفوات وسيلة من وسائل التعبير الفني. وفي هذا وحده ما يدل على أنهم يرون أن للهفوة كفلتة اللسان مثلاً ـ مغزى، لأنهم يصوغونها على قصد، ومن المستبعد أن يزل قلم الشاعر عرضاً وهو يكتب روايته، فيدع هذه الزلة تنطلق فلته

على لسان الشخصية التي يصورها. بل يريد الشاعـر أن يستغل الهفـوة للإشارة إلى شيء لا يشق علينا أن نفطن إليه ـ كالإشارة إلى أن الشخص الذي يصوره شارد اللب أو متعباً أو أنه يوشك أن تصيبه نـوبة صـداع. على أننا يجب ألا نغلو بطبيعـة الجـال في أهميـة الهفوة إن اصـطنعها الشعراء ليعبروا بها عن معان يقصدون إليها. فالهفوة قـد تكون بـالفعل غفـلاً عن المعنى، فلا تعـدو أن تكون عـرضاً في الحيـاة النفسية أو لا يكون لها معنى إلا في أحوال طارئة ليس غير، وذلك دون أن ننكر على الشعراء حقهم في صقلها وتهذيبها بأن يفرغوا عليها من المعاني ما يحقق أغراضهم الخاصة. ولا تعجبوا إن ذكرت لكم أن الشعراء يعلمـوننا عن فلتات اللسان أكثر مما يعلمنا فقهاء اللغة وأطباء العقول.

ففي إحدى روايات شلر وهي (والنشتين Waltenstein) مثـال لفلتة من هذا القبيل (بيكـولوميني ـ الفصـل الأول، المنظر الخـامس). ففي المنظر السابق كان بيكولوميني الشاب يدافع دفاعاً حاراً عن قضية الدوق والنشتين، فكان يصف في حماسـة، محاسن السلم ومـزاياه وقـد فطن إليها خلال رحلة كان يرافق فيها ابنة والنشتين الجميلة إلى المعسكر. ثم يخرج من المسرح تـاركاً أبـاه (أكتافيـو) ونديم الملك (كـوستنبرج) في دهشة كبيرة. ثم يجري المنظر الخامس على النحو الآتي:

كوستنبرج: تعساً لك. أين نحن يا صديقي؟ أنتركه يذهب بوهمـه هذا دون أن نذكره وأن نفتح عينيه من فورنا؟

أكتافيو «وهو ينتزع نفسه من تكفير عميق»: إن عيني مفتوحتان. وما أراه يبعد أن يسرني.

كوستنبرج: ما الأمر يا صديقي؟

أكتافيو: تعال يا صديقي، لا مفر من أن أتتبـع هذا الأثـر المشئوم

الذي أراه بعيني دون إبطاء. تعال معي الآن.

كوستنبرج: ما بك؟ وأين تريد أن تذهب؟
أكتافيو «في عجلة: إليها، إليها بذاتها.

كوستنبرج:. إلي . .
أكتافيو «متداركا»:. إلى الدوق. تعال فلنذهب.

لقد كان أكتافيو يريد أن يقول: «إليه، إلى الدوق»، لكن خانه لسانه (في نظرنا على الأقل)، فكان في قوله «إليها» ما يميط اللثام عن أنه أدرك في وضوح أي عامل كان يؤثر في نفس ذلك المحارب الشاب وهو يحلم بمحاسن السلم.

وقد وقع أ. رانك O.Rank على مثال أكثر من هذا روعة في رواية «تاجر البندقية» لشكسبير، وذلك في المنظر الشهير الذي كان يتعين على خاطب الفتاة ذى الحظوة أن يختار فيه بين ثلاث علب للحلى. وأرى أن أقرأ عليكم وصف رانك نفسه لهذه الواقعة:

«في المنظر الثاني من الفصل الثالث من رواية «تاجر البندقية» تقع فلتة من فلتات اللسان على جانب كبير من الدقة واللطف وذلك من حيث الحس الشعري الذي تفصح عنه. كما أنها على درجة كبيرة من البراعة من حيث الصنعة الفنية. وهي ـ كتلك الفلتة في رواية والنشتين التي يرويها «فرويد» في كتابه الظواهر النفسية المرضية في الحياة اليومية ـ تبين لنا أن الشعراء يعرفون حق المعرفة مغزى هذه الفلتات وكيفية تكونها، ويفترضون أن النظارة سيفهمونها أيضاً. افالفتاة «پورشيا Portia» التي أراد أبوها أن يختار لها زوجاً عن طريق لعبة «الحظ والنصيب» قد نجت بفضل حظها الحسن من كل من لم ترض عنهم من الخطاب. فلما رأت

آخر الأمر أن «باسانيو Bassanio» هو الخاطب الذي تميل إليه وترتضيه، خشيت أن يخيب رجاؤها فيقع هو الآخر على اللعبة غير الموفقة. فودت أن تقول له بأن يطمئن إلى حبها له حتى إن وقع هذا، لكن يمينها كانت تمنعها من ذلك. ووسط هذا الصراع النفسي الداخلي نرى الشاعر يجعلها تقول لخاطبها المختار:

أتوسل إليك أن تصبر يوماً أو اثنين قبل أن تجازف. لأنك إن كان اختيارك غير ميمون، فقدت صحبتك. فصابر إذن وتحمل، ثمة شيء يقول لي «لكنه ليس الحب» إني لن أفقدك. . . أستطيع أن أعلمك كيف يكون اختيارك موفقاً، لكنني أكون إذن خائنة، ولن أكون كذلك. وهكذا قد لا أكون من حظك، وعندها أظل في حسرة إني لم أحنث في يميني. تباً لعينيك ما لهما أغضيتا عني فانشطرت شطرين: أحدهما لك والآخر لك. أريد أن أقول لي. لكنه إن كان لي فهو لك أيضاً. وهكذا أكون لك كلي.

«لقد رسم الشاعر في دقة رائعة وحِسّ سيكولوجي بديع ما كانت تريد بورشيا الإشارة إليه وحده في حذق ودهاء، لأنها كان ينبغي لها في الحق أن تخفيه عمن تحب قاطبة، ألا وهو أنها كانت له من قبل الاقتراع وأنها كانت تحبه. كل هذا صوره الشاعر وعبر عنه في فلتة لسانها، كما استطاع بهذه الحيلة الفنية أن يخفف عن المحب ما كان يعانيه من شك لا يطاق، وأن يخفف عن السامعين ما هم فيه من ضيق ترقباً لنتيجة الاقتراع».

ونلاحظ كذلك كيف استطاعت بورشيا في آخر كلامها أن توفق بين التصريحين اللذين تنطوي عليهما الفلتة، بأن تزيل ما بينهما من تناقض، بل كيف استطاعت أن تبرر الفلتة نفسها: «لكنه إن كان لي فهو لك

أيضاً. وهكذا أكون لك كلي».

لقد اتفق لأحد المفكرين ممن لا صلة لهم بالطب أن لاحظ ملاحظة كشف بها عن مغزى هفوة من الهفوات، فكان بهذا من السابقين لنا في هذا الميدان. وإخالكم تعرفون جميعاً ليشتنبرج Lichtenperg (١٧٤٢ ـ ١٧٩٩) ذلك الساخر المازح الذي قال عنه «جوته» إن كل نكتة من نكاته تخفي في طياتها مشكلة: لقد كتب ليشتنبرج في مذكراته الساخرة الماجنة أن تعمقه في قراءة هوميروس أدى به إلى أن يقرأ كلمة Agamemnon كلما التقى بكلمة Angenommen (وهي فعل يوناني معناه يسلم) والحق أنه جمع في هذا نظرية عثرات القراءة برمتها.

وسنرى في الفصل التالي ما إذا كنا نستطيع أن نتفق مع الشعراء في نظرتهم إلى مغزى الهفوات السكولوجية.

الفصل الرابع

سيكولوجيا الهفوات «تابع»

انتهينا في الفصل السابق إلى أن ننظر إلى الهفوة في ذاتها، لا في صلتها بالفعل المقصود الذي تداخله وتفسره فظهر لنا أنها تكشف في بعض الحالات عن معنى خاص بها. ثم قلنا لأنفسنا: لو صحت هذه النتيجة ـ وهي أن للهفوة معناها الخاص ـ وأمكن إثباتها على نطاق واسع، لكان هذا المعنى خليقاً أن يستثير من اهتمامنا ما لا تستثيره الظروف التي تقع فيها الهفوة.

وأرجو أن نتفق، مرة أخرى، على ما نعنيه حين نتكلم عن «معنى» عملية نفسية. ليس هذا «المعنى» إلا القصد الذي تستهدفه العملية، وموضعها في سلسلة نفسية متتابعة الحلقات. وقد تسنى لنا في أغلب الحالات التي فحصناها أن نستبدل بكلمة «المعنى» كلمة «القصد» أو كلمة «النزعة». ونتساءل الآن عما حملنا على الاعتقاد بأن الهفوة تنطوي على قصد: أكان الأمر مجرد مظهر خادع، أم كان من قبيل تهويل الشعراء؟.

لو أننا لزمنا فلتات اللسان نستعرض عدداً أكبر من الملاحظات التي تتصل بها، لوجدنا أصنافاً برمتها من الحالات يبدو فيها معنى الفلتة ومغزاها في جلاء ووضوح، خاصة في الحالات التي ينطق فيها المتكلم بعكس ما يريد. لقد قال رئيس المجلس في كلمته الافتتاحية: «أعلن انفضاض الجلسة» وهي عبارة لا لبس فيها ولا إبهام. فمعنى هذه الفلتة ومقصدها أنه يريد إنهاء الجلسة هذا ما قاله المتكلم نفسه، وما علينا إلا

أن نأخذه بقوله. وهنا أرجو ألا يقاطعني أحد فيعترض بأن هذا أمر محال، وبأننا نعرف حق المعرفة أنه كان يريد افتتاح الجلسة لا فضها، وبأنه نفسه ـ مع اعترافنا أنه خير من يحكم على قصده ونيته ـ سيؤكد أنه كان يريد افتتاح الجلسة. فلا يغرب عن بالكم، أننا اتفقنا على أن ننظر إلى الهفوة في ذاتها، أما صلتها بالقصد الذي تفسره، فأمر سنناقشه فيما بعد ولو فعلتم غير هذا، ارتكبتم خطأً منطقياً يسميه الانكليز «Begging The Question».

وفي الحالات التي لا ينطق فيها المرء على التحديد بعكس ما يريد، لا تنفك تعبر الفلتة عن معنى مضاد يتعارض مع ما ينبغي أن يقال. ولعلكم على ذكر من ذلك الأستاذ الذي قال في محاضرته الافتتاحية: «لا يسعني إلا أن أشير إلى جموده في البحث» بدل أن يقول: «إلى جهوده في البحث» فكلمة «جموده» ليست على التحديد عكس كلمة «جهود». لكن في القول اعترافاً صريحاً يتعارض تعارضاً صارخاً مع موقف المتكلم وواجبه.

وثمة حالات أخرى لا تعدو فيها الفلتة أن تضيف إلى المعنى المقصود معنى آخر. هنا تبدو العبارة كأنها نجمت عن إدغام أو تضمير أو تكثيف عدة جمل في واحدة. مثال ذلك تلك الزوجة الصارمة التي قالت عن زوجها: «يستطيع أن يأكل وأن يشرب ما أريد» فكأنها بهذا قد قالت «يستطيع أن يأكل وأن يشرب ما يريد، لكن ماذا يعنيه ما يريد، فأنا التي أختار وأريد» وكثيراً ما تبدو فلتات اللسان في هذه الصورة من الاختزال. من أمثال ذلك أن أستاذاً للتشريح سأل تلاميذه في نهاية محاضرة له عن التجاويف الأنفية، عما إذا كانوا قد فهموه، فلما أجابوه بالإيجاب جميعاً، أضاف يقول: «لا أكاد أصدق هذا، لأن من يستطيعون فهم

التجاويف حق الفهم، يمكن أن يعدوا، حتى في بلد تعداده مليون نسمة، على أصبع واحدة. أعني على أصابع اليد الواحدة» فالجملة المختزلة هنا لها مغزاها الخاص: فهي تعني أن هناك شخصاً واحداً يفهم الموضوع.

في مقابل هذه الأنواع من الفلتات التي ينكشف فيها المعنى في سهولة ووضوح ثمّة حالات لا ينكشف فيها المعنى عن شيء واضح مفهوم، فتبدو كأنها تتعارض مع ما نرجوه ونتوقعه. فالخطأ في نطق أسماء الأعلام، ونطق أصوات غفل من المدلول، ظواهر شائعة تجعلنا نتساءل على الفور عما إذا كانت الهفوات جميعها تنطوي على معنى، غير أننا لو فحصنا هذه الحالات عن قرب، لبان لنا أنه من الممكن أن نفهم أمثال هذه التحريفات في غير عناء. والواقع أن الفرق بين هذه الحالات الغامضة وبين الحالات الواضحة التي ذكرناها من قبل ليس فارقاً كبيراً كما نظن لأول وهلة.

سئل رجل مرة عن حصان مريض له فأجاب: «ربما يصبش شهراً آخر. . . آه ربما يعيش شهراً آخر» فلما سئل عن هذه اللفظة الغريبة، قال إن مرض حصانه مصيبة حلت به، فإذا به قد أدغم على الرغم منه كلمتي مصيبة ويعيش معاً، فكانت منهما كلمة يصبش. (عن مرنجر وماير).

وبينما كان رجل يرى طرفاً من وقائع بعثت في نفسه الاشمئزاز والنفور، إذا به يقول: «عندئذ انكثرت أمور كثيرة». . وقد فسر فلتته هذه بأنه كان يريد أن يقول إن هذه الأمور منكرة. فاندمجت كلمة انكشفت ومنكرة فنتج عن تلك اللفظة الغريبة (عن مرنجر وماير).

ولعلكم تذكرون ذلك الشاب الذي أراد أن يرافق سيدة في طريقها،

فقال لها «أتأذنين لي أن اراقبك في الطريق». وقد أجزنا لأنفسنا أن نحل هـذه الكلمة إلى كلمتين همـا أرافق وأعاتب، وكنـا على يقين من ذلك التأويل فلم نر داعياً إلى توكيده فأنتم ترون من هذه الأمثلة أننا نستطيع أن نفسر حتى هذه الحالات الغامضة بالتقاء أو بتداخل تعبيرين يفصحان عن قصـدين مختلفين. والفـارق الـوحيـد بين هــذه الـطرز المختلفــة من الفلتات، أن القصد في بعضها، يستبدل به قصد آخر استبدالاً كلياً، كما هي الحال حين ينطق الفرد بعكس ما يريد، في حين لا يفلح القصـد، في حالات أخرى، إلا في تحريف القصد الآخر أو تحويره، وبذا تصاغ ألفاظ مرغمة تنطوي على قدر كبير أو قليل من المعنى.

على هذا النحو نعتقد أننا كشفنا الغطاء عن سر عدد كبير من فلتات اللسان فإذا جعلنا هذا ماثلاً أمام أعيننا، استطعنا أن نفهم طرزاً أخرى ما برحت حتى الآن لغزاً مستغلقاً. من تلك مثلاً أننا ـ في حالات تحريف الأسماء ـ لا نستطيع أن نفترض دائماً أن الأمر يتلخص في تعارض بين اسمين متشابهين ومختلفين في الوقت ذاته. إذ لا يشق علينا أن نكشف عن القصد الثاني حتى إن لم يتضح هذا التعـارض. فتحريف الأسمـاء أمر مشاع في غير نطاق فلتات اللسان، وذلك حين يحاول المرء، مثلاً، أن يشبه الاسم بشيء يحط من قدره أو حين يفرغ عليه جرساً ليقارن بينه وبين شيء غير مستساغ. وهذا لون شائع من ألوان التنابذ، سرعـان ما يعرض عنه الشخص المثقف، وإن كان لا يزده رغبة منه في كثيـر من الأحيان. فقد يزجيه في صورة نكتة مسفة مغرقة في الإسفاف. ومن هنا يبدو أننا لا نغلو إذا سلمنا بأن فلتات اللسان تنجم في كثيـر من الأحيان عن قصد مشين يلبس لبوس الاسم المحرف. ولو أننـا تمشينا مـع رأينا هذا، لاستطعنا أن نفسر به، على هذا النحـو، تلك الفلتات التي تبـدو

ماجنة أو حمقاء، كقول الخطيب في ذلك الحفل المهيب: «قدمت لكم أن سرورنا لا يقدر بفقد رئيسنا». فقد فاجأت هذه الكلمة الدخيلة الحاضرين وأثار في النفوس حالة غير مستساغة تتنافر مع جو الحفل المرح. فلو ذكرنا إلى جنب هذا بعض ما يهفو به اللسان من عبارات لاذعة ممضة، لحق لنا أن نسلم بوجود نزعة تحاول أن تفسح عن نفسها في تناقض صارخ مع الموقف الجدي الذي يبدو فيه المتكلم. كأن المتكلم، في باطن الأمر وحقيقته، يريد أن يقول: «لا تصدقوا ما أقول، فأنا لست جاداً فيه، وليذهب صاحبنا إلى جهنم». كذلك الحال في فلتات اللسان التي تستحيل بها الألفاظ البريئة المساغة إلى أخرى مستكرهة بذيئة.

هذه النزعة إلى التحوير أو بالأصح إلى المسخ والتحريف نلحظها عند من يقلبون الكلام البريء إلى كلام بذيء عن قصد، طلباً للدعاية والتندر، فيرسلونه على سبيل النكتة. والواقع أنا حين نستمع إلى أمثال هذه النكات، لا ندري أيقصد بها إلى الدعابة، أم أنها وقعت من غير قصد، فلتة من فلتات اللسان.

يلوح لنا الآن أننا استطعنا أن نحل لغز الهفوات في غير عناء كبير. فليست الهفوات وليدة المصادفة، بل أفعال نفسية جدية لها مغزاها، وتنجم عن تضافر قصدين مختلفين، أو على الأصح عن تعارضهما. غير أني ألمح على وجوهكم فيضاً من الأسئلة والشكوك تريدون أن تلتمسوا لها أجوبة وحلولاً قبل أن يتاح لكم أن تبتهجوا بباكورة جهودنا هذه ولست أريد ألبتة أن أفرض عليكم أية نتائج مبتسرة متعجلة. فلنناقش كل شيء بدوره وفي تأن وهدوء. وماذا عساكم أن تسألوا؟ عما إذا كنت أرى صلاحية هذا التفسير لكل فلتات اللسان، أم أنه ينسحب على طائفة منها

ليس غير؟ وعما إذا كان من الممكن أن تستوعب هذه النظرة شتى أنواع الهفوات الأخرى، كزلات القلم وعثرات القراءة والخطأ في تنفيذ بعض الأفعال، والنسيان، واستحالة العثور على أشياء حفظها الإنسان من قبل، وغير تلك؟ وما الدور الذي يقوم به التعب وشرود الذهن والاهتياج وتشتت الانتباه حيال الطبيعة النفسية للهفوات؟ وقد تزيدون على هذا فتقولون إن أحد المعنيين المتنافسين في الهفوة يكون ظاهراً جلياً على الدوام وذلك على خلاف الآخر. فكيف السبيل إلى إظهار المعنى الخبيء؟ وإذا اعتقدنا أننا أفلحنا في الكشف عن هذا المعنى، فما الدليل على أنه المعنى الحقيقي الوحيد وليس مجرد احتمال؟ هذا ما عساكم أن تسألوا عنه. ولئن كان هذا كل ما لديكم، فسأزيد عليه أسئلة من عندي. وأود أن أذكركم أننا لا نهتم في الواقع بالهفوات من حيث هي، بل نريد أن ننتزع من دراستها نتائج ذات قيمة من وجهة نظر التحليل النفسي. لذا سأطرح عليكم السؤال الآتي: ما تلك الأغراض أو النزعات التي تتدخل على هذا النحو في شئون نزعات ومقاصد أخرى؟ وما الصلة بين النزعة الدخيلة والنزعة الأصيلة؟ وعلى هذا النحو نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نستأنف جهودنا من جديد، بعد أن وقفنا على حل للمشكلة.

ترى هل يصدق التفسير الذي قدمناه على كل حالة من فلتات اللسان؟ أراني أميل كل الميل إلى الاعتقاد بهذا. فنحن نلتقي بهذا التفسير في كل حالة نفحص فيها فلتة لسان. غير أننا لا نستطيع أن نقيم الدليل على أن ليس ثمة فلتات تحدث عن طريق عمليات أخرى وحتى إن كان الأمر كذلك، فتلك مسألة لا تعنينا من الناحية النظرية، لأن النتائج التي نريد أن نظفر بها تمهيداً للتحليل النفسي تبقى صحيحة

صادقة حتى إن لم ينتظم تفسيرنا إلا نسبة ضئيلة من فلتات اللسان كافة، وهذا غير الواقع على وجه التحقيق. أما سؤالكم الثاني عما إذا كان هذا التفسير ينسحب على الأنواع الأخرى من الهفوات، فسأجيب عنه مسبقاً بالإيجاب. وسترون أني على حق في هذا حين نضطلع بفحص أمثلة من زلات القلم والخطأ في تنفيذ الأعمال وغيرها. على أني أقترح إرجاء هـذا لأسباب تتعلق بخطة البحث، حتى ننتهي من تمحيص فلتات اللسان وتعمق دراستها.

نعرض بعد هذا للدور الذي تقوم به العوامل التي يضعها بعض الباحثين في المقام الأول ـ كاضطرابات الدورة الدموية والتعب والاهتياج وشرود الذهن واضطراب الانتباه ـ إزاء العملية النفسية التي نفترضها تفسيراً للهفوات وتلك مسألة جديدة بفحص مسهب مستفيض فاذكروا أننا لا ننكر أثر هذه العوامل بحال. والحق أن التحليل النفسي، في أغلب أمره، لا ينكر شيئاً ثبت في ميادين أخرى من البحث، وأنه بوجه عام لا يصنع أكثر من أن يضيف شيئاً جديداً إلى ما سبق أن قيل، بل قد يحدث أحياناً أن ما تغفل عنه الميادين الأخرى فيضيفه التحليل النفسي يكون بالفعل أهم ما في الموضوع وأمسه بصميمه. ولا مفر من أن نعترف دون تحفظ أو احتياط، بتأثير أمثال هذه الحالات الفسيولوجية التي تنشأ من المرض الطفيف أو اضطرابات الدورة وحالات التعب والإعياء. فخبراتنا الشخصية في كل يوم تعزز وجود هذا التأثير. غير أنه تفسير لا يغني إلا في القليل النادر من الأحوال. فهذه الحالات الفسيولوجية ليست، قبل كل شيء، شروطاً ضرورية لحدوث الهفوات. إذ أن فلتات اللسان تحدث أيضاً في تمام الصحة، وفي ظروف سوية لا أثر فيها للمرض أو للاضطراب. وما تلك الحالات الجسمية إلا عوامل مساعدة لا تعدو أن تيسر وأن تعزز الإجراء النفسي الخاص الذي يحدث

الفلتة. وأذكر بهذا الصدد أني مثلتُ لهذه الحال بتشبيه أعيده الآن فلم أجد خيراً منه. سأفترض أني بينما كنت أسير ليلاً في مكان موحش، إذ هاجمني قاطع طريق سلبني نقودي وساعتي، ولم أتبين وجهه بوضوح فذهبت إلى المخفر فقلت لهم: «لقد سلبني الظلام والوحدة منذ لحظة ما معي». عندئذ قد يجيبني الضابط بقوله: «يبدو أنك مولع بتفسير الحقائق تفسيراً ميكانيكياً مفرطاً». ولو أنك عرضت الموقف بالصورة الآتية فقلت: «اجترأ أحد اللصوص على أن يسرق متاعي لأن الظلام يحميه والوحدة تشجعه». لوعرضت شكواك على هذا النحو، لكان بيت القصيد عندي هو البحث عن السارق. ولعلنا نستطيع حينئذ أن نسترد منه ما سلبك إياه .

يتضح من هذا أن العوامل السيكوفسيولوجية كشرود الذهن والغفلة والاهتياج لا تستقيم تفسيراً للهفوات إلا على قلة وندور. فما هي إلا غلالات يجب ألا تحجب عنا رؤية ما وراءها. والأجدر أن نتساءل عن سبب الاهتياج أو الشرود في الحالة الخاصة التي نكون بإزائها. كما يجب ألا ننكرها لجرس الألفاظ وما بينها من تشابه وما للأنواع المألوفة من التداعي اللفظي من خطر وتأثير. فهذه العوامل كلها تيسر حدوث فلتة اللسان إذ تشير عليها بالطريق الذي يمكن أن تتخذه. لكن أيكفي أن يكون أمامي طريق ليتعين علي حتماً أن أسير فيه؟ لا بد إلى هذا من دافع يحملني على التصميم، ومن قوة تحفزني على المضي. فهذه الأوجه من التشابه اللفظي والتداعي اللفظي ليست ـ شأنها في ذلك شأن الحالات الجسمية ـ إلا الأسباب التي تسهل ظهور الفلتات، دون أن تفسرها تفسيراً حقيقياً. وحسبكم أن تتأملوا ذلك القدر الضخم من الحالات التي تعرض في حديثي، والتي يتشابه فيها جرس الألفاظ التي

أستخدمها أو التي ترتبط فيها ألفاظي بأضدادها ترابطاً وثيقاً، أو تلك التي تستدعي فيها الألفاظ أعدالها المألوفة، ثم لا يزل لساني على الرغم من هذا كله. ولنشر آخر الأمر إلى ذلك الغرض الذي ذهب إليه الفيلسوف «فنت Wundt». وفحواه أن الإنسان يتورط في فلتة اللسان متى تغلبت النزعة إلى التداعي اللفظي على قصده الأصلي من جراء تعب جسمي. وهو فرض مقبول في ظاهره لولا أن التجربة تنقضه. فهي ترينا أن الفرد يزل لسانه في حالات لا يكون فيها للعوامل الجسمية المهيئة أثر ما، وفي حالات أخرى كثيرة لا يكون فيها التداعي مسئولاً بأية حال.

أما سؤالكم الآخر عن الوسيلة التي نتحقق بها وجود النزعتين المتداخلتين، فهو سؤال يعنيني بوجه خاص. وأكبر الظن أنكم لا ترون إلى ما ينطوي عليه من عواقب جسيمة هائلة. فأما أولى النزعتين وهي النزعة التي يدخل عليها فلا يمكن أن يكون ثمة شك في أمرها. إذ إن من يرتكب الفلتة يعرفها ويعترف بها. وأما النزعة الأخرى، وهي النزعة الدخيلة، فهي وحدها التي تستثير الشك وتستدعي التردد. وقد أسلفت لكم وأناموقن، أنكم لم تنسوا بعد، أن هذه النزعة الدخيلة تكون هي الأخرى ظاهرة واضحة في حالات معينة... فهي تبدو واضحة في عاقبة الفلتة وصددها، متى كانت لدينا الجرأة على أن نواجه هذه العاقبة في ذاتها وأن نجعل الفلتة تتكلم عن نفسها. فمن الواضح أن رئيس المجلس الذي قال عكس ما يقصد إليه؛ كان يريد افتتاح الجلسة. غير أنه من الواضح أيضاً أنه كان يريد انفضاض الجلسة. وهذا بين لا يحتاج إلى تفسير. أما في الحالات التي لا تعدو فيها النزعة الدخيلة أن تُحرف النزعة الأصيلة، دون أن تفصح عن نفسها إفصاحاً تاماً، فكيف السبيل إلى انتزاعها والكشف عنها من ثنايا هذا التحريف؟.

نستطيع في طائفة من الحالات أن نظفر بتلك النزعة الدخيلة بطريقة محققة جد بسيطة، هي عين الطريقة التي تنكشف بها النزعة الأصيلة. فنحن نعـرفها من فم المتكلم نفسـه حين يسـارع إلى النـطق بـالكلمـة الصائبة بعد أن يتورط في الفلتة مباشـرة كما في المثـال الذي أسلفنـا ـ «وبما يعيش شهراً آخر. . . لا ربما يعيش شهراً آخر» فقد سئل الـرجل عما دعاه إلى استعمال كلمة «يعيش» فقال إنه كان يريـد أن يقول: «إن مـرض حصاني مصيبـة حلت بي». كذلـك الحال في المثـال الآخـر: «عندئذ انكشرت أمور كثيرة» فقد أجاب الرجل بأنه كان يـريد أن يقـول أصلاً إنها أشياء «منكرة» لكنه أمسك عن هذا واستعاض عنه بتعبير آخر. وهكذا يمكن تعيين النزعة الدخيلة بالتحديد كما تعين النزعة الأصيلة. ولأمر ما قد اخترت عن عمد، أمثلة من حالات لا يعـزى مصدرهـا ولا تفسيـرها إلي ولا إلى أحـد من أنصاري. ومـع هذا فقـد اقتضى تفسير الفلتة في كلتا الحالتين أن يتدخل الباحث فيسأل المتكلم عن السبب في عثرة لسانه، وعما يستطيع أن يقوله وأن يفسر به ما حدث. فبغير هذا قد يمر المتكلم على زلة لسانه دون أن يلتمس لها تفسيراً. لكنه لما سئـل فيها فسرها (بأول خاطر طرأ على باله) ـ إن هذا التدخل البسيط وما أدى إليه من نتيجة هو التحليل النفسي، هو صورة مصغرة لكل بحث تحليلي نفسي قد نضطلع به فيما بعد.

والآن هل أكون مسرفاً في الريبة إن زعمت أنكم ستقومون على التو بمناهضة التحليل النفسي في نفس اللحظة التي أطالعكم به فيها؟ ألستم تـواقين إلى أن تعترضـوا بأن المعلومـات التي يدلي بهـا من تـورط في الفلتة، ليست دليلاً يجوز الاعتماد عليه كل الاعتماد؟ بل قد تظنون أنه يود بطبيعة الحال، أن يستجيب لنداء من يطلب إليه تفسير فلتته، فيقول

أول شيء يخطر له، إن بدا له أنه يغني في التفسير المطلوب. وهذا كله لا يستقيم في نظركم دليلاً على أن الفلتة تنطوي على المغزى الذي يعزى إليه بالفعل. إذ من الجائز أن يكون لها هذا المغزى ومن الجائز أيضاً أن يكون لها معزى غيره. أليس من الممكن أن تخطر له فكرة أخرى تصلح لتفسير صلاحية الفكرة الأولى أو تكون أصلح منها؟.

مما أعجب له حق العجب أنكم لا تحملون للوقائع النفسية في قلوبكم إلا قدراً قليلاً من الاحترام والتقدير. فلو أن كيميائياً قام بتحليل مادة معينة، فوجد بها عنصراً له وزن معين، ملليجرامات معدودة، فأتخذ هذا الوزن أساساً استخلص منه نتائج معينة محدودة، أكان لكم أن تتصوروا أن يقوم كيميائي آخر بنقض هذه النتائج بحجة أنه من الجائز أن يكون للمادة المعزولة وزن آخر أيضاً؟ أم يتقبل كل إنسان هذه الواقعة، ويؤمن بأن ذلك الوزن هو الوزن الحقيقي، ثم يستند إلى هذه الواقعة دون تردد، ليصل إلى نتائج أخرى. لكنا إذا كنا إزاء واقعة نفسية قوامها فكرة معينة طرأت على ذهن شخص يسأل لم تطبق القاعدة نفسها بل قلنا من الجائز أن تطرأ على ذهنه فكرة أخرى. الحق أنكم تتوهمون وجود حرية نفسية، ولا تودون أن تهجروا هذا الوهم وأن تتخلوا عنه. وإني آسف إذ لا أملك أن أشاطركم رأيكم هذا، بل أخالف عنه كل المخالفة.

قد تسلمون بهذه النقطة، لكن لتستأنفوا اعتراضكم على نقطة أخرى فتقولون «نحن نعلم أن الخطة الخامسة للتحليل النفسي تتلخص في أن ينزع من فم الشخص المحلل نفسه حل المشكلات التي يتناولها التحليل». فلنأخذ مثلاً آخر، ذلك الذي يذكر فيه خطيباً الحفل أن «سرورنا لا يقدر (بفقد رئيسنا)». إنك تقول إن النزعة الداخلية في هذه

الحالة هي السخرية أو العدوان وقد قامت تناصب القصد من الترحيب والتكريم. لكن هذا لا يعدو أن يكون تأويلاً شخصياً من جانبك قام على ملاحظات مستقلة عن الفلتة خارجة عنها. ولو قد سألت مرتكب الفلتة، لم يؤيد رأيك ألبتة، بل أنكر ما تدعو عليه من السخرية أو العدوان بكل ما لديه من قوة - إذن فلم لا تذر تأويلك الذي لا ينهض على دليل إزاء هذا الإنكار الذي لا ينقض؟».

ها أنتم أولاً قد وقعتم هذه المرة على حجة ذات وزن. وهأنذا أتصور ذلك الخطيب المجهول- وأكبر الظن أنه مساعد للرئيس المكرم وربما كان محاضراً ناشئاً وشاباً ذا مستقبل زاهر- وسأسأله في إلحاح عما إذا كان لم يشعر في أعماق نفسه بشيء من المقاومة حين طلب إليه أن يقول كلمة ترحيب وتكريم لرئيسه. لكن ها هو ذا يرد علي صاخباً غاضباً، فينفجر قائلاً: «أرجوك أن تكف عن استجوابك هذا، وإلا استعديت عليك. شبهاتك هذه خليقة أن تحطم عملي وتضر بمهنتي. لقد نطقت بكلمة «فقد» بدلاً من «فوز» لأني ذكرت قبلها «قد» مرتين في عباراتي هذه. وهذا كل ما في الأمر. وهذا ما يسميه «ميرنجر Meringer» بالاستتباع، فلا داعي لاغتصاب تأويل آخر. أفهمتني؟ وحسبك ما ذكرت لك!» الحق أنه رد عنيف وإنكار أعنف. ولست أجد شيئاً آخر أستطيع أن أنزعه من هذا الشاب. لكن أعتقد أنه يحرص الحرص كله على ألا يخلع على فلتة لسانه معنى من المعاني. وقد ترون معنى أنه اشتط فكان فظاً غليظاً مع أن الأمر لا يعدو أن يكون بحثاً نظرياً خالصاً. لكنكم قد تقولون آخر الأمر، إنه لا بد يعرف ما يريد أن يقول وما لا يريد.

أفكذلك هو؟ هذا ما نريد أن نتحققه بعد.

إخالكم تظنون الآن أنكم أوقعتموني في شرك، وكأني بكم تقولون: «تلك إذن خطتك. كلما تورط شخص في فلتة قدم لك تفسيراً يتمشى مع آرائك، أعلنت أنه الحجة الأخيرة في الموضوع، وأنه ليقول نفسه بهذا. فإن لم يقل شيئاً يطابق رسالتك، فسرعان ما تدعي أن تفسيره لا وزن له ولا قيمة، وليس من داع للأخذ به»..

هذا حق لا ريب فيه. غير أني أستطيع أن أسوق إليكم مثالاً آخر تجري فيه الأمور على هذا النحو الشاذ الغريب. ذلك أن المتهم إن اعترف بما فعل صدَّقه القاضي، لكنه إن أنكر لم يصدقه القاضي. ولو جرت الأمور على غير هذا ما استقام القضاء. بل نحن مضطرون إلى الأخذ بهذا النظام على الرغم مما يتورط فيه من أخطاء عارضة.

«ولكن هل أنت قاض، وهل من يقع في فلتة لسان متهم في نظرك؟ وهل فلتة اللسان جريمة؟» ـ تشبيه بعيد، وربما كان من الخير أن تحتفظ به وألا نعرض عنه ـ لكن أرأيتم إلى هذه الفوارق البعيدة التي تبدو وتتضح كلما تعمقنا في بحث هذه المشكلات البريئة في ظاهرها، التي تستثيرها الهفوات؟ وإنها لفوارق لا نستطيع في هذه المرحلة من البحث أن نوفق بين بعضها البعض، فأقترح أن نصطلح على حل وسط مؤقت ـأساسه هذا التشبيه بالقاضي والمتهم ـ على حل تسلمون فيه لي بأن مغزى الهفوة في منأى عن أية شبهة، حتى اعترف به الشخص المحلل نفسه. وفي مقابل هذا، أسلم لكم بأنه لا يمكن الظفر بدليل مباشر عن المغزى الذي يشتبه فيه، حتى رفض المحلل الإدلاء، بأية معلومات، أو متى كان غائباً بطبيعة الحال. وبذا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقنع ـ كما هي الحال في التحقيق القضائي ـ بعلائم وأمارات للبت في

الموضوع يختلف صدقها ورجحانها باختلاف الظروف. غير أن المحاكم - لاعتبارات عملية - يتعين عليها أن تدين المتهم أيضاً على أساس من القرائن والأدلة القائمة على الاستنتاج. ومع أننا لسنا في حاجة إلى هذا، إلا أننا يجب ألا نعرض عن النظر في مثل هذه الأدلة واستغلالها. فمن الخطل أن نعتقد أن العلم لا يتألف إلا من قضايا أحكم برهانها إحكاماً صارماً، ومن غير الإنصاف أن نتطلب منه أن يكون كذلك، فهذا مطلب لا يلتمسه إلا من يشعرون برغبة في النفوذ والتسلط على وجه من الوجوه، ومن يشعرون بحاجة إلى الإستعاضة عن التعاليم الدينية بأخرى، وإن كانت تعاليم علمية فتعاليم العلم لا تنطوي إلا على قليل من القضايا والمبادىء الثابتة المقررة التي لا تقبل الجدل والاعتراض. وأغلب ما يقرره وما يثبته، على درجات متفاوتة من الاحتمال والرجحان. ومن أمارات العقل العلمي قدرته على أن يقنع بما يقارب اليقين، وقدرته على القيام بعمل إنشائي والمضي فيه، حتى إن أعوزته الأدلة النهائية.

فإن لم نستطع أن نظفر بمعلومات تفسر مغزى الهفوة من فم الشخص المحلل نفسه، فأنى لنا أن نقع على ركائز تستند إليها تفاسيرنا، وأدلة يرتكز عليها برهاننا؟ لدينا مصادر شتى لذلك. أولها مقارنة الهفوة بالظواهر مشابهة لها لا تنجم عن خطأ، هي الحال مثلاً عندما نقرر أن تحريف اسم من الأسماء ذلك ينطوي على نفس القصد الساخر الذي ينطوي عليه التحريف المتعمد لهذا الاسم. كما نستطيع أن نظفر بعلائم وركائز من الموقف النفسي الذي وقعت فيه الهفوة، ومن معرفتنا بخلق الشخص الذي تورط فيها، ومن المشاعر التي تكتنفه قبل أن يهفو والتي يمكن أن تكون الهفوة استجابة لها. والذي يحدث عادة

هو أننا نقع على مغزى الهفوة، في أول الأمر، تبعاً لمبادىء وقواعد عامة. وما نصل إليه بهذه الطريقة ليس إلا مجرد تخمين وافتراض نعمل على تأييده وتوكيده فيما بعد بفحص الموقف النفسي. وقد نضطر أحياناً، لتوكيد ما افترضناه، إلى أن نرقب وقائع معينة، كأن الهفوة تنبىء بها وتعلن عنها.

ليس من اليسير أن أقدم الدليل على ما أقول، إن قصرت بحثي على فلتات اللسان وحدها، ولو أني لا أعدم بضعة أمثلة جيدة أسوقها حتى في هذا المجال نفسه. فالشاب الذي أراد أن يرافق السيدة فقال لها هل تأذنين في أن «أراقبك» هو في الحقيقة شاب جد خجول. والزوجة التي يجب أن يأكل زوجها وأن يشرب ما تريده هي، أعرف أنها من ذلك الطراز الذي يسيطر على البيت بعصا من حديد. وإليكم مثلاً آخر: بينما كان شاب يخطب في اجتماع عام لجمعية من الجمعيات، وقد اندفع يهاجم ويعارض في عنف شديد إذا به يخاطب الأعضاء بقوله «من يعيرون الجمعية» بدل أن يقول «من يديرون، الجمعية». ومن الممكن أن نفترض هنا أن هجومه العنيف قد اصطدم بنزعة دخيلة فعالة تتصل في نفسه بفكرة الإعارة. والحق أننا علمنا من بعض من يعرفونه أنه في حاجة موصولة إلى اقتراض المال، وأنه يسعى بالفعل إلى استعارة شيء منه في الموقف الحاضر. ومن هنا نستطيع أن نترجم النزعة الدخيلة إلى الفكرة الآتية: «خير لك أن تكون معتدلاً لا في معارضتك وهجومك، فأنت تخاطب من تريد أن يعيروك ما طلبت».

ولو سمحت لنفسي أن أستطرد إلى ميادين الهفوات الأخرى لاستطعت أن أقدم لكم مجموعة مختارة من الأمثلة على هذه القرائن.

فحين ينسى شخص اسم آخر يعرفه، أو حين يشق عليه أن يحتفظ

به في ذاكرته، حين إن بذل في ذلك جهده، فنحن في حل من أن نظن أنه يحمل لصاحب الاسم شيئاً في نفسه، فهو لا يجب أن يفكر فيه. ولننظر في الأمثلة الآتية على ضوء هذا، فهي تتناول الموقف النفسي الذي حدثت فيه هفوات من هذا النوع:

«أحب السيد س سيدة لم تبادله حبه، ثم تزوجت من ص. ومع أن السيد س يعرف ص من زمن طويل، بل ويتصل به في أعمال تجارية، فهو ينسى اسمه أبداً، حتى إنه ليضطر إلى أن يطلبه من أشخاص آخرين كلما أراد الكتابة إليه».

من الواضح هنا أن السيد س لا يود أن يعرف شيئاً عن غريمه السعيد.

مثال آخر: استخبرت سيدة من طبيبها عن سيدة أخرى يعرفانها سويا، وكانت في استخبارها هذا تسمي الأخرى باسم أسرتها فقد نسيت الاسم الذي تحمله منذ زواجها نسياناً تاماً. ولما سئلت عن هذا، صرحت بأنها باخعة نفسها على زواج صديقتها، وأنها تكره الزوج كرهاً شديداً.

وسنشبع القول فيما بعد عن نسيان الأسماء ـ أما الآن فالذي يعنينا بوجه خاص هو «الموقف النفسي الذي يقع فيه النسيان».

إن نسيان تنفيذ القرارات والمشروعات يمكن أن يعزى بوجه عام إلى دافع مضاد يتعارض مع تنفيذ القرار أو المشروع. وليس هذا رأي أصحاب التحليل النفسي وحدهم بل رأي كافة الناس أيضاً. فهو رأي يسلم به كل إنسان في حياته اليومية الجارية وإن كان ينكره من الناحية النظرية، فالمرءوس الذي يطلب إلى رئيسه قضاء حاجة له، فيعتذر الرئيس بالنسيان، لا يعنيه اعتذار رئيسه شيئاً، بل يقول لنفسه من فوره:

«هذا أمر لا يعنيه بطبيعة الحال، لقد وعد لكنه لم يقصد إلى أن ينجز ما وعد». لذا كان النسيان من الأمور التي يؤخذ عليها في بعض مواقف الحياة وظروفها. ويبدو أن الفارق بين نظرة الناس ونظرة التحليل النفسي إلى هذه الهفوات قد انمحى وزال. تصوروا ربة بيت استقبلت ضيفاً لها بالعبارات الآتية: «ما هذا؟ هل هذا يوم زيارتك؟ لقد أنسيت نسياناً تاماً أني دعوتك لهذا اليوم» أو تصوروا شاباً عليه أن يعترف للفتاة التي يحبها أنه نسى كل شيء يتصل بالموعد الذي اتفقا عليه في آخر لقاء لهما، تروه لا يجرؤ على الاعتراف السافر الصريح، بل يختلق من فوره أبعد الموانع احتمالاً مما حال دون حضوره ودون اتصاله بها من ذلك الحين إلى اليوم. وكلنا يعرف أن الاعتزاز بالنسيان في الحياة العسكرية لا يغني قتيلا ولا يعفي صاحبه من العقاب. ومع هذا فنحن نجد لهذا النظام ما يبرره، لأننا نعرف أن لبعض الهفوات في الحياة العسكرية دلالة ومعنى، ونعرف ما هو هذا المعنى في أغلب الأحوال. ترى لم لا نلزم جانب المنطق فننظر إلى الهفوات الأخرى نظرتنا هذه، ونعترف بذلك في صراحة ودون قيد؟ لا بد أن لهذا السؤال جواباً بطبيعة الحال.

لئن كان المعنى الذي ينطوي عليه نسيان تنفيذ الأمور المقصودة شيئاً محققاً لا يرتاب فيه حتى عامة الناس فليس بدعا أن نرى الكتاب يصطنعون أمثال هذه الهفوات للغرض ذاته: ومن قرأ منكم أو رأى رواية «شوShow»عن قيصر وكليوباتره يذكر دون ريب المنظر الأخير إذ يهم قيصر بالذهاب تراوده فكرة شيء قصد إلى عمله لكنه لا يستطيع أن يتذكره. ثم يتضح آخر الأمر أن هذا الشيء هو تحية كليوباتره تحية الوداع. فقد أراد المؤلف بهذه الحيلة البسيطة أن ينسب إلى قيصر العظيم شعوراً بالتعاظم والتعالي لم يكن يدنو إليه قط. ولعلكم تعرفون

من التـاريخ أن قيصـر استدعى كليـوباتـره إلى رومة حيث عـاشت مـع قيصرونها الصغير حتى قتل قيصر ثم ولت عن المدينة.

إن نسيـان تنفيذ القـرارات والتصميمات تكـون حالاتـه في العـادة واضحة جلية حيث لا تغني فيما نهدف إليه، وهو استنتاج أمارات وأدلة على معنى الهفـوة من الموقف النفسي. لـذا سنعـالـج فـرعـاً آخـر من الهفوات يعوزه الوضوح ويكتنفه اللبس والإبهام بوجه خاص، ذلك هـو «ضياع الأشياء» و«استحالة العثور عليها». من المحقق أنكم هيهات أن تصدقوا أن ضياع الأشياء ينطوي على قصد وغرض، فهو مما نضيق به ونألم له في أغلب الأحوال. لكن هناك أمثلة لاعدادلها تقوم شواهد على ما أقول. منها أن شاباً فقد قلماً عزيزاً عليه، وكان قد تسلم، قبـل هذا بأيام، خطاباً من زوج أخته يختتم بالعبارة الآتية «ليس لـدي في الوقت الحاضر فسحة أو ميل فأشجعك على بلادتك واستهتارك» لقد كان القلم هدية من زوج أخته هذا. وليس في وسعنا بطبيعة الحال أن نؤكـد ـ من دون هـذا الاتفـاق بين تسلم الخـطاب المؤلم وفقـدان القلم ـ إن هـذا الضياع يتضمن أي قصد للتخلص من الهدية. على أن أمثال هذه الحالة شائعة، كثيرة التواتر. فنحن نفقد الأشياء متى اختلفنا وتخاصمنا مـع من قدموها إلينا، فلا نريد أن نذكرهم أو أن نفكر فيهم بعد. كما نفقدها إن مللناها فالتمسنا عذراً لكي نستبدل بها خيراً منهـا. يضاف إلى هـذا أن كسر الأشياء وإسقاطها وإتلافها يؤدي أغراضاً شبيهة بالأغراض السابقـة بطبيعة الحال. أنستطيع أن نقول إن التلميذ الذي يضيـع أو يتلف شيئاً مما يستعمله كل يوم، كساعته أو حافظة كتبه مثلاً. وذلك في أمسية عيد ميلاده تحديداً، أنستطيع أن نقول إن هذا من فعل المصـادفة المحضـة ليس غير؟.

لا شك أنه يعز على من يضيق صدره لفرط ما يضيع من أشياء حفظها بنفسه أن يعتقد أن هذه الظاهرة تنطوي على قصد منه أيا كان هذا القصد. ومع هذا فثمة حالات عدة تشير الظروف المصاحبة لهذا النسيان فيها إلى ميل لنبذ الشيء المفقود أبداً أو إلى حين. وربما كانت الحالة الآتية خير مثال عرف أو نشر عن هذه الظاهرة حتى اليوم:

قص على شاب القصة التالية: «لقد دب سوء التفاهم بيني وبين زوجتي منذ بضعة أعوام. وكنت أقدر أنها فاترة باردة أكثر مما يجب. ومع أننا كنا نعيش دون ود مشبوب، إلا أني كنت أعترف بما لها من صفات ممتازة وبينما أنا عائد ذات يوم من نزهة لي، إذا بي أجدها قد اشترت لي كتاباً حسبت أنه يشوقني. فشكرتها على اهتمامها ووعدتها أن أقرأ الكتاب، ثم وضعته بين متاعي ولم أستطع أن أعثر عليه بعد هذا قطعاً. ومرت أشهر ذكرت فيها الكتاب المفقود مرات عدة، وحاولت العثور عليه في غير طائل. وبعد ستة أشهر من هذا، مرضت والدتي، وكنت أحبها كثيراً، فسارعت زوجتي إلى السفر إليها لتمريضها والعناية بأمرها. ثم اشتد المرض بوالدتي، فأتيح لزوجتي أن تظهر ما لديها من صفات رضية ممتازة. وقد عدت إلى منزلي مساء يوم وأنا ممتلىء غبطة واعترافًا بجميل زوجتي لما أسدته من خير كثير. فجلست إلى مكتبي ثم رأيتني أفتح درجاً دون قصد معين مني لكن في وثوق تام فكان أول شيء يثب إلى عيني ذلك الكتاب المفقود الذي طالما افتقدته فلم أجده».

وهكذا ظهر المفقود باختفاء الدافع.

في وسعي أن أكثر من هذه الأمثلة إلى ما لا حد له، لكن لن أفعل ذلك الآن. وللمستزيد أن يرجع إلى كتابي «الظواهر النفسية المرضية في الحياة اليومية» (وقد طبع بالألمانية أول مرة عام ١٩٠١) ففيه فيض من

الأمثلة يعين على دراسة الهفوات. وهي أمثلة تتمخض جميعها عن نتيجة واحدة بعينها، هي أن للهفوات مغزى، كما أنها تبين كيف يمكن درس هذا المغزى أو القطع به من الظروف المصاحبة للهفوة. ولا أطيل عليكم اليوم فنحن لا ندرس هذه الظواهر إلا لتكون تمهيداً للتحليل النفسي. لذا فلن أحدثكم إلا عن مجموعتين من الملاحظات: تتصل بالهفوات المتكررة والمتجمعة، وأخرى يتأكد بها التفسير الذي نقدمه عن طريق أحداث تحصل بعد وقوع الهفوة.

أما الهفوات المتكررة والمتجمعة فهي على وجه التحقيق أجمل طراز من طرز الهفوات جميعاً. ولو كان هدفنا مقصوراً على أن نبين أن للهفوات دلالة ومغزى، لوقفنا أنفسنا من أول الأمر على هذا الطراز من الهفوات وحده. ذلك أن المغزى الذي تتضمنه على درجة من الوضوح والجلاء بحيث لا تخطئه أشد العقول بلادة وكلالا، وعلى درجة من القوة بحيث يؤثر في أرفعها حكماً ونقداً. إن الأحداث والظواهر إن تكررت وتواترت كان هذا دليلاً على صدورها عن نزعة ملحة، وكان من الصعب أن تعزى إلى مجرد المصادفة، لكنها تتلاءم كل التلاؤم مع فكرة القصد والتصميم. ثم إن حلول نوع من الهفوات محل نوع آخر يبين لنا أن العنصر الجوهري في الهفوة وأهم شيء منها لا يجب التماسه في شكل الهفوة أو في الوسائل التي تستخدمها، بل في القصد الذي يستغل الهفوة والذي يمكن أن يتحقق بطرق شتى. وإليكم مثالاً لنسيان متكرر: يروي «أنست جونز EarnestJomes» أنه ترك ذات مرة خطاباً على مكتبه عدة أيام لسبب لا يعرفه. ولما عزم على إرساله وألقاه بالفعل في صندوق البريد، إذا بالخطاب يرد إليه، لأنه نسي أن يكتب العنوان عليه. فعنونه وألقاه مرة أخرى لكنه كان غفلاً هذه المرة من طابع البريد. وعندئذ اضطر إلى أن

يعترف لنفسه أنه لم يكن راضياً قط عن إرسال هذا الخطاب.

وها هي ذى حالة أخرى يقترن فيها أخذ الأشياء خطأ يتفقدها دون جدوى في العثور عليها: رحلت سيدة إلى رومة مع زوج أختها. وهناك احتفل به الألمان المقيمون في رومة، وقدموا إليه فيما قدموا، هدية من ذهب مدلاة قديمة العهد. وقد ساء السيدة أن زوج أختها لم يقدر هذه القطعة النفيسة حق قدرها فلما جاءت أختها إلى رومة رحلت السيدة إلى بلدها. وبينما هي تفض حقيبة متاعها إذ بها تجد المدلاة فيها، دون أن تعرف كيف حدث هذا الأمر. فسارعت بالكتابة إلى زوج أختها بأنها سترد إليه بضاعته في اليوم التالي. ولما جاء اليوم التالي حاولت السيدة عبثاً أن تجد المدلاة لترسلها. وهنا فطنت إلى دلالة «شرود ذهنها» فقد كانت تود أن تحتفظ بالمدلاة لنفسها.

لقد سقت إليكم فيما سلفَ مثالاً يقترن فيه النسيان بهفوة من الهفوات، وكانت تلك حالة شخص أنسي موعداً، فعزم عزماً أكيداً على ألا يسهو عنه في المرة التالية، فلما ذهب إلى الموعد الثاني، رأى أنه جاء في غير الساعة المحددة. وقد قص على أحد أصدقائي ممن يهتمون بالعلوم والأداب، قصة من خبرته الخاصة تكاد تشبه هذه الحالة كل الشبه: «منذ أعوام خلت قبلت أن أكون عضواً في مجلس إدارة جمعية أدبية، طمعاً في أن تعينني على تمثيل إحدى رواياتي. وكنت أواظب أيام الجمعة على حضور جلساتها، على غير رغبة كبيرة مني. ومنذ بضعة أشهر تأكد لي أن روايتي ستمثل على مسرح «ف». غير أني ظللت منذ ذلك الحين أنسى حضور الجلسات أبداً. فلما قرأت كتاباتك في هذا الموضوع، خجلت من تصرفي هذا، ولمت نفسي على الانقطاع عن الحضور منذ قضيت حاجتي. ثم عزمت على ألا تفوتني جلسة الجمعة

التالية، وظللت أذكر نفسي بهذا حتى نفذت عزمي ووجدتني أمام بهو الاجتماع. ولشد ما كانت دهشتي إذ رأيت البهو مغلقاً وليس ثمة اجتماع ـ فقد أخطأت وأنسيت فذهبت في السبت بدل الجمعة ـ!».

قد يشوقكم أن أمضي في ذكر أمثلة من هذا النوع، لكني أكتفي بهذا القدر، لأستعرض بعض الحالات التي لا يتأكد تفسيرها إلا بفضل أحداث تقع بعد حدوث الهفوة بحين.

والشرط الأساسي في هذه الحالات، يتلخص ـ كما قد نتوقع ـ في أن الموقف النفسي الحالي فيها غير معروف أو لا يمكن التيقن منه. عندئذ لا يعدو تفسيرنا أن يكون مجرد افتراض لا نقيم له وزناً كبيراً. ثم تمر الأيام فيقع حدث جديد يتضح منه أن تفسيرنا السابق كان له ما يبرره. من هذا أني دعيت يوماً إلى بيت زوجين شابين، فقصت علي الزوجة مستضحكة أنها في اليوم التالي لعودتهما من رحلة شهر العسل، ذهبت تزور أختها غير المتزوجة لتصطحبها، كما كانت تفعلان من قبل، إلى السوق لشراء بعض الأشياء. وكان الزوج إذ ذاك قد خرج إلى عمله. وعلى حين فجأة لحظت رجلاً يسير في الجانب الآخر من الطريق، فأشارت إلى أختها قائلة: «انظري ها هو ذا السيد» ناسية أن هذا السيد كان زوجها منذ بضعة أسابيع. وقد اعترتني هزة وأنا أستمع إلى هذه القصة، لكني لم أجترىء أن أنتزع منها النتيجة التي لاح لي أنها تتضمنها. وقد عادت هذه القصة الصغيرة إلى ذاكرتي بعد سنوات عدة حين علمت بما آلت إليه هذه الزيجة من نهاية تعسة.

ويحدثنا «مايدر Maader» عن سيدة أنسيت في اليوم السابق لحفلة قرانها أن تذهب إلى الحائكة لتجرب ثوب زفافها، فلم تذكر هذا إلا بعد أن تقدم المساء ـ وهو يربط بين هذا النسيان وبين طلاقها الذي أعقب

الزواج ـ بوقت غير طويل. وأعرف أمرأة ـ هي اليوم مطلقة ـ كانت تمضي وثائقها المالية باسمها لأسرتها حتى قبل طلاقها بزمن طويل. كما أعرف نساء أضعن خاتم الزواج في أثناء شهر العسل. وقد أفرغت الوقائع التالية على هذه الحوادث دلالات لا لبس فيها ولا إبهام. وإليكم مثالاً آخر رائعاً، كانت نهايته خيراً منها في الأمثلة السابقة: يروى عن كيميائي ألماني شهير أنه أنسي ساعة الاحتفال بزواجه، فذهب إلى معمله بدل أن يذهب إلى الكنيسة، وقد كان على درجة كافية من حصافة الرأي فلم يزد على هذه التجربة، وظل أعزب حتى مات وهو في أرذل العمر.

لعل خاطراً وثب إلى أذهانكم في هذه اللحظة فحواه أن الهفوات تبدو، في هذه الأمثلة كأنها النذر والفؤول والطيرة فيما يعتقده الأقدمون. الحق أن بعض أنواع التفاؤل والتشاؤم لا تخرج عن أن تكون من قبيل الهفوات، من تلك تعثر الفرد أو سقوطه على الأرض، وإن كان لبعضها الآخر طابع الحوادث الموضوعية لا طابع الأفعال الذاتية. وقد لا تصدقون كيف يشق علينا أحياناً أن نقطع بما إذا كان حدث معين ينتمي إلى الصنف الأول أو إلى الثاني فالفعل يعرف في كثير من الأحيان كيف يتنكر ويلبس لبوس الحدث السلبي.

ولعل الذين خلفوا من ورائهم ماضياً حافلاً بخبرات الحياة، كانوا يجنبون أنفسهم كثيراً من ألوان خيبة الأمل والمفاجآت الأليمة لو كان لديهم من الشجاعة والعزم ما يتيح لهم أن يؤولوا ما يرون من هفوات يسيرة في صلاتهم بالناس، على أنها بشائر ونذر، وأن ينظروا إليها باعتبارها علامات على نزعات ومقاصد ما تزال مستترة في طي الخفاء. لكننا لا نجرؤ في الكثير الغالب من الأحيان على أن نفعل هذا، إذ نخشى أن نظهر من ينكص إلى الخرافة ويلتمسها عن طريق علمي فيه لف ودوران. على أن

البشائر والنذر لا تتحقق جميعها. وسترون حين يزيد إلمامكم بنظرياتنا أنه ليس من الضروري أن تتحقق جميعاً.

سيكولوجيا الهفوات (خاتمة):

للهفوات دلالة ومعنى: هذه هي النتيجة التي يجب أن نعترف بأننا استخلصناها من تحليلنا السابق، والتي يجب أن تكون أساساً، لبحوثنا التالية ونود أن نقول مرة أخرى: إننا لا نؤكد (فالهدف الذي نرمي إليه لا يقتضي هذا التوكيد) أن لكل هفوة معنى، ولو أني أعتقد أن هذا هو المرجح. وحسبنا أن نبرهن أن هذا المعنى شائع نسبياً في الصور المختلفة من الهفوات. وأذكر بهذا الصدد أن هناك فوارق معينة بين صورها المختلفة من هذه الناحية. فبعض فلتات اللسان وزلات القلم وغيرها قد تكون نتيجة لأسباب فسيولوجية محضة، ولو أني أعتقد أن هذا ضعيف الاحتمال في الأنواع المختلفة من الحالات التي تقوم على النسيان (نسيان الأسماء، أو تنفيذ أمور مقصودة، واستحالة العثور على الأشياء وغير ذلك). وثمة حالات لضياع الأشياء أكبر الظن أنها لا تنطوي على قصدمهماكان هذاا القصد. على أنه يتعين على أن أضيف إلى هذا أن الأخطاء التي تقع في الحياة اليومية لا يمكن أن نحكم عليها بناء على وجهات نظرنا إلا إلى حد معين. فأرجو أن يظل هذا التحديد ماثلاً في أذهانكم حين نمضي في بحوثنا على فرض أن الهفوات أفعال نفسية تنشأ عن تداخل قصدين.

تلك هي النتيجة الأولى للتحليل النفسي. فقبل اليوم لم يكن علم النفس يعرف شيئاً عن مثل هذه الأنواع من التداخل وعن الظواهر التي تنجم عنها. وهكذا نكون قد أفسحنا مجال الظواهر النفسية إلى حد جد بعيد، وأضفنا إلى علم النفس ظواهر لم تكن تنتسب إليه فيما مضى.

ولنقف لحظة عند العبارة التي تقول إن الهفوات أفعال نفسية، ترى هل تعني شيئاً أكثر من عبارتنا الأولى. وهي أن للهفوات دلالة ومعنى؟ لا أظن ذلك، بل أرى، على العكس من هذا، إنها عبارة أقل تحديداً وأدنى إلى سوء الفهم. فكل شيء يمكن ملاحظته في الحياة النفسية يوصف على الدوام بأنه ظاهرة نفسية. والمهم هو أن نعرف ما إذا كانت ظاهرة نفسية معينة ترجع مباشرة إلى عوامل جسمية، عضوية أو مادية، وبذا تخرج من نطاق البحث السيكولوجي، أم أنها تنبعث مباشرة عن عمليات نفسية أخرى، من ورائها تبدأ سلسلة العوامل العضوية في مكان ما. هذه الحالة الثانية هي التي نقصد إليها حين نصف ظاهرة بأنها عملية نفسية. لذا يجدر بنا أن نضع عبارتنا في الصيغة الآتية: للظاهرة معنى، ونقصد بهذا أن لها دلالة، أنها تصدر عن قصد، عن نزعة، وأنها تحتل مكاناً معيناً في سلسلة من العلاقات النفسية.

وثمّة مجموعة أخرى من الظواهر تشبه الهفوات شبهاً كبيراً، لكنها غير جديرة أن تسمى بهذا الاسم. وسنسميها الأفعال العارضية. أو العرضية. وهي أفعال تبدو، هي الأخرى، كأن لا دلالة ولا دافع وراءها ولا أهمية لها، هذا إلى أنها تبدو فضلة زائدة عن الحاجة. لكنها تتميز عن الهفوات الحقة بأن ليس من ورائها قصد ثان يناسب القصد الأصلي ويتعارض معه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي تتداخل وتلتبس مع الحركات والإيماءات التي تعبر عن الانفعالات. ويندرج في هذا الصنف من الأفعال العارضة، كل ما نقوم به من أفعال لا هدف لها في الظاهر: كما يعبث الإنسان يملأ بعضاً أو بأجزاء من جسمه، أو بأشياء في متناول يده، أو تلك الألحان التي يغنيها الإنسان لنفسه، إلى غير تلك من الأفعال التي نبدؤها أو نكف عنها دون سبب ظاهري. ولا أتردد

في أن أؤكد لكم أن لهذه الظواهر معنى، وأنها يمكن تفسيرها على النحو الذي تفسر به الهفوات. كما أنها علائم صغيرة تشير إلى عمليات نفسية أخرى أهم منها، فهي أفعال نفسية بالمعنى الكامل لهذا الإصطلاح. على أني أوثر ألا أطيل الوقوف عند هذه الظواهر الجديدة، بل أعود إلى الهفوات، فمن تحليلها تتضح لنا أخطر مسائل التحليل النفسي كل الوضوح.

إن أهم الأسئلة التي طرحناها ونحن ننظر في الهفوات، والتي لم نجب عنها حتى الآن هي: أن الهفوات تنشأ من تداخل قصدين أو نزعتين مختلفتين، يمكن أن تسمى إحداهما بالنزعة الدخيلة والأخرى بالنزعة المدخول عليها. فأما النزعات المدخول عليها فلا تستثير سؤالاً ما، وأما الأخرى فنريد أن نعرف عنها شيئين أولهما: نوعها، وبعبارة أخرى نوع النزعات التي تدخل في أخرى وتناصبها. ثانيهما ما بين هذين النوعين من النزعات من صلات.

وأرجو أن تأذنوا لي في أن أتخذ فلتات اللسان مرة أخرى لتمثيل الهفوات جميعاً، وأن أجيب عن السؤال الثاني قبل الأول.

فالنزعة الدخيلة في فلتة اللسان قد يكون بينها وبين القصد المدخول عليه صلة في المعنى والمضمون. وفي هذه الحال قد تناقض النزعة القصد أو تصححه أو تكمله. وقد لا يكون بين الإثنين صلة ما في المعنى. وهنا تكون الحالة أكثر غموضاً وأكثر طرافة في دراستها. وهكذا لدينا نوعان من الصلات.

أما النوع الأول منهما فيتضح في سهولة ويسر من الأمثلة التي نعرفها من قبل ومن أخرى شبيهة بها. ففي الغالبية العظمى من الفلتات التي

ينطق فيها المرء بعكس ما يريد، تعبر النزعة الدخيلة عن المعنى المضاد لمعنى القصد المدخول عليه، وتكون الفلتة علامة على صراع بين دافعين متنافرين لا يتفقان..وعلى هذا يكون معنى الفلتة التي تورط فيها رئيس المجلس - في الأمثلة التي أسلفنا -: «أعلن افتتاح الجلسة لكني كنت أفضل انتهاءها» ولقد حدث مرة أن كتبت جريدة سياسية متهمة بالارتشاء تدافع عن نفسها في مقال كان يجب أن يلخص في الكلمات الآتية: «يشهد قراءنا بأنا كنا نعمل أبداً للصالح العام بأكثر الطرق ميلاً عن الفرض» غير أن المحرر المكلف بكتابة هذا الدفاع كتب يقول: «بأكثر الطرق ميلاً إلى الفرض». وعندي أن المحرر قد كشف بهذا عن دخيلة نفسه فكأن لسان حاله يقول: «لا مناص من أن أكتب شيئاً، لكن أعرف ضده» واتفق أن كان أحد النواب على وشك أن يقترح أنه لا بد من أن تقال الحقيقة لقيصر «دون تحفظ أو حرج» Zckhaltslos لكنه سمع من فوره صوتاً يهيب به من أعماق نفسه فيحذره من اجترائه هذا، فإذا به يقول «في خشوع وانحناء» Zsruotsslukg بدلاً مما كان يريد قوله.

وفي فلتات اللسان التي يلوح أن قوامها «الإدغام» و«التضمير» وقد ضربنا لها أمثلة من قبل - تكون العملية عملية تصحيح أو إضافة أو استمرار-نظهرفيها نزعة ثانية إلى جانب النزعة الأولى فذلك الرجل الذي قال: «عندئذ انكشرت أمور كثيرة» كان يريد أن يقول إنها أمور منكرة فاندمجت الكلمتان «إنكشفت» و«منكرة» فنجم عن ذلك تلك اللفظة الغريبة. أو ذلك الأستاذ الذي قال: «الذين يفهمون هذا يعدون على أصبع واحدة. . أريد أن أقول على أصابع اليد الواحدة». فقد كان يعتقد أنه لا يوجد بالفعل إلا شخص واحد يفهم هذه الأشياء، فنجم عن هذا أن تورط في فلتة لسانه. أو تلك الزوجة التي قالت: «يستطيع زوجي أن

يأكل وأن يشرب ما أريد» بدل أن تقول «ما يريد» فقد كانت تعرف أنها لا تسمح له بما يريد، وذا زل لسانها رمزاً إلى ما تنطوي عليه سريرتها. نرى من هذه الحالات جميعاً أن الفلتة تنشأ من مضمون القصد المدخول عليه أو أنها تتصل به اتصالاً مباشراً.

أما النوع الثاني من الصلات بين النزعتين المتداخلتين فيبدو غريباً. ذلك أنه إذا لم يكن بين مضمونيهما صلة ما، فمن أين تأتي النزعة الدخيلة إذن، وكيف يتأتى أن يظهر أثرها في لحظة بذاتها؟ تدلنا المشاهدات ـ وهي وحدها الكفيلة بالإجابة عن هذا السؤال ـ إن النزعة الدخيلة تتولد في مجرى من الأفكار كان يشغل بال الشخص قبيل الفلتة ولئن أفصحت عن نفسها في الحديث بهذه الطريقة الخاصة، فقد كان من الممكن أيضاً (وليس من الضروري) أن تلتمس لنفسها مخرجاً آخر. فكأن هذه النزعة في الواقع نتيجة وصدى، ولو أنها لا تكون دائماً وبالضرورة مدى كلمات نطق بها الشخص. أي أن هناك صلة تداع بين النزعة الدخيلة والمدخول عليها في هذه الحالة أيضاً، لكنها صلة لا توجد في المضمون، بل صلة اصطناعية محضة تنشأ من تداع قسري.

وإليكم مثالاً بسيطاً لهذا لاحظته بنفسي: التقيت يوماً في جبال الدولوميت الجميلة بسيدتين من «ڤيينا» كانتا تلبسان ملابس السياح. فصاحبتهما بعض الطريق نتحدث عن متعة السياحة ومتاعبها. فقالت إحداهما: إن يوم السائح المتجول لا يخلو من كثير من المضايقات، قالت: «الحق أن مما يجلب الضيق أن يضرب الإنسان في الأرض طول النهار في وفرة الشمس حتى يبتل قميصه . . . وأشياؤه من العرق». قالت هذه الكلمات الأخيرة في شيء من التردد. ثم مضت تقول «غير أنه حين

يعود ذلك إلى بنطلونه Hose ويبل. . . » «Hose معناه بنـطلون. قالتهـا السيدة بدل أن تقول إلى منزله Hause». هذه فلتة لم نحللها لكني على يقين أنـه لا يشق عليكم فهمها. لقـد كانت السيـدة تنوي في عبـارتهـا الأولى، أن تذكر من ملابسها أكثر مما ذكرت «قميصه وسترته وبنطلونه» غير أنها استحيت أن تذكر اللباس الأخير منها. فلما قالت العبارة الثانية ـ وهي مستقلة من حيث مضمـونها عن الأولى كـل الاستقلال ـ انـطلقت الكلمـة المعتقلة (Hose) فبـدت تحـريفـاً لكلمـة تشبههـا في الجـرس .(Hause)

في وسعنا الآن أن نعود إلى السؤال الأساسي الذي أرجأنا منـاقشته وقتاً طويلاً وهو: ما نوع تلك النزعات التي تفصح عن نفسها على هذا النمو الغريب بتداخلها في النزعات الأخـرى؟ من البدايـة أنها نـزعات مختلفة شتى، وسنعمل على أن نجد عنصراً مشتركاً بينهـا جميعاً، لئن فحصنا طائفة من الأمثلة بهذا الفـرض، فسرعـان ما نجـد أنها تقـع في مجموعات ثلاث: فالمجموعة الأولى تدخل في نـطاقها الحـالات التي تكون فيها النزعة الدخيلة معروفة للمتكلم، وفوق هذا كان يشعر بها قبل أن يـزل لسانـه. ففي المثال: «عنـدئذ انكشـرت أمور كثيـرة»، اعتـرف المتلكم بأنه كان يشمئز من بعض الأمور فوصفها بأنها «منكرة»، هذا إلى أنه قد اعترف بأنه كان ينوي التعبير عن رأيه باللفظ والمجمـوعة الثـانية تندرج فيها الحالات التي يعترف فيها المتكلم بأن النـزعة الـدخيلة هي نزعته هو، لكنه لا يفطن إلى أنها كانت نشطة عاملة في نفسه قبل أن يزل لسانه. لذا فهو يتقبل تفسيرنا للفلتة، لكنه لا يستطيـع أن يخفي دهشته منه، وإنه لأيسر علينا في أكبر الظن، أن نجد أمثلة لهذه الحـالات في هفوات أخرى غير فلتات اللسـان. أما المجمـوعة الثـالثة فتشمُـل على

الحالات التي يحتج فيها المتكلم على التفسير الذي نعرضه عليه احتجاجاً شديداً: فهو لا يكتفي بأن ينكر وجود القصد الدخيل لديه قبل الفلتة، بل يؤكد، إلى هذا، أنه قصد غريب عنه كل الغرابة. ولعلكم على ذكر من ذلك الشاب الذي قال «إن سرورنا لا يقدر لفقد رئيسنا»، وكيف كان رده جافياً غليظاً حين كاشفته بقصده الدخيل: وتعرفون أنكم لم تتفقوا معي بعد على الموقف الذي يجب أن يتخذ حيال هذه الحالات: أما أنا فلا يزعجني في شيء احتجاج هذا الشاب، ولا يمنعني من أن أستمسك بتفسيري، في حين أتصور أنكم قد ارتعتم لما فيه من تعنيف وإنكار، وربما ترون من الخير أن نعرض عن تفسير أمثال هذه الهفوات، وأن ننظر إليها على أنها أفعال فسيولوجية محضة، كما كانت الحال قبل عصر التحليل النفسي، على أنه لا يشق علي أن أستشف ما يروعكم من هذا. فالتفسير الذي أقدمه يتضمن أن المتكلم قادر على أن يفصح عن نزعات ومقاصد يجهلها هو نفسه جهلاً تاماً، وإني قادر على استنتاج هذه المقاصد من أمارات وعلائم شتى - من أجل هذا تحجمون عن قبول هذه الدعوى المغرية المثقلة بالعواقب -. ومع هذا فإن أردتم أن تلزموا جانب المنطق في النظرة إلى الهفوات، وهي نظرة قامت على كثير من الأمثلة، تعين عليكم ألا تترددوا في قبول هذه الدعوى، وإن بدت لكم على جانب كبير من الإغراب. فإن لم تستطيعوا فما عليكم إلى أن تذروا فهم الهفوات، وقد بذلتم في سبيله جهداً كبيراً.

لنقف لحظة ننظر فيما يربط بين هذه المجموعات الثلاث، وفيما هو مشترك بين العمليات الثلاث التي تتكون بها فلتة اللسان. ومن حسن التوفيق أن يكون هذا العنصر المشترك ظاهراً لا يحتمل الخطأ ولا يستثير

الجدل. ففي المجموعتين الأوليين يعترف المتكلم نفسه بالنزعة الدخيلة، هذا إلى أنها تفصح عن نفسها قبل الفلتة مباشرة في المجموعة الأولى. لكن هذه النزعة في كلتا الحالتين تكره على الارتداد والتراجع. فقد عزم المتكلم على ألا يبديها في كلامه فحدث أن ظهرت في فلتة لسان. وبعبارة أخرى أن النزعة التي يحال بينها وبين التعبير عن نفسها تؤكد وجودها على الرغم من إرادة المتكلم فتبدو في كلامه، أما بأن تغير الصيغة اللفظية للقصد الذي يعترف به، وأما بأن تختلط وتلتبس بها، وأما بأن تحل محلها بالفعل. هذه هي العملية التي تتكون بها فلتة اللسان.

إن وجهة نظري هذه تتيح لي أن أفسر فلتات المجموعة الثالثة بهذه العملية ذاتها. فما علي إلا أن أفترض أن الفارق الوحيد بين هذه المجموعات الثلاث، فارق في درجة التراجع والارتداد التي يكره عليها القصد الدخيل. ففي المجموعة الأولى يكون القصد ماثلاً في المتكلم قبل أن ينطق، ثم يحدث الإكراه والإبعاد فيقتص القصد لنفسه من ذلك بفلتة اللسان. وفي المجموعة الثانية يكون الإكراه أشد وأعمق، فلا يفطن المتكلم إلى القصد حتى قبل النطق. ومما يستلفت النظر أن هذا الإكراه لا يمنع القصد إطلاقاً من أن يكون السبب الفعال في استحداث الفلتة! وفي هذا ما يسهل علينا تفسير ما يحدث في المجموعة الثالثة. بل سأكون جريئاً إلى حد أن أذهب إلى أن فلتة اللسان قد تكون مظهراً لنزعة أعيقت عن التعبير عن نفسها منذ زمن طويل، بل منذ زمن بعيد جداً، بحيث لا يعود المتكلم يفطن إلى وجودها أصلاً، فيكون مخلصاً كل الإخلاص إن أنكر وجودها. وحتى إن صرفنا النظر عن مشكلة المجموعة الثالثة فلا مناص من أن نخرج من المجموعتين الأخريين

بالنتيجة الآتية، وهي أن قمع القصد ـ القصد إلى قول شيء ـ هو الشرط الضروري لحدوث فلتة اللسان.

في وسعنا الآن أن نقول إننا خطونا خطوات أبعد في سبيل فهم الهفوات. فنحن نعرف الآن أنها ظواهر نفسية تنطوي على معنى، وترمي إلى غرض، وأنها تنتج من تداخل قصدين مختلفين. وفضلاً عن هذا فنحن نعرف أن أحد القصدين لا بد أن يكون قد تعرض لشيء من المنع والحظر حتى يستطيع أن يعبر عن نفسه بتداخله في القصد الآخر. أي أنه لا بد أن يضيق عليه قبل أن يضيق على غيره. وغني عن البيان أن هذا لا يتيح لنا تفسيراً كاملاً للظواهر التي نسميها الهفوات. بل سرعان ما تعرض لنا أسئلة أخرى ـ وكلما تقدمنا في الدراسة والفهم، شعرنا بأن المجال ينفسح لأسئلة جديدة. ففي وسعنا أن نتساءل مثلاً: «لم لا تجري الأمور على منوال أبسط من هذا بكثير. فإذا كان الفرد يقصد إلى أن يعتقل نزعة معينة بدل أن يدعها تعبر عن نفسها، فالمرتقب أن يكون الأمر على وجهين: إما أن يفلح الاعتقال فلا يظهر شيء من النزعة المعتقلة، وأما أن يخفق الاعتقال فتظهر هذه النزعة سافرة بأكملها؟». لكن الهفوات تنتج عن حلول وسطي فهي تدل على أن الاعتقال قد كسب نصف المعركة وخسر نصفها الآخر، أي أن القصد المحظور لم يقمع برمته فلا يبدو منه شيء، ولم يبق بكامل قوته فيظهر سافراً كما هو عليه هذا باستثناء حالات خاصة. ويحق لنا أن نفترض أنه لا بد أن تكون هناك شروط خاصة لكي يحدث هذا التداخل (أو الحل الوسط)، لكننا لا نستطيع حتى أن نحدس شيئاً عن طبيعة هذه الشروط ونوعها. بل ولا أعتقد أننا نستطيع أن نكشف عن هذه الشروط المجهولة إذا تعمقنا في دراسة الهفوات. فلبلوغ تلك الغاية، لا بد من أن نجوب قبلها مناطق

غامضة أخرى من الحياة النفسية، فسنلتقي هناك بأوجه للشبه تشجعنا على أن نصوغ فروضاً من شأنها أن تهدينا إلى تفسير أكمل للهفوات لكن هناك شيئاً آخر. ذلك أن عملنا ينهض على أدلة صغيرة وعلائم طفيفة كما هو شأننا أبداً في هذا المجال، ومن ثم فلسنا بمنجاة من أن نتورط في محظورات معينة. وأذكر بهذا الصدد أن هناك اضطراباً عقلياً يسمى البرانويا المجمعة يستغل فيه المريض العلامات الطفيفة استغلالاً لا حد له. ولا أقرر بطبيعة الحال أن النتائج التي تستخلص على هذا النحو تكون بأسرها نتائج صحيحة مضبوطة. فلن يتسنى لنا أن نعصم أنفسنا من الوقوع في هذا المحظور إلا إذا قامت ملاحظاتنا على أساس عريض ما وسعنا الأمر، واجتمعت لدينا أوجه للشبه من ميادين مختلفة شتى في الحياة النفسية.

لذا سنترك الآن تحليل الهفوات. غير أن هناك شيئاً أريد أن أوصيكم به، هو أن تحتفظوا في أذهانكم بالطريقة التي درسنا بها هذه الظواهر على أنها طريقة نموذجية للبحث، وبذا يتسنى لكم أن تحكموا، الآن وفيما بعد، على أهداف علم النفس الذي نرفع قواعده. إن هدفنا لا يقتصر على وصف الظواهر وتصنيفها، بل يتعدى ذلك إلى النظر إليها على أنها نتيجة لفعل قوي في النفس، وعلى أنها تعبيرات عن نزعات تعمل، متضافرة أو متنافرة، للوصول إلى غاية. أي أننا نجهد في أن نكون لأنفسنا نظرة دناميكية إلى الظواهر النفسية نظرة تتضاءل فيها الظواهر التي نشاهدها وندركها حيال النزعات التي نستنتجها ليس غير.

لذا فلن نمضي في دراسة الهفوات. غير أننا ما زلنا نستطيع أن نلقي نظرة عابرة على هذا الميدان الفسيح، نلتقي خلالها بأشياء نعرفها من قبل، وبأخرى نكشف عن جديد. سنستمسك في نظرتنا هذه بالتقسيم

الثلاثي للهفوات الذي أشرنا إليه في بدء دراستنا إياها: فلتات اللسان وما يناظرها في الأهمية من أخطاء في الكتابة والقراءة والسمع. النسيان وما ينصب عليه من موضوعات «كأسماء الأعلام، والكلمات الأجنبية، وتنفيذ الأمور المقصودة، والانطباعات» ضياع الأشياء، واستحالة العثور عليها، وأخذها خطأ. على أن الهفوات لا تعنينا إلا من حيث صلتها بالنسيان وبالأفعال الخاطئة (كأخذ الأشياء خطأ. . وغيرها).

وإنا وإن كنا أسهبنا في تفصيل فلتات اللسان، فما يزال لدينا شيء نرى أن نضيفه. فالفلتات تقترن عادة بمظاهر وجدانية بسيطة ليست غفلاً من الأهمية والطرافة. من تلك أن الإنسان لا يميل إلى أن يعترف عن طيب خاطر بأنه تورط في فلتة لسان، بل يحدث في كثير من الأحيان أن يفوته سماع فلتة زل بها لسانه، في حين لا يفوته ألبتة سماع فلتة وقع فيها غيره. ثم إن فلتات اللسان تنتقل بالعدوى إلى حد ما فليس من اليسير أن يتحدث الإنسان عنها دون أن يتورط نفسه فيها. والفلتة المزجاة التي لا يعتد بها والتي لا تعلمنا شيئاً خاصاً عن العمليات النفسية الخفية لها مع ذلك أسبابها ودوافعها التي يمكن الكشف عنها في غير صعوبة أو عناء. فلو فرضنا مثلاً أن شخصاً أصابه اضطراب أياً كان سببه وهو ينطق كلمة معينة، فاختلس حركة مشبعة، فإنه لا يلبث أن يشبع أول حركة مختلسة تليها مباشرة. وبذا يقع في فلتة أخرى ترمي إلى تعويض الفلتة الأولى. والأمر بالمثل إن أدغم حرفين متتالين عن خطأ أو إهمال، فإنه يعمل على تصحيح خطئه بأن يفك أول حرفين مدغمين يلتقي بهما. فكأن المتكلم يريد بهذا أن يبين للمستمع إليه أنه يعرف لغة قومه وأنه يهتم بنطقها الصحيح. والواقع أن التحريف الثاني الذي يصح أن نسميه «التحريف التعويضي» يرمي تحديداً إلى توجيه نظر المستمع إلى التحريف الاول،

وتعريفه بأن هذا التحريف لم يفت المتكلم. إن أبسط أنواع الفلتات وأتفهها وأكثرها ذيوعاً تتلخص في ضروب من «التضمير» و«السبق» تبدو في أجزاء غير ظاهرة من الحديث. فلو كان المرء ينطق جملة طويلة بعض الطول مثلاً، فالفلتة التي يحتمل أن يقع فيها هي أن يسبق لسانه فيبادر بنطق الكلمة الأخيرة فيما يريد أن يقول، أو أن تؤثر هذه الكلمة في نطق آخرى سابقة لها. وهذا يوحي بأن المتكلم ضجر بالجملة يريد أن ينهيها بفروغ صبر، ويشير إجمالاً إلى نوع من المقاومة والفروق عن توصيل هذه الجملة أو عن الحديث قاطبة. وهكذا نجد أنفسنا إزاء حالات وسط تتلاشى فيها الفوارق بين نظرة التحليل النفسي إلى الفلتات وبين النظرية الفسيولوجية المعتادة إليها. ونحن نفترض في أمثال هذه الحالات، وجود نزعة دخيلة تناسب الكلام المقصود، لكنها نزعة تعلن عن وجودها ولا تنم عن غرضها. أما الاضطراب الذي تسببه فمرده إلى تأثير جرس الألفاظ أو إلى ضروب مألوفة من التداعي اللفظي، ويمكن اعتباره ذريعة لصرف الانتباه عما يراد قوله. غير أن حيود الانتباه لا يكفي ولا التداعي اللفظي أيضاً. لتشخيص طبيعة الفلتة وجوهرها. فكلاهما يشهد بوجود قصد دخيل، لكنه قصد لا يمكن الكشف عن طبيعته من نتائجه في هذه الحالة، كما تستطيع ذلك في الحالات الواضحة المحققة.

سأعالج الآن زلات القلم، وهي تشبه فلتات اللسان (من حيث طريقة تكوينها) شبهاً كبيراً، لذا لا ننتظر منها أن تزودنا بجديد. ومع هذا فلنحاول أن نحلق بعض التحليق في الميدان. إن أكثر الزلات الطفيفة تواتراً، ومنها ضروب «التضمير» و«السبق» ـ سبق الكلمات التالية وخاصة الكلمات الأخيرة ـ تشير إلى إعراض عام عن الكتابة وإلى ضجر

منها ورغبة في الانتهاء. فإذا كانت نتائج الزلة أكثر وضوحاً وبروزاً، أتاحت لنا الكشف عن طبيعة النزعة الدخيلة ومقصدها. ونحن نعرف بوجه عام، حين نقع على زلة قلم في خطاب أن ذهن الكاتب لم يكن يعمل في سلاسة ويسر ساعة الكتابة، لكنا لا نستطيع دائماً أن نعرف ماذا كان أمره وخطبه في تلك الساعة. ولنذكر أن زلات القلم يندر أن يلحظها صاحبها، مثلما في ذلك مثل فلتات اللسان. ومما يبهر ويروع في هذا الصدد أن هناك أناساً يعيدون قراءة الخطابات التي يكتبونها قبل ختمها وإرسالها، وآخرين لا يفعلون هذا. فإذا اتفق أن أعاد أحد من هؤلاء قراءة ما كتب، فإنه لا بد واجد فيه زلة تستوقف النظر. فعلام يفسر هذا؟ يكاد يلوح أن هؤلاء كانوا يعرفون أنهم تورطوا في زلة وهم يكتبون، فهل لنا أن نسلم بهذا حقاً؟.

وإليكم مشكلة طريفة تشهد بما قد يكون لزلات القلم من قيمة علمية: فعساكم تذكرون قصة السفاح الذي حشر نفسه في زمرة المختصين بدراسة البكتريا، فاستطاع أن يظفر من المعاهد العلمية بمزارع لميكروبات مرضية على جانب كبير من الخطورة فيسخرها للخلاص ممن يتصلون به من الناس. لقد أرسل هذا الرجل في يوم خطاباً إلى إدارة أحد هذه المعاهد، يشكو في عقم المزارع التي أرسلت إليه، غير أن قلمه زل، فبدل أن يكتب «في تجاربي على الجرذان» إذا به يكتب بخط لا خفاء فيه «في تجاربي على الجيران»، حتى لقد استدعت هذه الزلة أنظار الأطباء بالمعهد. لكنهم، فيما أعلم، لم يخرجوا منها بنتيجة ما. فما ترون في هذا؟ ألم يك من الخير أن يتخذ الأطباء من هذه الزلة إعترافاً، فيقوموا بتحرك كان من شأنه أن يوفر الحياة لكثير من ضحايا هذا السفاح؟ ألا ترون أن الجهل بنظرتنا إلى الهفوات كان، في هذه

الحالة، سبباً في إهمالوتسويف على جانب كبير من الخطورة؟ إن أمثال هذه الزلة لم تكن لتفوتني دون أن تستثير في نفسي، على وجه التحقيق، ريبة كبرى. لكن اتخاذها اعترافاً مما يثير اعتراضات خطيرة. فالأمر ليس من السهولة كما يبدو. فزلة القلم علامة مظنة لا مراء فيها، لكنها لا تكفي وحدها لتبرير إجراء تحقيق. فهي تشهد في الواقع بأن الرجل تشغل باله فكرة نقل العدوى إلى الناس لكنها لا ترينا على وجه التحقيق ما إذا كانت هذه الفكرة خطة مبيتة لعمل الشر. أو أنها مجرد تخييل ليس له خطر عملي. بل من الممكن أن يجد الرجل خير الحجج الذاتية (أي غير الموضوعية) لإنكار هذا التخييل ولنبذه والتنصل منه كما لو كان شيئاً غريباً عنه كل الغرابة. وسنرى فيما بعد حين نعرض الفرق ما بين الواقع النفسي والواقع المادي، أن فهمنا لهذه الإمكانيات وتقديرنا لها سيزدادان. على أن هذا لا يمنع أن تكون هذه الحالة التي بين أيدينا، من الحالات التي تكتسب فيها الهفوة، من الوقائع التي تتلوها، دلالة لا مراء فيها.

فإذا انتقلنا إلى عثرات القراءة، اختلف الموقف النفسي اختلافاً بينا عنه في فلتات اللسان وزلات القلم. ذلك أن إحدى النزعتين المتصارعتين يحل محلها في هذه الحال، تنبيه حسي قد يكون أقل منها مقاومة وإلحاحاً. إن ما يقرؤه الإنسان لا يكون غالباً من نتائج عقله، كما هي الحال فيما يكتب لذا فالغالبية العظمى من عثرات القراءة تنجم عن عملية «إبدال» تام. فالكلمة المقروءة تستبدل بها أخرى، دون أن تكون هناك بالضرورة صلة بين مضمون المقروء ومضمون نتيجة الخطأ، بل يحدث الإبدال عادة عن طريق تشابه بين الألفاظ. وخير مثال لهذا الصنف من العثرات، مثال ليشتنبرج الذي أصبح يقرأ أجاممنون

Agamemnon بدل انجينومن Angenommen. فإذا أردنا أن نكشف عن النـزعة الـدخيلة التي تسبب العثرة، تعين علينـا أن نذر النص الأصلي بأجمعه جانباً، وأن نبدأ الفحص التحليلي بسؤالين: ما أول فكـرة ببال القارىء في عملية «التداعي الطليق» بصددالعثرة(أي البديل)؟، وفي أية ظروف حدثت هـذه العثرة؟ وقـد تكفي معرفة الظروف وحـدها أحيـاناً لتفسير العثرة: من ذلك أن رجلاً كان يسير في بلد غريب فألحت عليـه «الحاجة». وبينما هو يتلفت إذ به يقرأ على لوحة كبيرة بالطابق الأول من بناء Closethaus، ولا تكاد تأخذه الـدهشة من وجـود اللافتـة على هذا الارتفـاع، حتى يـرى أنهـا في الـواقـع Corsethaus أمـا في الحـالات الأخرى التي لا توجد فيها صلة بين العثرة ومضمون النص، فلا بد من تحليـل عميق لا يتسنى إلا لشخص درب بخطة التحليـل النفسي وآمن به. على أن تفسير عثرات القراءة أيسر بكثير من هذا في أغلب الأحوال. ففي حـالة ليشتنبـرج مثلاً، تكشف الكلمـة البدليـة، في غير عنـاء عن مجرى الأفكار الذي ترتب عليه الخطأ. وذائع مشاع في أثنـاء الحروب أن يقرأ المرء حيثما حل أسماء المدن والقواد والتعبيرات العسكرية التي تقرع سمعه في كل مكان، كلما التقى بكلمات بهـا بغض الشبه بهـذه الكلمات والتعبيرات. فكل ما يهمنا ويشغل بالنا يقوم بدلاً مما هو غريب عن أنفسنـا وممـا لا نحفـل بـه. وهكـذا يضـل الفكـر السـابق الإدراك الجديد.

وثمة صنف آخر من عثرات القراءة يستثير فيه النص المقروء نفسه نزعة دخيلة تحرفه، وكثيراً ما تقلبه إلى ضده كما لو طلب إلى أحـد أن يقـرأ شيئـاً يمجـه ولا يسيغـه. فيتضـح من التحليـل أن المسئـول عن التحريف في هذه الحالة رغبة قوية في نبذ ما يقرأ.

ونشير هنا إلى أن أكثر عثرات القراءة ذيوعاً، وهي تلك التي ذكرنا في بدء هذه الفقرة، لا يقوم فيها العاملان اللذان عزونا إليهما أهمية بالغة في تكوين الهفوات إلا بدور ثانوي غير واضح ونعني بهما الصراع بين نزعتين، وإكراه إحداهما على التراجع إكراهاً يترتب عليه حدوث الهفوة. وهذا لا يعني أن في عثرات القراءة ما يتعارض مع هذين العاملين، بل إن إلحاح مجرى الأفكار الذي يؤدي إلى الخطأ، أشد بكثير وأعنف من الكبح الذي عانته هذه الأفكار من قبل. وإنا لنلحظ هذين العاملين واضحين كل الوضوح في المواقف المختلفة التي تنشأ فيها الهفوات من جراء النسيان.

أما نسيان تنفيذ الأمور المقصودة فظاهرة لا ينطوي تفسيرها على صعوبة ما، وهي كما أسلفنا ليست مثار إنكار أو جدل حتى من عامة الناس. فالنزعة التي تداخل في تنفيذ الأمر نزعة مضادة معارضة أبداً. وتتلخص في نوع من الإعراض والعزف. وبما أنه لا مراء في وجود هذه النزعة، لم يبق أمامنا إلا أن نعرف لم لا يفصح هذا العزوف عن نفسه بطريقة أخرى وبصورة أقل تنكراً، وخفاء. وقد توفق أحياناً إلى معرفة شيء عن الدوافع التي تقتضي إخفاء هذا العزوف: ذلك أنه إن لم يلجأ إلى التنكر وعمل على أن يعلن عن نفسه سافراً صريحاً، فهو مقتض عليه لا محالة، في حين أنه يظفر بغرضه أبداً إن لجأ إلى الحيلة فظهر في الهفوة. أما إذا طرأ تغير هام في الموقف النفسي بين التصميم على شيء وتنفيذه، فترتب على هذا عدم الحاجة إلى التنفيذ لم يدخل النسيان في نطاق الهفوات. وهو نسيان ليس بمستغرب لأن تنفيذ الأمر في الموقف النفسي الجديد مما لا طائل فيه. فنسيان تنفيذ القرارات والأمور المقصودة لا يمكن اعتباره من الهفوات إلا في الحالات التي لا نعتقد فيها بتغير الموقف.

ونسيان تنفيذ القـرارات يكون في العـادة على درجة من االشفـوف ووحدة الوتيرة بحيث لا تنتفع به بحوثنـا هذه في شيء. على أن هنـاك ناحيتين نستطيع أن نخرج منهما بشيء جديد من دراسة هذا الصنف من الهفوات. لقد قلنا إن نسيان تنفيذ أمر مقصود يشهد بوجود نزعة مناصبة لهذا الأمر. وهذا حق لا ريب فيه. غيـر أنه يتضـح من بحوثنـا أن هذه «الرغبة المضادة» قد تكون مباشرة وغير مباشرة. ولبيان ما نعني بالرغبة المضادة غير المباشرة، إليكم مثالاً أو مثالين: فالرئيس عنـدما أنسي أن يوصي على مرءوسه بكلمة طيبة لدى شخص آخر، قد يكون دافعه إلى هـذا أنه لا يبـالي فعلاً بمـرءوسه، فـلا يجد في نفسـه مـا يحمله على التوصية به. هذا على الأقل ما يظنه المرءوس ويؤول به النسيان. غير أن الأمر قد يكون أشد تعقيداً من هذا. فالعزوف عن تنفيذ القرار قد يرجع إلى سبب آخر لا صلة له ألبتة بالمـرءوس، وربما كـان يتصل بمـا بين الرئيس والشخص الآخر من علاقات. وهنـا يبدو لنـا، مرة أخـرى، ما ينطوي عليه التطبيق العملي لتفاسيرنا من صعوبة وخطورة.

فعلى الرغم من أن المرءوس قد يفسر الهفوة تفسيراً صحيحاً، لكنه يخشى أن يتخـذ من رئيسه موقف استرابة لا عدل فيه ولا إنصـاف. أو خذوا مثل رجل ضرب موعداً مع آخر، وعاهد نفسه على الذهاب، ثم أنسي تنفيذ وعده. فالسبب الذي يعزى إليه هذا النسيان عادة هو الميل عن لقاء الشخص الآخر والإعراض المباشر عن مقابلته. غير أن التحليل قد يكشف أن النزعة الدخيلة في هـذه الحالـة، لا صلة لها بـالشخص الموعود، بل بالمكان الذي ضربا فيه الموعد. فربمـا كان هـذا المكان مما يعافه الرجل لارتباطه بحادثة أو ذكرى مؤلمة. مثال آخر: إذا أنسي شخص أن يلقي خـطاباً كتبـه في صندوق البـريد. فقـد تكون النـزعة

المضادة ذات صلة بمضمون الخطاب نفسه، غير أن هذا لا ينفي أن يكون الخطاب لا بأس به في ذاته، لكنه يصبح مصدراً لنزعة مضادة لأن فيه شيئاً يذكر صاحبه بخطاب آخر كتبه من قبل، وكان مثار صد ونفور مباشر له: هنا يقال إن النفور قد تحول في الخطاب الأول ـ وكان له إذ ذاك ما يبرره إلى الخطاب الحالي الذي لا يبرره بحال. من هذا نرى أنه لا بد من مراعاة الحرص والحذر حتى إن بدلنا أن تأويلنا على جانب كبير من السداد والصواب فالشيء الذي نراه واحداً من الناحية السيكولوجية قد ينطوي في الواقع على معان وتأويلات عدة من الناحية العملية.

قد يلوح لكم أن أمثال هذه الظواهر التي أتكلم عنها شاذة خارقة للعادة وربما تميلون إلى الظن بأن تلك الرغبة المضادة «غير المباشرة» تكفي لكي تطبع الظاهرة بطابع باثولوجي: لكن أستطيع أن أؤكد لكم أنه من الممكن أن توجد في حالات الصحة والاستواء، وأرجوألا تسيئوا فهم ما أقول، فليس هذا بأية حال اعترافاً مني بأن تأويلات التحليل لا يعتمد عليها ولا يركن إليها. لقد قلت إن نسيان المرء تنفيذ أمر مقصود قد يحتمل معاني كثيرة، لكن هذا لا يستقيم إلا في الحالات التي لا نجري فيها تحليلاً والتي نقنع فيها بتأويل يقوم على الافتراضات والمبادىء العامة التي نسير عليها. ولو أننا قمنا بتحليل نفسية الشخص الذي يدور عليه الأمر، لأمكننا أن نتيقن تيقناً كافياً مما إذا كانت الرغبة المضادة رغبة مباشرة، أو رغبة تنبعث من مصدر آخر.

وثمَّة ناحية ثانية تتلخص في أننا متى اتضح لنا بالدليل، في عدد ضخم من الحالات، إن نسيان تنفيذ القرارات والوعود يرجع إلى رغبة مضادة، كان في هذا ما يشجعنا على أن نبسط هذه النتيجة حتى تنتظم حالات أخرى لا يؤكد فيها الشخص وجود تلك الرغبة المضادة التي

استنتجناها، بل ينكرها إنكاراً. من أمثال ذلك. تلك الحالات المشاعة التي ينسى فيها المرء رد كتب استعارها أو ديون اقترضها. فلو أننا اجترأنا فطالعنا هذا الشخص بأنه يقصد إلى حبس ما لديه مما استعاره، فهو لا بد منكر هذا القصد، دون أن يستطيع أن يقدم لنا تفسيراً آخر لسلوكه هذا. فإذا نحن ألححنا عليه أنه يقصد إلى ما فعل، لكنه لا يفطن إلى هذا القصد، فقد يجيب بأن الأمر لا يخرج عن مجرد نسيان. أما نحن فحسبنا أن ينم القصد عن نفسه في صورة النسيان. ولعلكم تذكرون أنه قد مر بنا مثل هذا الموقف من قبل. فإذا أردنا أن نتمشى مع تأويلاتنا الهفوات إلى نتائجها المنطقية، تلك التأويلات التي لقيت ما يبررها في حالات شتى، فلا مناص من أن نسلم بوجود نزعات عند الإنسان تتمخض عن آثار ونتائج دون أن يكون متفطناً إلى وجودها. وهكذا نكون قد اتخذنا موقفاً يتعارض مع كل الآراء المشاعة في الحياة الجارية وفي علم النفس.

إن نسيان أسماء الأعلام والأسماء والألفاظ الأجنبية يمكن أن يفسر على هذا النحو بوجود نزعة مضادة تناسب الاسم أو اللفظ المنسي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وقد ضربت لكم من قبل أمثلة عدة للنفور المباشر من الأسماء والألفاظ. لكن الغالب في هذه الحالات هو الأصل غير المباشر الذي يحتاج إلى تحليل دقيق للكشف عنه. من تلك أن الحرب الحاضرة وما اضطرتنا إليه من ترك كثير من ملذاتنا السابقة، قد خلقت في نفوسنا طائفة من مترابطات غريبة نجم عنها أن ضعف تذكرنا لأسماء الأعلام. فقد حدث لي منذ عهد قريب أن عجزت عن أن أستحضر اسم بلدة «بيسنز» Bisenz في مورافيا، وهو اسم بريء لم يكن علي منه بأس. وقد هداني التحليل إلى أن ليس في نفسي صد مباشر

عن هـذه البلدة، بل المسئول عن نسيانها تشابه اسمها واسم قصر «بيسنزي» Bisenzi في أورفيتو، وقد أمضيت فيه أوقاتاً هنيئة فيما سلف. وهنا نجد أنفسنا، للمرة الأولى، بصدد مبدأ هو قوام الدافع إلى نسيان الأسماء. وسنرى فيما بعد ما لهذا المبدأ من أهمية غالبة في تسبيب الأعراض العصابية: ونعني به صد الذاكرة عن استحضار أي شيء يرتبط بمشاعر بغيضة من شأنها أن تستثير الألم إن هو ظهر في وضح الذهن. ولعلنا نرى في هذه النزعة إلى تفادي الألم الذي ينجم عن التذكر أو عن أفعال نفسية أخرى، وفي هذا القرار النفسي من كل ما يكدر ويؤذي، لعلنا نرى في هذا الغرض النهائي الفعّال في نسيان الأسماء، بل وفي التورط في كثير من الهفوات والأخطاء وضروب السهو الأخرى.

غير أنه يبدو أن هناك عوامل سيكوفسيولوجية تسهل نسيان الأسماء بوجه خاص، إذ نستطيع أن نلحظه حتى في حالات لا تنطوي على شيء يتصل بالألم. ويدلنا البحث التحليلي دائماً على أن النزعة إلى نسيان بعض الأسماء، لا ترجع فقط إلى مجرد كرهها وعدم استساغتها، ولا إلى أنها تذكر المرء بما يكدره ويؤذيه، بل لأن هذه الأسماء تتصل في نفسه بطائفة أخرى من المترابطات اتصالاً أقوى وأثق. فكأن هذه الأسماء قد سمرت بهذه الطائفة من المترابطات إن جاز هذا التعبير، فرفضت أن تستجيب لمترابطات أخرى تقتضيها الظروف الجديدة. ولو كنتم تذكرون الحيل التي يلجأ إليها بعض الناس لتثبيت الأسماء في الذاكرة، لأخذكم الدهش حين تعرفون أن الروابط التي يصطنعها المرء عن قصد للحيلولة دون نسيان الأسماء، وهي بعينها الروابط التي تسبب نسيان هذه الأسماء. وأظهر مثال على هذا، أسماء الأشخاص. فهي أسماء تختلف أهميتها ودلالتها إلى حد بعيد باختلاف الناس. خذوا اسم

«تيودور» مثلاً، تروا أن ليست له دلالة خاصة عند فريق منكم في حين قد يكون اسم أب أو أخ أو صديق أو اسم واحد منكم. وقد دلتنا خبرتنا بالتحليل على أن الفريق الأول بمنجاة من أن ينسوا أن شخصاً غريباً يحمل هذا الاسم، في حين ينزع الفريق الثاني أبداً إلى أن يضنوا على الغرباء باسم يبدو لهم أنه وقف على أقاربهم الأدنين. فإذا أضيف إلى هذا المانع الذي ينجم عن الترابط والتداعي ذلك الأثر الفعال لمبدأ «تفادي الألم» وأثر نزعة غير مباشرة كذلك، استطعنا إذن أن نأخذ فكرة كافية عن مبلغ تعقد الأسباب التي تؤدي إلى النسيان المؤقت للأسماء وأن التحليل الدقيق الذي يعطي كل حقيقة حقها، كفيل بأن يحل التشابك والتعقيد حلاً تاماً.

إن صد الذاكرة عن استحضار ما من شأنه أن يؤذي الشعور يبدو بصورة أكثر وضوحاً واطراداً في نسيان الحوادث والانطباعات منه في نسيان الأسماء. هذا النوع من النسيان لا يمكن اعتباره من الهفوات بطبيعة الحال إلا على قدر ما يبدو لنا، في ضوء خبرتنا اليومية العامة، أمراً يستلفت النظر فلا نجد له تعليلاً معقولاً، كما هي الحال حين ينسى الإنسان انطباعات حديثة أو ذات بال أو حين ينصب النسيان على ذكرى واحدة دون غيرها في سلسلة من ذكريات يمكن استحضارها استحضاراً حسناً. هنا يبدو لنا أن نتساءل: لم أتيحت للإنسان القدرة على النسيان. وكيف يتاح له النسيان بوجه عام؟ بل كيف نستطيع أن ننسى، بوجه خاص، خبرات لا ريب أنها تركت في نفوسنا أعمق الآثار كأحداث الطفولة مثلاً؟ تلك مشكلة تختلف عما نحن فيه كل الاختلاف، وقد يتسنى لنا تفسيرها بمبدأ «تفادي الألم» إلى حد ما، لكنه يبعد أن يفسرها جميعاً. إن نسيان الانطباعات المتنافرة غير المقبولة واقعة لا جدال فيها،

فقد لاحظها كثير من علماء النفس وكان لها في نفس دارون العظيم أثر عميق حدا به أن يدون، بعناية خاصة، ما يبدو له معارضاً لنظريته، وذلك بعد أن أيقن أن أمثال هـذه الملاحـظات أدنى إلى النسيان من غيـرها. سيعتـرض الـذين يسمعـون منكم لأول مـرة أن النسيـان وسيلة دفـاعيـة تقي من الذكريـات الأليمة، فيقـولون إن الـواقع خـلاف هذا، إذ المشـاهد المعـروف أن أعصى الحوادث على النسيـان هي الحـوادث الأليمـة، فهي تعاود المرء مرارا وتكرارا على الـرغم منه، وتكـون مصدر عـذاب مقيم له. وتلك حال الذكريـات التي يكتنفها الحـزن والأسى، أو تلك التي تقتـرن بالضعـة والصغار. هـذه واقعـة صحيحـة، لكنـه اعتـراض متهافت سقيم. ويهمنا في هذا المقام أن نتعجل الوقائع فنشيـر إلى أن الحياة النفسية ميدان حرب وساحة صراع يقوم فيها الكفاح بين نـزعات متعارضة. وإذا شئتم أن نعبر عن هذا بعبارة ديناميكية قلنا إنها تتألف من متناقضات وأزواج من الأضداد. فقيام شاهد على وجـود نزعـة معينة لا يتنافى بأية حال مـع وجود نـزعة مضـادة لها. فثمـة مجال لكـل واحدة منهمـا. وبيت القصيد هنـا هـو أن نعـرف مـوقف إحـدى النـزعتين من الأخرى، والآثار التي تترتب على كل واحدة منهما.

إن ضيـاع الأشياء واستحـالة العثـور عليها بعـد حفظهـا ظاهـرتـان جديرتان بعناية واهتمام خاص، لما قد تنطويان عليه من معان ودلالات عدة، ولما تقـومان عليـه من نزعـات شتى. فأمـا ما تشتـرك فيه هـاتان الهفوتان جميعاً، فهو الرغبة في فقدان شيء، وأما ما يختلف فيه بعضها عن بعض فهو الداعي إلى هذه الرغبة والهدف الذي نرمى إليه. فنحن نضيع الأشياء إن رثت وبليت. أو إن دفعنا إلى أن نستبدل بها خيراً منها، أو إن انصرفت النفس عنها. كما نضيعها إن جاءتنا من أشخاص لم يعد

بينناوبينهم ود موصول، أو إن كنا حصلنا عليها في ظـروف لا نحب أن نـذكرهـا بعد. وإن إسقـاط الأشياء أو إتـلافها أو تحـطيمها يخـدم هذه الأغراض ذاتها. ومما هو معهود في الحياة الاجتماعية أن الأطفـال غير الشـرعيين الذين يفـرضون على الغيـر، يكونـون أضعف أجساماً وأكثر هزالاً بكثيـر من الأطفال الـذين حملتهم أمهاتهم في ظـروف أسعـد . وليس هذا نتيجة للأساليب الساذجة الغليظة التي تصطنعها المراضع، بل مرده إلى بعض ما يلاقيه هؤلاء الأطفال من إهمـال. فمـن الممكن أن نفسر رعاية الأشياء أو فقدانها بنفس التفسير الذي ينسحب على الأطفال.

على أننا نلتقي بحالات أخرى يقدر فيها للأشياء أن تضيع دون أن تكون قد فقدت شيئاً من قيمتهـا ـ ونعني تلك الحالات التي يكـون من ورائها دافع إلى بذل شيء للقدر نتفادى به خسارة أخرى تخشى أن تحيق بنا ـ وتدل كشوف التحليل النفسي على أن أمثال هذا التوسل إلى القدر ما يزال مشاعاً بيننا. ومن ثم فإن ما نضيعه ما هو إلا بذل أو قدبان متعمداً في كثير من الأحيان. كذلك قد يكون الفقد مظهراً لدافـع من الكيد أو التكفير عن الذنب. وجملة القول أن الدوافع البعيدة العميقة التي تستتر وراء النزعة إلى التخلص من الأشياء بفقدها، لا يمكن حصرها وتعدادها بسهولة.

أمـا الخطأ في أخـذ الأشياء أو في تنفيـذ بعض الأعمال فغـالباً مـا يصطنع ـ كغيره من الهفوات الأخرى ـ وسيلة لتحقيق رغبة ينبغي سترها وإنكارها. هنا لا يلبس القصد لبوس المصادفة الموفقة من أمثال ذلك أن أحد أصدقائنا كان عليه أن يقوم بزيارة ضواحي المدينة، على غير رغبة منه، فركب القطار، وبينما هو يحاول الانتقال منه، في محطة مركزية،

إلى قطار الضاحية، إذا به يخطىء فيأخذ القطار الذي يعيده من حيث أتى. ويحدث أن يكون الإنسان مكلفاً بالقيام برحلة، فيود لو تسنى له أن يتخلف في الطريق يستجم بعض الوقت وهذا لا يتفق مع ما هو مرتبط به من مواعيد. فإذا به قد فاته قطار خاص أو أخذ آخر خطأ، وبذا يجد نفسه مكرها على التخلف الذي يتوق إليه. ومن أمثال ذلك أيضاً أني منعت أحد المرضى الذين يترددون علي من أن يتصل تلفونياً بالسيدة التي يحبها، فنجم عن هذا أنه كلما أراد أن يتصل بي، كان «يخطىء» رقم تلفوني «غير عامد» بآخر هو رقم السيدة تحديداً. وإليكم أخيراً مثالاً رائعاً بقصة بعض المهندسين عن ظروف يترتب عليها إتلاف أشياء مادية، كما يرينا الأثر العملي الخطير لأفعال يتورط فيها الفرد خطأ:

«منذ زمن مضى كنت أقوم مع نفر من زملائي بسلسلة من تجارب معقدة في موضوع «المرونة»، في معمل مدرسة عليا. وهو عمل كنا نقوم به طواعية واختياراً. لكنه بدأ يستنفد من وقتنا أكثر مما كنا نتوقع. وبينما أنا ذاهب في يوم إلى المعمل مع صديقي ف، إذا بي أجده برماً يشكو ما سيضيعه من الوقت في ذلك اليوم فلديه أعمال كثير تنتظره بالمنزل: فلم يسعني إلا أن أوافقه، وقلت له مازحاً أشير إلى حادثة وقعت لنا في الأسبوع السابق عسى أن تعطل الآلة اليوم، كما عطلت ذاك اليوم فيتسنى لنا أن نكف عن العمل وأن نعود إلى منازلنا مبكرين. ثم وزع العمل فكان من حظ صاحبي هذا تعديل صمام الكباس، أي فتح الصمام في عناية وحذر حتى ينساب ضغط السائل ببطء من المركم إلى أسطوانة الكباس المائي. وكان المشرف على التجربة يقف إلى جانب مانومتر، وعليه أن يأمر بالتوقف فوراً حين يصل الضغط حداً معيناً فلما صاح المشرف، إذا بصاحبنا يمسك الصمام ويديره بكل قوته.. إلى

اليسار! (في حين أن الصمامات كلها دون استثناء تقفل بإدارتها إلى اليمين) وبذا انتقل الضغط كله فجأة من المركم إلى الكباس مما لم تطقه أنابيب التوصل فانفجرت إحداها على التو: هذه حادثة لم ينجم عنها ضرر لكنها اضطرتنا إلى أن نوقف العمل طول اليوم وأن نعود إلى منازلنا. والغريب في الأمر أني تحدثت مع صاحبي في هذه الحادثة بعد وقوعها بزمن غير طويل، فرأيت أنه لا يذكر شيئاً عن العبارة التي قلتها له مازحاً في حين كنت على ذكر تام بها».

ربما كان من أمثال هذه الحالات والحوادث ما يجعلكم في ريب من أمر خدامكم وما يحطمونه من آنية لكم بالمنزل، فترون أن أيديهم لا تحركها المصادفة المحضة على الدوام، بل إخالكم تتساءلون أيضاً عما إذا كانت المصادفة هي وحدها المسئولة أبداً عن تلك الحوادث التي يعرض الإنسان فيها نفسه للخطر، أو يعمل شيئاً من شأنه إيقاع الضرر والأذى بنفسه. في وسعكم أن تتحققوا صدق ذلك الظن وأن تجيبوا عن هذا السؤال إذا قمتم بتحليل ما يعرض لكم من مشاهدات وملاحظات متى أتيحت لكم فرصة لذلك.

إن ما قلته عن الهفوات يبعد أن يكون كل ما يمكن أن يقال. فثمة نواح عدة ما تزال قيد البحث والاختبار. وإني لمغتبط لو استطعت، بهذه البحوث، أن أزعزع بعض ما لديكم من أفكار قديمة عن الموضوع، وأن أهيئكم لقبول أفكار جديدة. أما عما تبقى فحسبي أن أترككم إزاء بضع مسائل لم أحلها بعد فمبادئنا لا تستمد أدلتها جميعاً من دراسة الهفوات وحدها، وليس ثمة مايضطرنا إلى أن نحصر بحوثنا حتى لا تتناول إلا المواد التي تتيحها لنا الهفوات. وقد كانت الهفوات ذات قيمة وأهمية كبيرتين لما تهدف إليه فهي أفعال مشاعة مذاعة يستطيع كل إنسان أن

يلاحظها في نفسه، كما أنها ليست وقفاً على الحالات المرضية (الباثولوجية) بحال. وأود أن أذكركم، وأنا أختتم، بأحد أسئلتكم الذي لم أجب عنه بعد: «إذا كان الناس يقتربون من فهم الهفوات إلى هذا الحد ـ كما بدا لنا من أمثلة عدة ويتصرفون في كثير من الأحيان كما لو كانوا يدركون معناها ـ فما بالهم ينظرون إليها، بوجه عام، كأنها ظواهر عرضية غفل من الدلالة والأهمية وما بالهم يشتدون في معارضة تفسيرها بمبادىء التحليل النفسي؟».

أنتم على حق في هذا: فتلك واقعة خليقة بالنظر، حرية بأن نجد لها تعليلاً. لكن أوثر ألا أطالعكم بهذا التعليل، بل أسير بكم وئيداً في خطوات متتالية وحلقات يأخذ بعضها برقاب بعض، حتى يتاح لكم من تلقاء نفسه دون معونة مني.

الفصل الخامس

الأحلام

صعوبات ومقدمات:

أميط اللثام ذات يوم عن أن أعراض المرض عند بعض العصبيين تنطوي على معنى. وعلى هذا الكشف نهضت طريقة التحليل النفسي في العلاج. وقد لوحظ أن المرضى، وهم يتحدثون عن أعراضهم في أثناء العلاج، يشيرون إلى أحلامهم كذلك. ومن ثم اتجه الظن إلى أن هذه الأحلام قد تنطوي، هي الأخرى، على معنى.

على أننا لن نسلك هذا الطريق التاريخي، بل سنتبع طريقاً مضاداً له. فنحن نهدف إلى أن نبين أن للأحلام معنى، وذلك تمهيداً لدراسة الأمراض النفسية. وثمة أسباب وجيهة تدعوناإلى أن نمضي على عكس التتابع التاريخي: فدراسة الأحلام خير تمهيد يمهد به لدراسة الأمراض النفسية، هذا إلى أن الحلم نفسه عرض عصابي، وهو عرض له عندنا ميزة لا تقدر، إذ أنه مما يمكن ملاحظته عند الأصحاء من الناس كافة. والحق أننا لو افترّضنا أن كل الناس أصحاء من الناحية النفسية، لا نعرف عنهم غير أحلامهم، لاستطعنا بفضل هذه الأحلام أن نظفر بكل ما ظفرنا به من معلومات عن طريق دراسة الأمراض النفسية.

وهكذا تصبح الأحلام موضوع بحث من بحوث التحليل النفسي، وظاهرة أخرى من الظواهر المألوفة التي لا يلقي إليها الناس بالاً كبيراً والتي تبدو من ظاهرها غفلاً من أية قيمة عملية، شأنها في هذا شأن

«الهفوات»: تشترك معها في أن كلتيهما مما يبدو لدى الأصحاء من الناس، وتختلف عنها في أن ظروف البحث فيها ليست مواتية كظروف الهفوات. لقد كانت الهفوات هملاً في نظر العلم، ولم يشغل الناس أنفسهم بأمرها كثيراً. غير أن الإشتغال بها لم يكن على الأقل شيئاً يعاب على الفرد ويغض منه. ولئن قال الناس إن هناك ما هو أهم منها وأحرى، فما انفكوا يرون أنه من الممكن استنباط شيء ذي قيمة منها. أما البحث في الأحلام فلم يكن نافلة غير ذي قيمة عملية فقط، بل كان فوق هذا أمراً معيباً: فكان يوصف المهتم بها بأنه يتطاول على العلم ويميل إلى جانب الغيبيات. أما أن يهتم بدراستها طبيب، وهو من تعرض له في علم الأمراض العقلية وباثولوجيا الجهاز العصبي ظواهر أكثر خطورة وجداً: كتلك الأورام التي تضغط «عضو العقل»، والتي تكون في حجم التفاحة أحياناً، أو نزف الدم، أو حالات الإلتهاب المزمنة التي تترتب عليها تغييرات من الأنسجة يمكن رؤيتها تحت الميكروسكوب!. فلا!. فالأحلام ظاهرة على جانب كبير من التفاهة بحيث لا تستأهل أن تكون موضوعاً لبحث علمي.

ثم أن هناك عاملاً آخر من شأنه أن يجعل موضوع الأحلام يتعارض مع مقتضيات البحث العلمي المضبوط جميعها. فموضوع البحث، وهو الحلم ذاته، موضوع مبهم غير محدد. فالهجاس مثلاً له معالم واضحة محدودة. إذ يقول المريض في بساطة: «إني إمبراطور الصين». أما الحلم فلا يمكن روايته في أغلب الأحيان إطلاقاً. ولو قص علينا رجل حلماً رآه، فأنى لنا أن نتحقق أنه رواه رواية صحيحة، وما الدليل على أنه لم يحرف الحلم وهو يرويه، وعلى أنه لم يرغم على اختلاق جزء منه، نظراً لما يغشى تذكره من غموض وإبهام؟. إن أغلب الأحلام لا

يمكن تذكرها البتة، فهي لا تنسى ولا تبقي منها في الذاكرة إلا نتف زهيدة لا يعتد بها. فهل يصح لنا أن نقيم على أمثال هذه المادة علم نفس علمياً أو طريقة لعلاج المرض؟ .

إن بعض الغلو في الحكم والنقد، من شأنه أبداً أن يثير الريبة في النفوس وواضح أن الاعتراضات التي وجهت إلى الأحلام، من حيث هي موضوع للبحث العلمي، لا تخلو من الشطط والإسراف وقد سبق أن قيل إن «الهفوات» أشياء تافهة، فقلنا إن عظائم الأمور قد تكشف عنها أمارات صغيرة. . أما أن الأحلام غير واضحة ولا متميزة، فتلك خاصة لها كغيرها من الخصائص الأخرى. وكيف لنا أن نملي على الأشياء خصائصها، ثم إن هناك أحلاماً واضحة محدودة المعالم؟ يضاف إلى هذا أن البحوث في الأمراض العقلية والنفسية كثيراً ما تتناول موضوعات تعوزها صفة الوضوح والتحديد. من أمثالها الأفكار المستحوذة في كثير من الحالات. ومع هذا فقد اهتم بها نفر من أطباء الأمراض العقلية النابهين ذوي الرأي. وأذكر بهذا الصدد آخر حالة عرضت لي وأنا أزاول الطب: وكانت امرأة مريضة بدأت تقص حالتها فقالت «أشعر كأن آذيت مخلوقاً حياً، أو كأني أردت أن أوذيه ـ ربما كان طفلاً ـ لا. لا، إنه كلب على الأصح، أشعر كأني قذفت به من أعلى جسر،.أو كأني آذيته بطريقة أخرى». وفي وسعنا أن نعالج العيب الذي ينشأ من التذكر المريب للعلم، بأن ننظر إلى ما يقصه الحالم تحديداً، على أنه الحلم، وأن نصرف النظر عن كل ما يمكن أن يكون قد نسيه أو حرفه في عملية التذكر. ثم نذكر أخيراً أنه لا يحل لأحد أن يقول ـ بهذه الصورة العاجلة ـ إن الأحلام ظاهرة غير ذات بال. فنحن نعرف من خبراتنا الخاصة أن الحالة المزاجية التي نصحو بها من حلم، قد تلازمنا طول

اليوم، كما يعرف رجال الطب حالات بدأ فيها الاضطراب العقلي بحلم، وكان مصدر الهزاء الذي ألح على المريض، في هذا الحلم. يضاف إلى هذا أنه يحكي عن الشخصيات التاريخية العظيمة أنهم استمدوا من الأحلام تلك القوة التي أتاحت لهم القيام بأعمالهم الخطيرة. وفي هذا ما يحملنا على التساؤل عن السبب الحقيقي الذي يعدو بالدوائر العلمية أن تغض من شأن الأحلام إلى هذا الحد. عندي أن هذا الغض ما هو إلا رد فعل للنظرة الفعالية إلى الأحلام فيما مضى. من المعروف أن تصور الماضي وما كان عليه ليس بالأمر اليسير لكن أستطيع أن أسلم عن يقين (واصفحوا عن هذه الدعابة!) أن أجدادنا منذ ثلاثة آلاف عام أو يزيد كانوا يحلمون بنفس الطريقة التي نحلم بها اليوم. وقد كانت جميع الشعوب القديمة فيما نعلم، ترى في الأحلام دلائل كبرى، وتعلق عليها أهمية عملية في استطلاع الغيب والتماس الفأل والطيرة. بل لقد أتى على الإغريق وغيرهم من الشرقيين حين من الدهر كانوا لا يتصورون فيه قيام حملة حربية لا يصاحبها معبرون للأحلام كما لا نتصور اليوم قيام حملة لا يرافقها مستكشفون من الطيارين. فلما قام الإسكندر الأكبر بحملة فتوحه، كان في ركابه أشهر معبري الأحلام في عصره وكانت مدينة «صور» Tyre ما تزال قائمة في جزيرة، فلما قاومته مقاومة عنيفة، عزم على رفع الحصار عنها. غير أنه رأى ذات ليلة، فيما يراه النائم، مسخاً Satyr يرقص رقصة من رقصات النصر. فلما قص رؤياه على المعبرين، أكدوا أن تلك بشرى النصر على المدينة. فأمر بالهجوم فأخذ المدينة عنوة وقسراً وقد كان الأنزوريون Etruscans والرومان يصطنعون طرقاً أخرى لاستنباء الغيب، لكن تأويل الأحلام ظل يؤخذ به ويرفع من شأنه طوال العهد اليوناني الروماني. ولم يبق لنا من المراجع عن هذا الموضوع إلا الكتاب الرئيسي لأرطميدورس

الأفسوس Artremidorus الذي يقال إنه كان يعيش في عهد الإمبراطور هادريان. ليس في مقدوري أن أخبركم ماذا حدث فترتب عليه أن تهافت فن تأويل الأحلام بعد ذلك، وخفت صيته وقلّت شهرته على أني لا أرى ذلك نتيجة لتقدم الدرس والعرفان، فقد احتفظت العصور الوسطى المظلمة، في حرص وأمانة، بأشياء أكثر سخفاً من فن تأويل الأحلام القديم. والواقع أن الاهتمام بالأحلام أخذ المتعلمين على أننا ما نزال نلمح بقية من فن التأويل في يومنا هذا، ربما كان آخر مرحلة من مراحل تدهوره وانحلاله: تلك هي محاولة بعض الناس أن يتعرفوا من أحلامهم الأرقام الرابحة في لعب «الحظ والنصيب». ومن جهة أخرى، تناولت العلوم المضبوطة الحديثة موضوع الأحلام مرات عدة، لكنها لم ترم قط إلا إلى إيضاح الأحلام بنظريات فسيولوجية. فالأطباء بطبيعة الحال لم ينظروا قط إلى الحلم على أنه عملية نفسية، بل على أنه مظهر نفسي لمنبه فيزيقي وها هو ذا «بنز Binz». يصرح (عام ١٨٧٦) «بأن الحلم عملية جسمية لا فائدة منها أبداً، بل إنه عملية مرضية بالفعل في كثير من الأحيان. ولو أنها قيست إلى فكرة التعس المطلقة والخلود لكانت النسبة بينهما كالنسبة بين رقعة رملية من الأرض غطتها الأعشاب الضارة في مكان سحيق وبين السماء الزرقاء التي تهيمن عليها من عل». أما «موري Maury» فقد شبه الأحلام بالرجفات التشنجية في مرض النرفن، إذا قيست إلى الحركات المتآزرة المتسقة عند الإنسان السوي، ثم إن هناك تشبيهاً قديماً يقارن الحلم «بالأصوات التي يحدثها شخص يجهل الموسيقى، حين يمر بأصابعه العشر على مضارب آلة العزف».

أما إذا كنا نقصد «بالتأويل» الكشف عن معنى خبيء، فلا مجال لأن نتكلم، بطبيعة الحال عن تأويل للأحلام. ما دام يغض من شأنها إلى

هـذا الحد. إقـرأوا وصف الأحـلام فيمـا كتبـه «فنت Wundt» و«جـدل Jodle» وغيرهما من الفلاسفة المحدثين، تروا أنهم يقنعون بمجرد تعداد للنواحي التي يختلف فيها الحلم عن الفكر في حالة اليقظة إذ يؤكـدون تفكك المستدعيات وتهلهلها في الحلم وتعـطل ملكة النقـد، ومجانبة الحلم للحق والواقع إلى غير تلك من الفوارق التي ترمي إلى الغض من قيمة الأحلام. أما العلوم المضبوطة فلم تفض إلى موضوع الأحلام إلا بشيء واحد ذي قيمة، هو تأثير المنبهات الجسمية في أثناء النـوم، من محتوى الحلم ومضمونه. من هذا أن مؤلف نورويجيامـات حديـثا، هو «مورلي فلد»Mourly Vold ترك مجلدين كبيرين عن بحوث تجـريبية في الأحلام (ترجما إلى الألمانية عامي ١٩١٠ و١٩١٢) تكاد تدور كلها على الآثار التي تنتج عن تغيير وضع الأعضاء من أثناء النوم. وقد أطريت هذه البحوث على أنها نماذج للبحث المضبوط في مـوضوع الأحـلام. لكن ماذا يقول أصحـاب العلم المضبوط لـو علموا أننـا نحاول الكشف عن معنى الأحلام؟ لعلهم قد أجابوا عن هذا من قبل! بيد أننا لن ندع أنفسنا يروعها ما صوروه من حكم وتقدير. فلئن كـانت الهفوات تنـطوي على معنى مستتر، فليس هناك ما يمنع أن تكون الأحلام كذلك. والواقع أن للهفـوات، في حالات كثيـرة شتى، معنى قد غـاب عن بحـوث العلم المضبوط. إذن فلنجار الأقدمين والدهماء من الناس فيما كانوا يزعمون، ولنتتبع خطوات من كانوا يعبرون الأحلام في الماضي.

وعلينا قبل كل شيء أن نحدد اتجاهنا فيما نريد عمله وأن نستعرض ميـدان الأحلام، فنتسـاءل: ما هـو الحلم بالتحـديد؟ ليس من اليسيـر تعريـف الحلم في عبارة واحدة. ومع هذا فليست بنا حاجة إلى البحث عن تعريـف، لأن كل ما نريد هو الإشارة إلى شيء يعرفه كل إنسان، على

أنه يتعين علينا أن نبرز الخصائص الأساسية للعلم. فكيف السبيل إلى الكشف عن هذه الخصائص، والميدان الذي نطرقه ينطوي على فوارق واختلافات شتى من كل نوع؟ فإن تسنى لنا أن نكشف عن خصائص تشترك فيها الأحلام جميعها، فأكبر الظن أن تكون هي الخصائص الأساسية:

إن أول خاصة تشترك فيها الأحلام كافة، هي أننا نحلم ونحن نيام. وغنى عن البيان أن الحلم هو الحياة النفسية للفرد في أثناء النوم، وهي حياة تشبه حياة اليقظة من بعض الوجوه، وتختلف عنها في الوقت ذاته اختلافاً بعيداً. ومذ كان هذا تعريف أرسطو في الواقع. على أنه من الممكن أن تكون الصلة بين الحلم والنوم أوثق من هذا وأقرب، فالحلم قد يوقظنا من النوم وغالباً ما نكون بمشهد من حلم حين نستيقظ من تلقاء أنفسنا أو حين نكره على الاستيقاظ إكراهاً. من هذا يبدو أن الحلم حالة وسطى بين النوم واليقظة. وهكذا ينتهي بنا المطاف إلى النوم نفسه. فما هو النوم إذن؟.

تلك مسألة فسيولوجية أو بيولوجية لا تزال مثار جدل شديد، فلا نستطيع القطع فيها بشيء. لكن أظن أننا نستطيع أن نصف خاصة سيكولوجية من خصائص النوم. فالنوم حالة لا يريد النائم فيها أن تكون له صلة البتة بالعالم الخارجي حالة ينسلخ فيها اهتمامه من العالم الخارجي انسلاخاً تاماً. فأن أنام أنسحب من العالم الخارجي، وأتقي كل تنبيه يأتي منه. وأنا أنام كذلك حين أكون متعبا من هذا العالم. فكأني أقول لهذا العالم وأنا أعالج النوم: «دعني هادئاً مستريحاً فأنا في حاجة إلى النوم» أما الطفل فيقول عكس هذا: «لا أريد أن أنام بعد، فلست متعباً، وأريد أن تحدث لي أشياء أكثر» وهكذا يبدو أن الغاية

البيولوجية من النوم هي الاستجمام واستعادة القوى وأن خاصته السيكولوجية هي قطع الصلة والإهتمام بالعالم الخارجي. إن صلتنا بهذا العالم الذي جئناه دون اختيار منا، صلة لا تحتمل فيما يبدو، لو أنها ظلت مستمرة طول الوقت دون انقطاع. لذا فنحن ننسحب منه بين حين ونتراجع إلى الحالة التي كنا فيها قبل أن نمثل فيه، أي إلى حالتنا داخل الرحم. أو أننا نحاول، على الأقل، أن نخلق ظروفاً شبيهة بتلك الحالة ما وسعنا ذلك ـ كالدفء والظلام واتقاء المنبهات الخارجية وغير تلك مما تتميز به تلك الحالة. بل إن بعضنا يلف نفسه ويتكرر في أثناء النوم حتى ليشبه وضع الجنين داخل الرحم. فكأننا نحن الكبار الناضجين لا ننتسب إلى هذا العالم إلا بثلثينا فقط، في حين أن ثلثنا الباقي لم يولد بعد. وكأننا كلما صحونا في الصباح، كان لنا ميلاد جديد. ألسنا نقول لأنفسنا حين نستيقظ من النوم. «نحن نشعر كأننا ولدنا من جديد»؟، ولو أننا، بوصفنا هذا، نخطىء خطأً بعيداً ما يشعر به الوليد من أحاسيس أكبر الظن أنها مزعجة مثيرة. كذلك نقول عن الولادة حين نتحدث عنها: «إن فلاناً رأى ضوء النهار».

لئن كانت طبيعة النوم على ما نقول، فهيهات أن يكون النوم بالحلم مرحباً، بل الأصح أن يكون الحلم ضيفاً ثقيلاً على النوم. والحق أننا نعتقد أن النوم الخالي من الأحلام، هو خير نوم، أو هو النوم الحقيقي ليس غيره، وأن النشاط النفسي يجب أن يختفي أصلاً خلال النوم. فإذا انبعث في النوم ـ نشاط نفسي ـ، فذلك أننا لم نوفق إلى بلوغ حالة الهدوء والراحة التي ينعم بها الجنين، وأننا أخفقنا في أن نتقي بعض مخلفات هذا النشاط وبقاياه، فلا تكون الأحلام إلا تلك البقايا. والحق أن الأحلام لا تكون في هذه الحال بحاجة إلى أن يكون لها معنى. لقد كان

الأمر على غير هذا في الهفوات، لأنها، على الأقل، أوجه نشاط تصدر من الإنسان في حالة اليقظة، غير أني حين أنام، بعد أن أفلح في وقف نشاطي النفسي إلا قليلاً مما عجزت عنه، فليس ثمة ضرورة ما لأن يكون لتلك البقية معنى ما. والحق أني لا أستطيع أن أنتفع من هذا المعنى ـ إن كان هناك معنى ـ لأن الجزء الأكبر من حياتي النفسية في حالة نوم. ومن ثم لا يمكن أن يعدو الأمر، في الواقع أن يكون استجابة اختلاجية، من أمثال تلك الظواهر النفسية التي تنجم مباشرة عن منبهات جسمية. وهكذا لا تكون الأحلام إلا بقايا من النشاط النفسي لحالة اليقظة من شأنها أن تكدر صفو النوم. ومن هنا يتعين علينا أن نذر هذا الموضوع، فهو لا يدخل في نطاق التحليل النفسي.

على أننا حتى إذا فرضنا أن الحلم فضلة لا غناء فيها، فهذا لا يمنع أنه شيء موجود، ولا يمنعنا أن نلتمس لأنفسنا تفسيراً لوجوده، فنتساءل: لماذا لا تنام الحياة النفسية؟ أكبر الظن أن يكون السبب في هذا وجود شيء يحول بينها وبين الراحة والهدوء، فثمة منبهات تنوشها من كل جانب، ولا مناص لها من أن تستجيب به الحياة النفسية للمنبهات التي تكتشفها خلال النوم. وهنا نلمح مدخلاً يتيح لنا فهم الأحلام، إذ نستطيع أن نبحث في شتى الأحلام عن المنبهات التي من شأنها أن تزعج النوم فيستجيب لهذا النائم بالأحلام. وهكذا نكون قد استخلصنا أول خاصة تشترك فيها الأحلام جميعاً.

ترى هل ثمة خاصة مشتركة أخرى؟ نعم، هناك خاصة لا يخطؤها التقدير، وإن كانت أصعب تناولاً وأعز وصفاً. إن العمليات النفسية في أثناء النوم تختلف اختلافاً كبيراً، من حيث طابعها، عن نظيراتها في حالة اليقظة. فنحن نمر في الأحلام بخبرات كثيرة وأحداث نعتقد بها كل

الاعتقاد في حين قد لا يعدو الأمر في الواقع أن يكون تنبيهاً من منبه واحد يقلقنا. وتبدو هذه الأحداث، غالباً، في شكل صور ذهنية بصرية، قد تصاحبها أحياناً مشاعر وأفكار وانطباعات من حواس أخرى غير البصر، لكن الصورة البصرية هي الغالبة أبداً على ما سواها. وإن ما نلاقيه من صعوبة، حين نروي حلماً، يرجع إلى حد ما - إلى أنه يتعين علينا أن نترجم هذه الصور إلى ألفاظ من هذا ما يقوله الراوي في أغلب الأحيان، من أنه يستطيع أن يرسم الحلم، لكنه يعجز عن صوغه في ألفاظ. وليس هذا بالتحديد تهافتاً في القدرة العقلية، كما نراه في ضعيف العقل إن قيس إلى نابغة عبقري. بل الأدنى إلى الصواب أن يكون الفارق في النوع «والكيف» وهو فارق يعز علينا تعيينه على وجه التحديد وقد افترض «فغنر Fechner» ذات مرة أن المسرح الذي يدور عليه الحلم (في نفس) ليس مسرح الأفكار في حياتنا اليقظة. وهو قول لا نفهمه في الحق، ولا نعرف ماذا يقصد به قائله، لكنه يعبر تعبيراً حسناً عن ذلك الإنطباع الغريب الذي تتركه أغلب الأحلام في نفوسنا. ثم إن تشبيه النشاط الذي يبدو في الأحلام بما تحدثه يد غير صناع في الموسيقى، تشبيه لا يستقيم هنا، لأن الآلة الموسيقية ستستجيب قطعاً بالأصوات نفسها - وليس من الضروري بألحان - كلما مست اليد مضاربها مسة اعتباطية. ولنجعل هذه الخاصة الثانية المشتركة بين الأحلام ماثلة في أذهاننا، حتى إن لم تفهمها حق الفهم.

ترى هل ثمة خصائص أخرى تشترك فيها الأحلام كافة؟ لا أستطيع أن أرى بعد هذا إلا فوارق واختلافات أنى نظرت وحيثما بحثت: فوارق في ديمومة الحلم الظاهرية، وفي درجة وضوحه وتحديده، وأخرى من حيث الدور الذي تقوم به الحالات الوجدانية، ومن حيث بقاؤه في

الذهن وإلحاحه عليه إلى غير تلك من الفوارق. وليس هذا ما يتوقع بطبيعة الحال لو كان الأمر مجرد استجابة قهرية، اختلاجية، مؤقتة، لدرء منبه ما. أما فيما يتصل بطول الأحلام، فثمة أحلام قصيرة جداً، لا تتألف إلا من صورة ذهنية واحدة أو بضع صور، ولا تحتوي إلا فكرة واحدة أو حتى كلمة واحدة. وذات مضمون وافر مستفيض، كأنها روايات حقيقية كاملة تستغرق زمناً طويلاً جداً فيما يبدو. وهناك أحلام واضحة متميزة كالخبرات الواقعية بحيث يصعب على الحالم عندما يستيقظ أن يتحقق أنها أحلام إلا بعد حين، وأخرى على درجة لا توصف من الشحوب والميوعة والإنطماس، بل إن من الأحلام ما يبدو بعض أجزائه واضحاً ناصعاً إلى حد بعيد، والبعض الآخر على درجة كبيرة من الغموض والروغان. ومن الأحلام ما هو متماسك غفل من التناقض أو ملتئم على الأقل، بل منها ما تغشاه روح الفكاهة أو مسحة من جمال أخاذ ومنها أيضاً ما يكون ملتبساً، سخيفاً في ظاهره، متناقضاً أو على جانب كبير من الإغراب والحمق. وثمة أحلام لا تترك في نفوسنا أثراً ما، وأخرى تستثير فينا حالات وجدانية وانفعالات ـ فيستبد بنا الألم فيها حتى نبكي ويتملكنا الذعر حتى نستيقظ، أو يغشانا الابتهاج والمرح أو الإنذهال إلى غير تلك ـ وأغلب الأحلام لا يلبث أن ينسى بعد الاستيقاظ، فإن لم تنسَ خلال اليوم، ضعف تذكرها وكثرت فيها الفجوات كلما تقدم النهار. في حين تظل أخرى على درجة من الوضوح والنصوع (كأحلام الطفولة مثلاً) بحيث يستطيع الفرد أن يسترجعها واضحة، بين ثلاثين عاماً، كأنها بعض خبراته الحديثة. والأحلام كالناس فمنها ما يراه الفرد مرة واحدة لا تعود طول حياته، ومنها ما تتواتر رؤياه مرات عدداً، إما بصورته الأصلية وإما بتغييرات طفيفة فيها. وموجز القول إن هذا النشاط النفسي الليلي الذي لا يعتد به، كشكول ضخم

ومستودع هائل، وفي وسعه أن يخلق كل ما تستطيع النفس أن تخلقه في حالة اليقظة. لكنه خلق آخر.

وقد نحاول تفسير هذه الأنواع المختلفة من الأحلام، بأن نفترض أنها تناظر الحالات المختلفة التي تتوسط النوم واليقظة، أي المستويات المختلفة للنوم غير الكامل، لكن الأمر لو كان كذلك، لتعين أن تزداد قيمة الحلم ومضمونه وتميزه كلما اقترب النائم من حالة اليقظة، ولتعين أيضاً أن يزداد تفطن النائم وإدراكه أنه بصدد حلم، ولما كان من الممكن، فضلاً عن هذا، أن تظهر إلى جنب الأجزاء الواضحة المعقولة من الحلم، أجزاء أخرى غامضة غفل من المعنى، تتبعها أخرى واضحة غير سخيفة. فلو أخذنا بهذا التفسير، لكان تسليماً بأن للحياة النفسية القدرة على أن تغير من عمق نومها في سرعة وسهولة تتنافيان مع ما هو مشاهد في الواقع. ومن ثم فهو تفسير لا يغني. الأمور لا تجري على هذا النحو من البساطة بوجه عام.

لندع النظر مؤقتاً في «معنى» الحلم، ولنعمل على أن نستوضح طبيعته بادئين من العناصر المشتركة في كل الأحلام. لقد خرجنا من دراسة الصلة بين الأحلام والنوم، بأن الحلم استجابة لمنبه يقلق النوم. وقد سمعنا أن هذه هي النقطة الوحيدة التي يستطيع علم النفس التجريبي أن يعيننا على تحقيقها، بأن يقدم لنا الدليل على أن المنبهات التي تؤثر في النائم، تظهر في أحلامه. فقد أجريت، في هذه الناحية، بحوث عدة، منها بحوث «مورلي فلد» الذي سبقت الإشارة إليه، وفي وسع كل منا أن يؤيد نتائج هذه البحوث من ملاحظاته الشخصية العارضة. وإليكم طرفاً من أقدم هذه التجارب التي كان يجريها موري على نفسه: فقد كلف بعض معاونيه أن يشمموه رائحة «ماء كولونيا» في أثناء نومه، فرأى

فيما يراه النائم أنه في القاهرة في محل «بان ـ ماريافرينا» وتبع هذا طائفة من مغامرات حمقاء مسرفة. كما كلفهم أن يقرصوه من عنقه قرصاً خفيفاً: فما لبث أن رأى نقطة تلتصق بجسده وطبيباً كان يعالجه وهو طفل صغير. ومن تلك التجارب أيضاً أن كلف من يسكب قطرة من الماء على جبينه: فرأى أنه في إيطاليا يستنشق الهواء الطلق ويشرب نبيذ أورفيتو الأبيض.

إن ما يستلفت النظر في هذه الأحلام التجريبية، ربما يزداد وضوحاً وجلاء في المجموعة الآتية من الأحلام التي تنبعث هي الأخرى في إثر منبهات خارجية. وهي أحلام ثلاثة يرويها ملاحظ بارع هو «هلدربرانت Hilderbrandt» وكلها استجابات لصوت ساعة منبهة:

«أرى أني أتنزه في صباح يوم من أيام الربيع، أضرب في الحقول وكانت على وشك الاخضرار، حتى أبلغ قرية مجاورة، أرى أهلها قد أخذوا زينتهم، واتجهوا زرافات إلى الكنيسة يحملون كتب الصلوات بأيديهم. إذن فاليوم أحد بطبيعة الحال. وقد أوشكت أن تقام صلوات الصباح. فعزمت على أن أؤدي الصلاة، لكن الجو كان شديد الحرارة. فدلفت إلى المقابر المحيطة بالكنيسة ألتمس الراحة. وبينما أنا أقرأ بعض ما كتب على القبور، إذا بي أستمع صوت قارع الناقوس وهو يصعد إلى برجه، ثم أرى في قمة البرج ناقوس القرية الصغير الذي سيعلن عما قليل عن بدء الصلاة. لكنه يظل دون حراك بضع لحظات، ثم يبدأ في الحركة. وعلى حين فجأة أسمع الدقات واضحة نافذة بحيث أيقظتني من النوم. لكن هذا لم يكن سوى دقات الساعة المنبهة».

وإليكم مجموعة أخرى من الصور الذهنية لحلم آخر: «كان يوماً من أيام الشتاء الصافية، والشوارع مغطاة بطبقة سميكة من الثلج. وكنت

على موعد أن أشترك في رحلة للإنـزلاق على الجليد، لكنني مضـطر أن أنتظر وقتاً طويلاً قبل أن يقال لي إن المزلقة أمام منزلي، ثم ترد المزلقة. فألبس الفراء، وأضع مرفأة الرجلين ثم أتخـذ مكاني من العـربة. لكن كـان على الجياد أيضـاً أن تنتظر الإيـذان بالسير. ثم تهتـز بـالسـروج بـأجراسهـا الصغيرة اهتـزازاً عنيفاً، فتبـدأ في موسيقـاهـا ذات الـطابـع الإنكشاري المعروف، ترسلها في عنف تمزقت في أثره خيـوط الحلم على الفور. ولم يكن ذلك ـ هذه المرة أيضاً ـ إلا صليل جرس الساعة المنبهة».

المثال الثالث: «أرى طاهية تحمل أطباقاً مرصـوصة من الخـزف، وهي في طـريقها إلى غـرفة المـائدة، ويخيـل إلي أن هذا العمـود من الأطباق الصينية في خطر من أن يختل توازنه، فأهيب بها أن تأخذ حذرها حتى لا يسقط مـا تحمله على الأرض هشيمـاً فـأتلقى منهـا الجـواب المألوف في مثل هذه الحالة، وهو أنها ألفت هـذا العمل واعتـادته فلم يمنعني هذا من أن أتبعها بنظرات قلقة، وقد حدث ما كنت أتوقـع، إذ عثرت على عتبة الباب فهوى مـا كانت تحمله أمشـاجاً من كسـار شتى تصحبه قعقعة مدوية، وسرعان ما فطنت إلى أن هـذه الضوضـاء ليست قرقعة وتهشيماً، بل صوتاً موصولاً ودقات منتظمـة ـ لم تكن غير دقـات الساعة المنبهة كما تحققتها حينما استيقظت».

تلك أمثلة لأحلام بديعة حافلة بالمعنى. وهي، على خلاف أغلب الأحلام ملتئمة متماسكة إلى حد كبير، فليس لدينا اعتـراض عليها من هذه الناحية. . أما السمـة المشتركة فيها جميعاً، فهي أن الموقف، في كل حالة منها، ينجم عن ضوضاء يعرف النائم عند استيقاظه أنها ضوضاء ساعة منبهة. ومن هنا نعـرف كيف يحدث الحلم، بـل نعرف أكثـر من

ذلك. فالنائم لا يتعرف دقات الساعة (أي أن الساعة نفسها لا تظهر على مسرح الحلم)، لكنه يستبدل بها ضوضاء أخرى ويؤول المنبه الذي يقلق نومه تأويلاً مختلفاً في كل حالة. ترى ما السبب في هذا؟ ليس ثمة جواب من هذا، إذ يلوح أن الأمر مجرد اتفاق لا يخضع لقاعدة. على أننا إذا أردنا أن نفهم الأحلام، فلا بد من أن نكون قادرين على أن نعلل اختيار النائم نوعاً بعينه من الضوضاء - لا نوعاً آخر - ليؤول به التنبه الصادر من الساعة. ومن ثم يجب أن نعترض بالمثل على تجارب «موري» بأنها، وإن كان يتضح منها ظهور أثر المنبهات التي تؤثر في النائم على مسرح الحلم، فأنها لا تبين لنا لماذا لم يبد أثر المنبهات في صورة معينة بذاتها، وهي صورة لا يمكن أن تقرها طبيعة المنبه الذي يقلق النوم. هذا إلى أننا نلحظ في هذه التجارب، طائفة من آثار ثانوية تصاحب الأثر المباشر للمنبه كتلك المغامرات المسرفة الحمقاء في الحلم الذي استثاره «ماء كولونيا» وهي مغامرات يتعذر تعليلها».

اذكروا أن هذا الصنف من الأحلام الذي يوقظ النائم، هو خير مثال يبين تأثير المنبهات الخارجية المقلقة. أما في أغلب الأحوال الأخرى، فالأمر أصعب من هذا. فنحن لا نستيقظ من أثر كل حلم، ولئن تذكرنا في الصباح حلماً رأيناه بليل، فكيف نستطيع أن نعزوه إلى المنبه المقلق الذي ربما كان يؤثر فينا أثناء النوم؟ لقد وفقت ذات مرة إلى تعرف منبه صوتي من هذا النوع، بعد أن استيقظت، لكن كان ذلك في ظروف خاصة بطبيعة الحال: استيقظت ذات صباح في مكان ما بجبال التيرول، موقناً بأني رأيت في نومي أن البابا قد توفي. ولم أستطع أن أؤول هذه الرؤيا لنفسي حتى سألتني زوجتي: «هل سمعت في وجه الصباح المبكر تلك الأصوات المروعة؟ أصوات النواقيس في الكنائس الكبيرة والصغيرة

جميعاً؟» فأجبتها بأني لم أسمع شيئاً. . لأني أنام نوماً عميقاً. وقد كان في سؤالها هذا ما أتاح لي أن أفهم رؤياي ترى كم من أمثال هذا المنبه توحي إلى النائم بأحلام دون أن يعلم من أمرها شيئاً فيما بعد؟ قد يكون الأمر كذلك في الكثير الغالب من الأحيان، أو لا يكون كذلك. فإن لم يتسنَّ لنا أن نعرف شيئاً عن المنبه، فليس في وسعنا أن نقطع بشيء من أمره ويغض النظر عن هذا، فليس لنا أن نطيل الوقوف هنا نناقش قيمة المنبهات الخارجية وأثرها من حيث هي مصادر لإقلاق النوم، لأننا نعرف أنها لا تفسر إلا جانباً صغيراً من الحلم، وليس كل الإستجابة التي يتكون منها.

على أن هذا ليس سبباً يحملنا على أن نذر هذه النظرية بأسرها، فلا يزال ثمة مجال لتأثيرها حتى النهاية. والحق أن ما يقلق النوم ويسبب الحلم ليس بالأمر الذي يعنينا. فإن لم يرجع هذا السبب إلى منبه خارجي يقرع حاسة من الحواس، فقد يكون منبهاً حشوياً مصدره الأعضاء الداخلية. وهو افتراض مرجح إلى حد بعيد، كما أنه يتمشى مع الرأي المشاع بين الناس عن نشأة الأحلام، إذ إننا كثيراً ما نسمع أن الأحلام تنشأ من المعدة. غير أننا لسوء الحظ نلتقي هنا أيضاً بحالات كثيرة جداً لا يترك فيها المنبه الحشوي الذي كان يعمل في أثناء الليل، أي أثر في الصباح، وبذا لا تتسنى لنا البرهنة على وجوده. ومع هذا فلا نريد أن نغض عما يؤيده كثير من الخبرات الموثوق بها من أن الأحلام قد تشتق من منبهات حشوية، فمما لا نزاع فيه إجمالاً أن حالة الأعضاء الداخلية من شأنها أن تؤثر في الأحلام. وليس هناك سبيل إلى أن ننكر الصلة بين مضمون كثير من الأحلام وبين امتلاء المثانة أو تهيج الأعضاء التناسلية. وإلى جانب هذه الحالات الصريحة الواضحة، هناك أخرى

تجعلنا في حل من الظن بتأثير المنبه الحشوي في مضمون الحلم. ذلك أن هذا المضمون ينطوي على عناصر يمكن اعتبارها تصويراً أو تأويلاً أو تعديلاً لمنبه من هذا النوع. وقد كان «شرنرScherner» الذي اهتم كثيراً بموضوع الأحلام (١٨٦١) يؤكد بوجه خاص نشأة الأحلام من منبهات عضوية: وقد أفضي إلينا ببضعة أمثلة بديعة تعزز رأيه هذا. من تلك أنه رأى مرة «صفين من أولاد حسان لهم وجوه لطيفة وشعر أشقر، وقد واجه بعضهم بعضاً من موقف صراع يمسك فيه بعضهم برقاب بعض حيناً، ثم ينقضون حيناً ليعودا سيرتهم الأولى مرة أخرى». فكان أول تأويل عرض له، هو أن صفي الأولاد تصوير رمزي لصفي الأسنان. وقد تأكد له هذا التأويل. فقد رأى في نومه قبل هذا المنظر «أنه ينزع سناً كبيرة من فكه». كما أنه رأى مرة «دهاليز طويلة ملتفة ضيقة»، فأول هذا بمنبه انبعث من أمعائه، وهو تأويل سليم يستقيم مع مذهبه الذي يرى أن الحلم يعمل قبل كل شيء على تصوير العضو الذي يصدر منه التنبيه بأشياء متشابهة.

هكذا نرى أنه لا معدى عن التسليم بأن المنبهات الداخلية تقوم في الأحلام بنفس الدور الذي تقوم به المنبهات الخارجية، وإن كان تأويلها لا يسلم، لسوء الحظ، من نفس الاعتراضات ففي كثير جداً من الحالات، لا يكون التأويل بالمنبهات الداخلية أكيداً محققاً، أو مما يمكن البرهنة عليه. ثم إن الأحلام التي تدعو إلى الظن بأنها تعزى إلى منبهات داخلية ليست كل الأحلام بل طائفة معينة منها ليس غير. وأخيراً فالمنبهات الحشوية الداخلية لا تفسر من الأحلام إلا ما يقابل الاستجابة المباشرة للمنبه، ولا تعلمنا عن نشأة الأجزاء الأخرى من الحلم، شأنها في ذلك شأن المنبهات الخارجية ومع هذا فثمة خاصة للأحلام تبدو من دراسة هذه المنبهات، هي خاصة جديرة بالنظر. فالحلم لا يصور المنبه

كما هو عليه، بل يتناوله بالتحوير والتعديل أو يلمح إليه إلماحاً، أو يدرجه في إطار خاص وملابسات خاصة، أو يستبدل به شيئاً غيره، هذه ناحية من عملية صوغ الحلم، خليقة بأن نهتم بها، إذ من الممكن أن تهدينا وتقربنا من طبيعة الحلم وجوهره. ولتقريب هذا من الأذهان نقول: إن مجال إنتاج الفرد يكون أوسع وأشمل بالضرورة من أن تحدده الظروف التي تسلم إليه مباشرة، فقصة «مكبث» لشكسبير مثلاً، مأساة كتبت في ظرف خاص هو اعتلاء ملك كان أول من جمع بين تيجان ممالك ثلاث. لكن هل يستوعب هذا الظرف التاريخي كل مضمون المأساة، أو يفسر ما تنطوي عليه من فخامة وجلال، وما تشمل عليه من ألغاز ومعميات؟ فربما كانت المنبهات الداخلية والخارجية التي تؤثر في النائم شبيهة بهذا الأمر من بعض الوجوه، إذ تكون بمثابة الظرف الذي يستثير الحلم ليس غير، فلا تبصرنا بشيء عن طبيعته الحقة وجوهره.

أما الخاصة الأخرى التي تشترك فيها كل الأحلام، أعني خاصتها النفسية، فمما يصعب فهمها إلى حد كبير. هذا إلى أنها لا يمكن أن تكون نقطة ارتكاز لبحوث أخرى فيما يبدو. فالأحداث التي تصاغ منها الأحلام تبدو غالباً في شكل صور بصرية، فهل تستطيع المنبهات أن تفسر لنا هذه الظاهرة؟ وهل ما نخبره ونشعر به في الحلم هو المنبه حقاً، إذا كان الأمر كذلك، فلم يبدو الحلم في شكل صور بصرية، في حين أن المنبهات البصرية لا تستثير أحلاماً إلا في حالات نادرة غاية في الندرة؟ وإذا كان حلم من أحلامنا يدور على محادثة أو خطابة، فهل في وسعنا أن نثبت أن آذاننا كانت تقرعها في أثناء النوم أصوات أخرى تشبه الحديث؟ إني أبيح لنفسي أن أرفض هذا الغرض رفضاً باتاً من دون تردد.

لئن كانت الخصائص التي تشترك فيها الأحلام جميعاً قـد عجزت عن أن تكون لنا عوناً على تفسير الأحلام، فلعلنا نكون أسعـد حظاً إن التجأنا إلى أوجه الإختلاف التي تغرق بين بعضها البعض. إن الأحلام في أغلب أمرها غفل من المعنى. ملتبسة، متناقضة، لكن هناك أخرى. تكون واضحة معقولة وغير سخيفة. فلننظر في هذه الأحـلام الواضحـة المعقولة، فعساها أن تعيننـا على تفسير الأحـلام المتناقضـة السخيفة. وسأقص عليكم آخر حلم معقول روي لي وهو حلم لشاب من الشبان: «بينما كنت أسير في شارع (كارنتز إذ قابلت السيـد (س)) فسرت معـه خـطوات، ثم ذهبت بعدهـا إلى مطعم. فـإذا بسيـدتين ورجـل يقبلون فيجلسون إلى مائدتي، فضقت بهم أول الأمر، وأعـرضت عن أن انظر إليهم. لكن شخصت إليهم أخيـراً فـألقيتهم على جـانب كبيـر من الظرف». وقد علق الشاب على هذا بأنه كان يسير بالفعل، ليلة الحلم، في هـذا الشارع، فهـو الطريق الـذي اعتاد السيـر فيه، وأنـه التقى فيه بالسيد (س). أما الشطر الآخر من الحلم فلم يكن ذكرى مباشرة كشطره الأول، بل كان يشبه إلى حد حادثة وقعت له منذ عهـد مضى. وإليكم حلمـاً ساذجـاً آخر من النـوع نفسه قصتـه علي سيدة، فقـالت: سألني زوجي «ألا تظنين أن البيانو في حاجة إلى إصلاح كشد أوتاره؟» فأجبت: ليس من داع إلى هذا، فالمطارق في حاجة إلى أغطية جديدة من الجلد بـأية حـال «فهذا الحلم لم يكن إلا استعـادة لحديث جـرى بينهـا وبين زوجها في اليوم السابق للحلم، بألفاظ تكاد تكون هذه الألفاظ بذاتها». ترى ماذا نستطيع أن ننتفع به من هذين الحلمين الساذجين؟ لا شيء أكثر من أن هناك أحلاماً تتضمن ذكريات لأحداث من حياة الفرد الجارية، أو أشياء تتصل بها. ولا ريب أنها نتيجـة ذات وزن، لو أنهـا صحت على كـافة الأحـلام دون استثناء. لكن الـواقع غيـر هذا. فهـذه الخاصـة لا

تنسحب، هي الأخرى، إلا أقلية ضئيلة من الأحلام إذ أن أغلب الأحلام لا صلة بينها وبين مجريات حياة اليقظة. فها نحن أولاء لم نفد شيئاً من هذه الناحية يلقي بعض الضوء على الأحلام المتناقضة، والمجردة من المعنى. بل كل ما أفدناه أننا التقينا بمشكلة جديدة. فما نريد أن نعرفه الآن لا يقتصر على ما يقوله الحلم ويدل عليه. بل نريد فوق هذا أن نعرف لماذا أو لأية غاية، نعيد في الأحلام - متى كانت دلالتها واضحة كما في الحلمين السابقين - وقائع نعرفها وقد حدثت لنا منذ عهد قريب؟.

لا ريب أنكم مللتم، كما مللت، المضي في هذا النوع من البحث فهو لم يزد على أن يبين لنا أن الاهتمام بمشكلة ما، مهما كان دائباً موصولاً، لا يكفي لها إن لم تصاحبه فكرة عن اتجاه معين يجب السير فيه ابتغاء الوصول إلى ذلك الحل. ونحن لم نعثر على هذا الاتجاه حتى الآن. فعلم النفس التجريبي لا يزودنا إلا بمعلومات طفيفة - وإن تكن ذات قيمة في الحق - عن الدور الذي تقوم به المنبهات في استثارة الأحلام. أما الفلسفة فلا ننتظر منها شيئاً إلا نظرة متعالية ترى موضوعاتنا امتهاناً للبحث الفكري كما أننا لا نريد أن نستعير شيئاً من علوم السحر والنجامة. أما التاريخ وحكمة الشعوب فيخبران بأن الأحلام تحفل بالمعاني وأن لها أهمية، وأنها تنبىء بالغيب غير أن هذا مما يتعذر قبوله والبرهنة عليه من دون شك. وهكذا أخفق أول مجهود لنا، وكان برمته قاصراً عقيماً.

ووسط هذه الحيرة، يأتينا العون من ناحية لم نتوقعها قط ولم نتصد لها بعد. تلك هي اللغة الدارجة التي ليست، على التحقيق، من خلق المصادفة، بل مستودع تتبلور فيه المعارف القديمة وتتراكم، إن صح التعبير «وإن تكن منهلاً يجب ألا يستغل دون تحفظ واحتياط». أقول إن

هذه اللغة تعترف بوجود شيء تسميه «أحلام اليقظة». وهي تسمية تثير الدهشة حقاً. وأحلام اليقظة نوع من المتخيلات (صور خلق الخيال) وظواهر عامة مشاعة، تشاهد من الأسوياء وغير الأسوياء من الناس. كما أن كل فرد في مقدوره أن يدرسها بسهولة في نفسه، وأعجب ما في منتجات الخيال هذه أنها سميت «أحلام اليقظة»، في حين أنها لا تتسم في الواقع بأية خاصة من الخاصتين اللتين تشترك فيهما أحلام النوم. فإسمها ينقض أية صلة بينها وبين حالة النوم، هذا من ناحية، أما من ناحية الخاصة الثانية المشتركة بن الأحلام، فليس في أحلام اليقظة أوهام وهلاوس بل مجرد تصورات: فالفرد يعرف أنه يتصور ويتخيل وأنه لا يرى بل يفكر. وتظهر أحلام اليقظة قبل سن البلوغ، بل تبدو غالباً منذ الطفولة المتأخرة، ثم تختفي في سن النضج. أو تلازم الفرد طول حياته. أما محتوى هذه المتخيلات ومضمونه فتمليه وتهيمن عليه دوافع شفافة غاية في الشفوف. فما هي إلا مناظر وحوادث ترضي نزعات الفرد الأنانية إلى الطموح والسيطرة أو رغباته الشهوية. وتغلب المتخيلات التي تدور على الطموح، عند الشباب من الرجال. في حين تغلب المتخيلات الشهوية عند النساء ممن يركنون كل طموح لديهن في مغامرات الحب. على أن الرغبات الشهوية كثيراً ما تكون مختفية وراء الستار عند الشباب: فكل ما يقومون به من مغامرات وبطولة، لا يرمي في الواقع إلا إلى كسب رضا النساء وإعجابهن. وفيما عدا ذلك، فأحلام اليقظة على درجة كبيرة من التنوع والتفاوت كي تختلف مصائرها وتتباين، فمنها ما يذره الفرد بعد وقت قصير ليستبدل به غيره. ومنها ما يبقي ويحكم حتى تصاغ منه قصص طويلة توائم ظروف الحياة المتغيرة، فكأنها تساير الزمن، يدفعها الموقف الجديد بطابع يشير إلى أثره فيها. وأحلام اليقظة هي المادة الخام للإخراج الشعري. فالكاتب يأخذ في

تحويرها ونكيرهـا أو اختزالهـا حتى يخلق منها المـواقف التي يضمنهـا قصصه ورواياته أما البطل في حلم اليقظة فهو، الشخص الحالم نفسـه دائماً، يقوم بـدور البطل مبـاشرة أو بـأن يتقمص شخصية غيـره تقمصاً صريحاً.

ربما سميت أحلام اليقظة بأسمها هذا لأنهـا تشبه أحـلام النوم من حيث صلتها بالدافع، فجاء اسمها يشير إلى مضمونهـا لا يمكن اعتباره أكثر واقعية من مضمون أحلام النوم. غير أنه من الممكن أن يرجع هذا الاشتراك في التسمية إلى خاصة نفسية معينة للحلم لا نزال نجهلها وإن كنا نجد في أثرها. ومن ناحية أخرى. قد نكـون خاطئين إذ نقيم لهـذا الاشتراك في التسمية دلالة ووزناً. وتلك مسألة لا يمكن الإجابة عنها إلا فيما يلي:

الفصل السادس

فروض تمهيدية وخطة التأويل

رأينا مما تقدم أننا في حاجة إلى طريقة جديدة واتجاه محدد، إن كنا نريد أن نخطو ببحوثنا في الأحلام إلى الأمام. وأقترح عليكم بهذا الصدد إقتراحاً واضحاً بسيطاً، هو أن نسلم في كل ما يلي من بحوثنا بالغرض الآتي: هو أن الحلم ظاهرة نفسية وليست بدنية. تعرفون ما أعني بهذا، لكن ماذا يبرر قبولنا هذا الغرض؟ لا شيء. لكن ليس ثمة ما يمنعنا من قبوله أيضاً. وبذا يتلخص الموقف فيما يلي: إذا كان الحلم ظاهرة بدنية فهو لا يعنينا. ولا يمكن أن نهتم له إلا إذا سلمنا أنه ظاهرة نفسية. لذا فسنسلم بصحة هذا الغرض لنرى ما سوف يترتب على ذلك وستعين لنا نتائج بحثنا ما إذا كان يجب علينا أن نستمسك بهذا الغرض، وأن نتخذه بدوره نتيجة ظفرنا بها عن طريق سليم. ونتساءل الآن عن الهدف من بحثنا هذا، أو عن الغاية التي نوجه جهودنا إليها تحديداً. أما هدفنا فهدف كل علم، فنحن نريد أن نفسر الظواهر، وأن نربط بعضها ببعض، وأن نزيد آخر الأمر من سيطرتنا عليها ما وسعنا ذلك.

لذا سنمضي في بحثنا هذا على فرض أن الأحلام ظاهرة نفسية. والأحلام في هذا الغرض نشاط يصدر عن صاحب الحلم. ولكنه من نوع لا نفهمه ولا يعلمنا شيئاً. إفرضوا أن صدر مني الآن شيء لا تفهمونه، فماذا أنتم فاعلون؟ لا شك أنكم ستطلبون إلي تفسير ما أقول. فلم لا تفعل هذا مع صاحب الحلم فنسأله عن معنى حلمه ومغزاه؟

لعلكم تذكرون أننا التقينا بموقف شبيه بهذا من قبل. كان ذلك حين

كنا نحلل بعض الهفوات، وكنا بصدد فلتة من فلتات اللسان. إذ قال بعض الناس «عندئذ انكشرت أمور كثيرة» فسألناه، لا ـلحسن الحظ لم نكن نحن الذين سألوا، بل أناس آخرون لا صلة لهم بالتحليل النفسي ـ فهم سألوه عما يعني بهذه العبارة غير المفهومة. فأجاب من فوره أنه كان يقصد إلى أن يقول: «إنها أمور منكرة»، لكنه أمسك لسانه وضبط نفسه، فترتب على هذا الصراع بين القصدين أن نطق بهذه اللفظة الغريبة. وقد ذكرت لكم إذ ذاك أن هذا التحري نموذج لكل بحث تحليلي نفسي، فلعلكم تدركون أن خطة التحليل النفسي تحاول ما استطاعت أن تدع المحلل نفسه يجيب عن مشاكله الخاصة. إذن فعلى صاحب الحلم نفسه أن يؤول حلمه.

غير أن الأمر ليس بهذه الدرجة من البساطة في حالة الأحلام. فقد أفلحت هذه الطريقة في حالات كثيرة من الهفوات، وفي حالات أخرى كنا نسأل الشخص فيها فيرفض أن يقول شيئاً، بل ويتبرأ حانقاً من الجواب الذي نكاشفه به، أما في الأحلام فالأمر على غير هذا إطلاقاً، إذ يجيب الحالم أبداً بأنه لا يعرف شيئاً، كما أنه لا يستطيع أن ينكر تأويلنا، فليس لدينا تأويل نعرضه عليه. أينبغي لنا إذن أن نقلع عن محاولتنا هذه؟ إن الحالم لا يعرف شيئاً، ونحن لا نعرف شيئاً، وأي شخص ثالث ليس في وسعه، يقيناً، أن يعرف شيئاً، فأنى لنا إذن أن نعرف شيئاً؟. لئن شئتم أن تذروا هذه المحاولة فذروها، أو فاتبعوني، فإني أؤكد لكم أنه من الممكن جداً، بل من المرجح إلى حد كبير أن الحالم يعرف معنى حلمه حقاً، غير أنه لا يعرف أنه يعرف، ومن هنا يعتقد أنه لا يعرف.

أكبر الظن أنكم ستوجهون نظري إلى أني أصوغ فرضاً جديداً هو

الثاني، في فترة قصيرة، منذ بدأنا دراسة الأحلام، وأنني بهذا أغض إلى حد كبير من قيمة طريقتي في البحث وأباعد بينها وبين الوثوق بها، فقد كان الغرض الأول: أنهم يعرفونها: أن الحلم ظاهرة نفسية. وها هو ذا الثاني يقول: إن عقول الناس تحتضن أشياء معينة يعرفونها دون أن يعرفوا وهلم جراً. وربما قلتم: حسبك أن يقر في ذهنك أن كلا الغرضين بعيد الإحتمال كل البعد حتى تعرض الإعراض كله عن النتائج التي يمكن أن تستخلص منهما.

نعم. لكن لم أدعكم إلى الحضور هنا لأخدعكم أو لأخفي شيئاً عنكم. الحق أنني أعلنت أني سألقي سلسلة محاضرات عنوانها «محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي». غير أني لم أكن أقصد بهذا قط أن أقوم بدور العراف، أسرد عليكم طائفة من الوقائع تتعاقب في سهولة ويسر. في حين أخفي الصعوبات وأسد الثغرات. وأحجب الشكوك والمظنات، حتى تعتقدوا وتطمئنوا إلى أنكم تعلمتم شيئاً جديداً. لا، فأنتم مبتدئون، وهذا بعينه ما حملني على أن أعرض عليكم علمنا هذا على ما هو عليه. وبكل ما فيه من فضولة ومجاجة وركاكة وإدعاء، وبكل ما قد يستثير من أوجه للنقد. وأعرف حقاً أن الأمر بالمثل في كل علم من العلوم، وأنه لا يمكن أن يكون غير هذا. خاصة في مبتدأ العلم، كما أعرف أيضاً أن في تعليم العلوم الأخرى، تبذل الجهود في أول الأمر لإخفاء ما فيها من صعوبات ونواحي ضعف. غير أن هذا لا يمكن الأخذ به في تعليم التحليل النفسي لذا صغت فرضين يتضمن أحدهما الآخر فمن رأى منكم في هذا أمراً شاقاً أكثر مما يجب، أو مشتبهاً أكثر مما يجب، أو من ألف منكم ألا يرتاح إلا إلى الدرجات العليا من التأكد واليقين، أو إلى أكثر الإستنتاجات صقلاً وتهذيباً،

فليست به حاجة إلى أن يمضي معي إلى أبعد من هذا. على أنه ينبغي لي أن أنصح لأمثال هؤلاء أن يذروا المسائل السيكولوجية كافة، خشية ألا يجدوا في هذا المجال تلك السبل المحققة المضبوطة التي هيئوا للسير فيها. يضاف إلى هذا أن أي علم يهدف إلى أن يفضي بشيء حقيقي إلى المعرفة. لا ينبغي له أن يلتمس أنصاراً ومستمعين. فنتائجه هي التي يجب أن تتحدث بلسانه. وإنه لقادر على أن ينتظر حتى تكون هذه النتائج قد قسرت الناس على الإنتباه إليها قسراً.

غير أني أحب أن أحذر من يرون البقاء معي، من أن الفرضين اللذين قدمتهما، لا يستويان أهمية ووزناً. فأما أولهما، وهو أن الأحلام ظاهرة نفسية، فهو الفرض الذي آمل أن أبرهن عليه بنتائج بحثنا هذا. وأما الآخر، فقد سبق البرهان عليه في ميدان غير هذا. ولست إلا مطلقاً لنفسي الحرية في استعارته لحل ما يهمنا من المسائل هنا.

في أي ميدان، وأين الدليل على أن الإنسان قد تنطوي نفسه على معرفة دون أن يعرف عنها شيئاً. وهو ما يفترض في حالة الحالم لو صح هذا لكان من دون شك أمراً عجيباً يبهر ويروع، ولكان من شأنه أن يغير نظرتنا إلى الحياة النفسية تفسيراً تاماً، ولكان في حاجة إلى أن يظهر فلا يظل خافياً مخفياً. هذا إلى أنه يكون واقعة تعبر عن شيء واقعي، مع ما بين طرفيها من تضارب وتناقض. والواقع أن ليست هناك أية محاولة لإخفاء هذه الواقعة فنحن لا نستطيع أن نلوم واقعة لأن الناس تجهلها، أو لا تهتم بها، كما أننا لا نستطيع أن نلوم أنفسنا لأن كل هذه المسائل السيكولوجية قد حكم عليها قوم أعرضوا عن الملاحظات والتجارب مع أنها وحدها الفيصل الحاسم في هذا الموضوع.

إن الدليل الذي نتحدث عنه، وقع بالفعل في مجال النوم

المغنـاطيسي ففي عـام ١٨٨٩، وكنت أختلف إلى تلك الـجلسـات الإيضـاحية الـرائعة التي كـان يرأسهـا «ليـوبـول Liebault» و«بـرنهـايم Bernheim» بمدينة نانس (بفرنسا). فشهدت التجربة الآتية: نوم رجل إلى درجة التجوال النومي ثم أوحي إليه وهو في هذه الحالة بأنواع شتى من الأوهـام والهلاوس. فلمـا استيقظ كان يبـدو، باديء الأمـر، أنه لا يعـرف البتة شيئـاً مما حـدث في أثناء نـومه المغنـاطيسي. ولما سـألـه «برنهايم» أن يقص عليه ما حدث في أثناء نومه، صرح الرجـل بأنـه لا يستطيع أن يتذكر شيئاً. غير أن الأستاذ ألح عليه وأكد له أنه يعرف، وأنه لو أجهد نفسه قليلاً لاستطاع أن يتذكر كل ما حدث. عندئذ رأينا الرجل قد أخذ يتردد وشرع يستجمع أفكاره، ثم استرجع أول الأمر، كأنـه في حلم، إحدى الحوادث التي أوحي إليه بها، وبعدها تذكر شيئـاً آخر ثم أخذ تذكره يطرد واضحاً مستكملاً، حتى ظهـر آخر الأمـر غفلاً من أيـة فجوة فيه. فيما أن الرجل قد تسنى له أخيراً أن يعرف كل شيء دون أن يخبـره بـه أحـد، فنحن في حـل من أن نستنتـج أن هـذه الـذكـريـات والحوادث كانت في نفسه من أول الأمر، حتى قبل أن يدفع إلى التذكر دفعاً، غير أنها كانت ممتنعة عليه، فلم يكن يعـرف أنه يعـرفها، وكـان يعتقد أنه لا يعرفها. والحق أن هذه الحالة شبيهة كل الشبه بما نفترضه لدى الحالم.

لا ريب أنكم دهشتم أني قدمت الدليل على هذه الواقعة. وإذا بكم تسـألون: «ولم لم تشـر إلى هذا الـدليل من قبـل، يوم كنـا نبحث في الهفوات، وجئنا على ذكر رجل تورط في فلتة لسان، فأسندنا إليه مقاصد تستتر وراء كلامه. لم يكن يعرف عنها شيئاً، وكان ينكرها؟ فإذا كان من الممكن أن يعتقد الإنسان بأنه لا يعرف شيئاً عن أحداث يحمل ذكراها

في نفسه. فمما لا يبعد احتماله البتة أن تجرى في نفسه عمليات أخرى لا يعرف عنها شيئاً كذلك، أنك لو كنت فعلت هذا الأثر لثبت في نفوسنا من دون شك، ولأتاح فهم الهفوات. لا ريب أني كنت أستطيع أن أورد هذا الدليل في ذلك الحين. غير أني احتفظت به لفرصة أخرى تبدو فيها الحاجة أمس إليه. الواقع أن بعض الهفوات كانت تفسر نفسها بنفسها وأن بعضها الآخر كان يوحي إلينا بأنه يجدر بنا ـ لكي نفهم الإرتباط بين الظواهر ـ أن نفترض وجود عمليات نفسية يجهلها المرء جهلاً تاماً. أما في الأحلام، فنحن مضطرون إلى البحث عن تفاسير في مكان آخر، هذا إلى أنني قدرت أنكم تكونون أكثر استعداداً لتشبيهها بالنوم المغنطيسي، والتدليل عليها من مجاله. ذلك أن الحالة التي ترتكب فيها الهفوة، لا بد أن تبدو لكم حالة سوية عادية ليست بينها وبين حالة النوم المغناطيسي شبه البتة. أما حالة الحلم فعلى عكس تلك، إذ هناك تشابه واضح كل الوضوح بين حالة النوم المغناطيسي وحالة النوم الطبيعي التي هيُ الشرط الأساسي لحدوث الأحلام. والواقع أننا نسمي النوم المغناطيسي بالنوم الإصطناعي، ونقول للشخص الذي نريد أن ننومه «نم!» كما أن الإيحاءات التي نبثها في نفسه، يمكن أن تقارن بأحلام النوم الطبيعي. فالموقف النفسي متشابه حقاً في الحالتين، ذلك أننا في النوم الطبيعي نعرض عن العالم الخارجي بأسره ونصد عن كل اهتمام به، والأمر بالمثل في النوم المغناطيسي باستثناء شخص واحد هو الشخص الذي نومنا والذي نظل متصلين به: وفضلاً عن هذا، فما يسمى نوم المراضع ـ ونعني به نوم المرضع بحيث تظل متصلة بالرضيع فلا يوقظها شيء آخر غيره ـ ما هو إلا نظير سوي للنوم المغناطيسي. ومن هنا يبدو أن ليس من الإجتراء والتهور أن نستعير للنوم الطبيعي شيئاً مما يتسم به النوم المغناطيسي. وعلى هذا فالفرض الذي يقول إن

صاحب الحلم يعرف حلمه بعض المعرفة، وإن هذه المعرفة حريزة ممتنعة عليه، ليس بالفرض الذي يقوم على غير أساس وهكذا ينفتح أمامنا طريق ثالث لدراسة الأحلام: فقد استطعنا أن نعالجها من طريق المنبهات التي تقلق النوم، ومن طريق أحلام اليقظة، وها نحن أولاً نستطيع أن نتناولها من طريق الأحلام التي توحى في أثناء النوم المغناطيسي.

ربما نستطيع أن نعود الآن إلى بحثنا بثقة أكبر من ذي قبل. فقد رأينا أنه من الراجح أن يعرف الحالم شيئاً عن حلمه، وبقي أمامنا أن نعرف كيف نمكنه من إدراك هذه المعرفة ونقلها إلينا. نحن لا ننتظر منه أن يخبرنا على الفور بمعنى حلمه، بل نريد أن نعينه على الكشف عن أصله، لنعرف من أية مجموعة من الأفكار والإهتمامات اشتق هذا الحلم. ولعلكم تذكرون ذلك الرجل الذي زلّ لسانه فذكر كلمة «انكشرت» بدلاً من «انكشفت». لقد سئل كيف حدثت له هذه الفلتة. فكان في أول خاطر طرأ على ذهنه، تفسير لحدوث الفلتة. والخطة التي نسير عليها في حالة الأحلام بسيطة جداً، وقد صيغت على غرار هذا المثال. فنحن نسأل الحالم كيف تسنى له أن رأى حلمه هذا؟ ونعتبر جوابه الأول تفسيراً. ومن ثم فسواء لدينا اعتقد الحالم بأنه يعرف شيئاً عن حلمه، أو بأنه لا يعرف، ونعالج الحالتين على حد سواء.

هذه خطة على جانب كبير من البساطة على وجه التحقيق. غير أني أخشى أن تستثير منكم معارضة عنيفة. فربما تقولون: «فرض آخر. هو ثالث الفروض وأبعدها احتمالاً! أتسأل صاحب الحلم عما يتذكره بصدد حلمه. ونعتبر أول خاطر يعن له تفسيراً؟ من المحقق أنه قد لا يتذكر شيئاً على الإطلاق، أو قد يتذكر أشياء لا يعلم مداها إلا الله. إننا في الحق

لا نستطيع أن نتصور الأساس الذي أقمت عليه مـا نتوقعـه من صاحب الحلم. وما ذاك في الواقع إلا دليل على ثقة مسرفة بالأقدار، في حالة خليقة أن تعالج بروح النقد. ثم إن الحلم لا يمكن أن يقارن بفلتة لسان واحدة. فهو مكون من عدة عنـاصر. فعلى أي خـاطر في هـذه الحالـة نعتمد؟».

أنتم على حق في كل ما اعترضتم من اعتراضـات ثانـوية لا تمس الصميم. فالواقع أن الحلم يختلف عن فلتة اللسان من حيث كثرة عناصره ومن نواح أخرى، ولا معدل عن مراعاة هذا في الخطة التي نسير عليها. لذا أقترح أن يفكك الحلم إلى عناصره المختلفة وأن يفحص كل عنصر على حدة. وبذا نكون قد أعدنا التشابه بينه وبين فلتة اللسان. كما أنكم على حق كذلك إذ تقولون إن الحالم متى سئل عن عناصر حلمه فرادى، فقد يجيب بأنه لا يتذكـر شيئاً منهـا. وهذا جـواب نقبله ونفيد منـه في حالات سنعرض لها فيما بعد. ومن الغريب حقاً أن هذه الحالات بعينها هي التي يتسنى لنا أنفسنا أن نكون عنها فكرة محددة. بيد أننا بوجه عام لا نترك الحالم وشأنه متى صرح لنا بأن ليست لديه فكرة ما، بل نعارضه في هذا ونلح عليه أن يجيب، ونؤكد له أنه لا بد أن تكون لديـه فكرة، فنجد آخر الأمر أننا على حق في المعارضة والإلحاح، إذ تراه يقدم لنا خـاطراً عنّ لـه، لا يهمنا أي خـاطر يكـون ـ ولا يعـز عليـه أن يـزودنـا بمعلومات، لنسميها(المعلومات التاريخية). فقد يقول مثلاً: هذا شيء حدث أمس (كما في الحلمين الساذجين اللذين ذكرناهما من قبل)، أو يقول: «هذا يذكرني بشيء حدث منذ عهد قريب». فإذا مضينا على هذا النحو، رأينا أن الحلم يـرتبط بانـطباعـات تأثـر بها الشخص في الأيـام الأخيرة التي سبقت الحلم ارتباطاً أوثق مما كنا نظن من قبل. وأخيراً قد

يستطيع الحالم، إن اتخذ الحلم نقطة إبتداء، أن يتذكر حوادث وقعت له في عهد أبعد من هذا. بل قد يصل إلى أحداث ترجع إلى عهد جديد بعيد.

أما اعتراضاتكم التي تمس أشياء جوهرية أساسية فلستم على حق فيها فأنتم مخطئون إن ظننتم أنه من التعسف أن نفترض أن أول خاطر يعرض للحالم لا بد أن يزودنا بما نبحث عنه، أو أن يرشدنا إليه بحال، كما أنكم تخطئون إذا تقولون إنه قد يكون من أكبر الظن خاطراً أياً كان، ولا صلة بينه وبين ما نبحث عنه إطلاقاً. فإن توقعت غير ذاك، فهذا شاهد على ثقة عمياء بالأقدار. لقد سبق أن أبحت لنفسي أن أؤاخذكم على اعتقادكم الراسخ في حرية الإختيار النفسية، وذكرت لكم أنه اعتقاد غير علمي صريح، لا بد أن يلاشى إزاء حتمية تهيمن حتى على الحياة النفسية. لذا أرجو أن تحترموا حقيقة واقعة، فحواها إن خاطراً معيناً واحداً، دون غيره، يبرر لصاحب الحلم حين يستجوب عن حلمه. ولست أعني بقولي هذا أن أضرب اعتقاداً بآخر. إذاً من الممكن أن نبرهن على أن هذا الخاطر لم يصدرمن الشخص عن اختيار، ولم يعرض له عفواً، وأنه غير منقطع الصلة بما نبحث عنه. والواقع أنني علمت منذ عهد قريب ـ دون أن أعلق على ما علمت أهمية كبيرة ـ أن علم النفس التجريبي قد جاء بأدلة من هذا النوع.

ولما كانت هذه الواقعة على درجة بالغة من الأهمية، فأرجو أن تعيروها التفاتاً خاصاً. فحين أطلب إلى أحد أن يذكر لي ما يطرأ على ذهنه عن عنصر معين من حلمه، أدعوه إلى أن يستسلم لعملية (التداعي الطليق) التي تبدأ من فكرة أو خاطر أصلي يكون في ذهنه. وهي تتطلب توجيهاً خاصاً للإنتباه، يختلف بل ويتنافى مع ما يحدث في حالة التأمل

الباطني. وقد يشق هـذا التوجيـه على بعض الناس حتى ليعجـزوا عنه عجزاً بالغاً، في حين لا يجد فيه آخرون صعوبة ما. وثمة ضرب آخر من التداعي على درجة أكبر من الحريـة، فلا يبـدأ الشخص فيه من فكـرة معينة تستثير سلسلة من المعاني والخواطر، بل أكتفي بأن أذكر لـه نوع التداعي الذي أريد وجنسه، كأن أطلب إليه مثلاً أن يذكر لي إسم علم أو عدداً أياً كان فرُبّ قائل يقول إن الحرية والإختيار في هـذا الضرب من التداعي أكبر منهما في التداعي الذي نصطنعه في خطتنا. غير أنـه من الممكن أن نبين أن هذا التداعي تحتمه في كل حالة، إتجاهات نفسية هامة حتماً صارماً. وهي اتجاهات لا تفطن إليهـا في اللحظة التي تؤثـر فينـا، مثلها في ذلـك مثـل النـزعـات الـدخيلة التي تسبب الهفـوات، والنزعات التي تنجم عنها ما تسمى بالأفعال «الإتفاقية» وليدة المصادفة.

وقد أجريت ـ كما أجرى كثير بعدي ـ تجارب (نشر بعضهـا) على الأسماء والأعداد التي تنبعث من ذهن الفرد، دون أن يستثيرهـا مثير أو فكرة خاصة تكون نقطة البدء. وكانت الطريقـة كالآتي: تستثـار سلسلة من المستدعيات (الأفكار والخواطر) حول الإسم الذي يطرأ على ذهن الشخص المفحوص، فلا تكون عندئـذ حرة حـرية مـطلقة، بـل يرتبط بعضها ببعض كالأفكار التي تستثار بصدد عناصر الحلم، ثم نمضي في التداعي حتى تستنفذ جميع الخواطـر. إذا ما انتهت التجـربة، خـرجنا بتفسير يعرفنا بالـدواعي التي أشرقت على التـداعي طليق بصدد الإسم المعين، ويعيننـا على فهم دلالة هـذا الإسم وأهميتـه للشخص الـذي تجرى عليه التجربة. وقد كانت نتـائج هـذه التجارب المتكـررة واحدة على الـدوام وزودتنا بمعلومـات تنطوي غـالباً على مـادة وفيرة وتقتضي استقصاءها والبحث في شعبهـا المختلفة. أمـا التداعي بصـدد الأعداد

التي تنبعث تلقائياً فربما كان أكثر أنواع التداعي بياناً وإيضاحاً: إذ تتتابع المستدعيات فيه سراعاً، تسعى من تأكد ووثوق نحو هدف خاف حتى ليذهل الإنسان حقاً من تداركها على هذا المنوال. وسأضرب لكم مثالاً واحداً لحالة من حالات التحليل الذي يدور على الأسماء، اخترته لأنه لا يتضمن معالجة مواد كثيرة.

كنت أتحدث ذات يوم في هذا الموضوع إلى أحد الشبان ممن كنت أعالجهم فذكرت له أنه على الرغم من حريتنا الظاهرية في الإختيار، فمن المحال أن يطرأ على ذهن الإنسان إسم ما، دون أن يكون متحتماً، في الواقع، تحتماً دقيقاً بالظروف المباشرة للشخص وبمزاجه الخاص وبموقفه في تلك اللحظة فلما رأيته يتشكك في الأمر ويرتاب فيه دعوته أن يقوم بتجربة من هذا النوع، ونحن ما نزال في مجلسنا، وكنت أعرف أنه زير نساء، فظننت أني طلبت إليه أن يذكر لي إسم امرأة لأضحى في حيرة أيتهن يختار. ولشر ما كانت دهشته هو، أنه لم يهم بفيض من أسماء النساء، بل ارتج عليه لحظة، ثم صرح بأن الإسم الوحيد الذي خطر بباله دون غيره هو Albire فقلت له: «عجباً! وما يقترن في ذهنك بهذا الإسم؟ وكم تعرف من نساء إسمهن Albire؟ ومن العجيب حقاً أنه لم يكن يعرف امرأة واحدة بهذا الإسم، ولم يجد في ذهنه شيئاً يرتبط به. فقد تظنون أن التحليل قد أخفق وفشل. لكن لا، فهو قد انتهى فقط، ولم تعد بنا حاجة إلى خواطر ومستدعيات جديدة: إن هذا الشاب كان أشقر على جانب كبير من الشقرة، وكثيراً ما كنت أداعبه في أثناء التحليل فأسميه Albiro، تلك «المرأة» التي كان يهتم بها من دون غيرها في ذلك الحين.

والأمر بالمثل في الألحان التي تثب إلى رؤسنا على حين بغتة ودون

سبب ظـاهر. إذ يتضـح من التحليل أنهـا مشـروطـة بسلسلة معينـة من الخواطر تشغل بال المرء لسبب ما، دون أن يعرف عنها شيئاً. ولا يشق علينا أن نبين أن انبعاث اللحن ـ اللاإرادي في ظاهره ـ يرتبط إما بألفاظه ونصه، وإما بالأصل الذي جاء منه، غير أني يجب أن أتحفظ فلا يجب أن أتحفظ فلا أستمسك برأيي هذا بصدد ذوي المواهب الموسيقية، فلم تتفق لي بهم خبرة. ويبدو أن قيمة اللحن الموسيقية تعلل إنبعاثه الفجائي في الشعور لديهم. ومن المحقق أن حـالات الفريق الأول أكثـر تواتـراً وذيوعاً: أعرف شاباً أمضى مدة من الزمن يحاصره حصاراً مطبقاً، لحن (لا شـك أنه بـديع) هـو لحن أغنية بـاريس في أوبريت «هيلين تـرواده Helen of Troy» حتى كشف له التحليل في يوم من الأيام، أن صـراعاً كان يدور في نفسـه، في ذلك الحين، بين من تـدعى «ايدا Ida» ومن تدعى «هيلين».

فإذا كانت المستدعيات، التي تنبعث حرة دون قسر ودون مجهود، مشروطة منحتمة على هذا النحو، وتنتمي إلى ملابسات معينة محددة، فنحن في حل، على التحقيق، من أن نستنتج أن المستدعيات المرتبطة بفكرة واحدة ـ هي الفكـرة الإبتدائيـة المثيرة ـ لا بـد أن تكون منحتمـة كذلك انحتاماً دقيقاً. والواقع أن التحليل يرينا أن هذه المستدعيـات لا ترتبط فقط بالفكرة الأولى المثيرة، بل إنها مرهونة أيضاً بمجموعات من أفكار وميول ذات شحنة وجدانية قوية (أو عقد، كما نسميها) لا نعـرف شيئاً عن تأثيرها في اللحظة التي تؤثر فيها، وبعبارة أخرى أنها مـرهونـة بنشاط لا شعوري.

لقد كانت أمثال هذه المستدعيات موضوع تجارب زودتنا بالكثير من المعلومات وقامت بدور ملحوظ في تاريخ التحليل النفسي. فقد بدأت

مدرسة «فنت» ما أسمته «تجارب التداعي»: فيها يطلب إلى الشخص المفحوص أن يستجيب بأسرع ما يمكنه، وبأية كلمة تخطر على باله، بكلمة معينة تسمى «كلمة الشبيه» "Stimulus Word" وعلى المجرب أن يلاحظ في أثناء التجربة أشياء كثيرة منها الفترة الزمنية بين التنبيه والإستجابة، وطبيعة الكلمة التي يستجيب بها الشخص والأخطاء التي يقع فيها إذا أعيدت التجربة نفسها مرة أخرى، إلى غير تلك. وقد استطاعت مدرسة زيوخ برياسة «بلولر» و«يونج» أن تفسر الإستجابات التي تصدر من المفحوص خلال هذه التجارب، بأن تتناول المستدعيات التي تبدو غريبة تستلفت النظر فنطلب إلى الشخص أن يجعلها نفسها مثاراً لمستدعيات إضافية أخرى، وبذا يلقى عليها بعض الضوء، وتصبح أكثر صراحة ووضوحاً. وقد اتضح من هذا أن الاستجابات الغريبة غير المعتادة كانت مشروطة منحتمة انحتاماً صارماً بالعقد النفسية التي يكابدها من تجرى عليه التجربة، وبهذا الكشف أقام «بلولر» و«يونج» أول جسر يصل بين علم النفس التجريبي والتحليل النفسي.

أراكم تقولون بعد أن سمعتم هذا: «نعترف الآن بأن المستدعيات الحرة خواطر وأفكار منحتمة مقررة وليست وليدة الإختيار كما كنا نظن. كما نعترف بهذا أيضاً فيما يتعلق بالمستدعيات التي تتصل بعناصر الحلم. لكن ليس هذا ما يهمنا ويعنينا. فأنت تزعم أن المستدعيات التي يجلبها كل عنصر من عناصر الحلم، تحتمها بطانة نفسية خاصة بها، لكنها بطانة لا نعرف عنها شيئاً. ولا نستطيع أن نرى أي شاهد على هذا ونحن ننتظر بطبيعة الحال أن ترينا أن المستدعيات التي يجرها عنصر الحلم مشروطة بإحدى العقد النفسية لصاحب الحلم، لكن ماذا نفيد من هذا؟ إنه بدل أن يعيننا على فهم الحلم، لا يعدو أن يزودنا

ببعض المعرفة عما يسمى بالعقد، شأنه في ذلك شأن إختبارات التداعي. لكن ما صلة هذه العقد بالأحلام؟».

أنتم على حق في هذا، وإن فاتكم شيء هام، هو بعينه ما منعني أن أتخذ تجربة التداعي نقطة البدء في هذه المناقشة. ففي هذه المناقشة، وفي هذه التجارب، نحن الذين نختار «كلمة التنبيه» كما نريد، وهي الشيء الوحيد الذي تجرى عليه التجربة. أما في الحلم فيستعاض عن كلمة التنبيه بشيء يشتق من الحياة النفسية للحالم، من مصادر لا يعرفها، فأكبر الظن أن يكون هذا الشيء نفسه «مشتقاً من عقدة نفسية». لذا فليس من الإسراف أن نفترض أن المستدعيات التالية المرتبطة بعناصر الحلم لا تحتمها عقدة أخرى غير التي أحدثت هذا العنصر بعينه، وأنها تعيننا على الكشف عن تلك العقدة.

واسمحوا لي أن أسوق إليكم مثالاً آخر قد يتضح منه أن الوقائع تعزز ما نرتقبه في حالة الأحلام. إن نسيان أسماء الأعلام يتضمن عمليات هي نموذج بديع لما يحدث في تحليل الحلم، إلا أنها في حالة النسيان تكون مجتمعة في شخص واحد، على حين تكون موزعة بين شخصين في تأويل الحلم ـ فحين أنسى إسماً من أسماء الأعلام نسياناً مؤقتاً، فأنا ما أزال أوقن أني أعرف ذلك الإسم ـ ومثل هذا اليقين لا يمكن أن نظفر به في حالة الحلم إلا بطريقة غير مباشرة، كتجربة «برنهايم Bernheim». غير أن هذا الإسم الذي أنسيته، والذي ما أزال أعرفه مع نسيانه، يفر مني فلا أستطيع إدراكه، وعبثاً أحاول إقتناصه مهما بذلت من فكر ومجهود ـ هذا ما تدلنا عليه التجارب ومع هذا ففي وسعي أن أستحضر، في كل مرة أحاول فيها إسترجاع الإسم المنسي، إسماً آخر أو عدة أسماء بدلاً منه. ومتى وثب الإسم البديل إلى ذهني من تلقاء

نفسه، أصبح التشابه بين موقفي هذا وموقف تحليل الحلم واضحاً جلياً. كذلك الحال في عنصر الحلم، فهو ليس ما أبحث عنه بالفعل، إن هو إلا بديل شيء آخر، بديل عن الشيء الحقيقي الذي لا أعـرفه والـذي أحاول الكشف عنه بتحليل الحلم. والفارق الوحيد بين الموقفين هو أني حين أنسى إسمـاً فأنـا أعلم علم اليقين أن الإسم البديـل ليس بالإسم الحقيقي، في حين أنه في حالة الحلم لا نظفر بهذا اليقين إلا بعد بحث شاق طويل ثم أن لدينا طريقة يتسنى لنا بها أن نصل إلى الإسم المنسي، الهارب من الذهن، إن ابتدأنا من الأسماء البديلة، ذلك أنني إن ركزت انتباهي في تلك الأسماء البديلة وتركتها تستدعي أفكاراً وخواطر أخرى، إستطعت أن أظفر بالإسم المنسي بعد محـاولات تطول أو تقصـر. فإن فعلت هذا، رأيت أن الأسماء البديلة التي انبعثت من تلقاء نفسها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ومنحتمة بالإسم المنسي.

وإليكم مثالاً لهذا النـوع من التحليل: وجـدت نفسي ذات يوم لا أستطيع أن أذكر إسم ذلك القطر الصغير الواقع على ساحل الـريفييرا، الذي تدعى عاصمته (مونت كارلو). وقد ضقت بهذا النسيان، لكن مـا بيدي؟ عندئذ جعلت أستعرض كل ما أعرف عن هذا القطر، ففكرت في الأميـر (ألبرت) من بيت لـوسينيان Lusignan، وفي زيجـاته، وإغـرامه بتجـواب أعماق البحـار وفي كل مـا يتصل بهـذا القطر ـ لكن في غيـر جدوى.

فوقفت تفكيري في هذه الناحية، وأسلمته لأسماء بديلة. فسـرعان ما انبعثت في ذهني أسماء كثيرة: مونت كارلو نفسها Monte Carlo ثم بيدمونت Piedmonte ألبانيا، مونت فيديو Montevideo كولكو Colico. وقد كان إسم ألبانيا أول ما استرعى إنتبـاهي، لكنه مـا لبث أن استبدل

«بمونت نجرو Montenegro» (لما بين الأبيض والأسود من تباين)
إذاك لاحظت أن أربعة من الأسماء البديلة تشترك في مقطع واحد هو «مونت» فتذكرت من فوري الاسم المنسي، وهتفت «موناكو» Monaco . وهكذا كانت الاسماء البديلة مشتقة في الواقع من الاسم المنسي. فقد جاءت الأربعة الأولى من مقطعه الأول، وجاء الإسم الأخير يمثل تتابع المقاطع فيه والمقطع الأخير كله. وقد استطعت في الوقت عينه أن أعرف السبب الذي أنساني إسم هذا القطر مؤقتاً. فمناكو هي الإسم الإيطالي لكلمة «ميونخ» الألمانية. وكان لي بهذا البلد ذكريات هي ما منعني أن أتذكره.

لا شك في أن هذا مثال بديع، لكن جد بسيط فنحن نضطر في حالات أخرى، أن نترك العنان لسلاسل أطول في المستدعيات تجتذبها الأسماء البديلة. في تلك الحالات يتضح وجه الشبه بما يحدث في تأويل الأحلام، ولدي أمثلة خبرتها بنفسي عن هذا النوع أيضا. فقد دعاني ذات مرة شخص أجنبي لأشرب معه شيئاً من النبيذ الإيطالي كانت له به ذكريات سارة، فلما وردنا المشرب ألفيته نسي أسم النبيذ الذي دعاني إليه، فأخذ يسرد طائفة من أسماء بديلة، أستطيع أن أستنتج منها أن ما أنساه إسم النبيذ، هو ارتباطه بشخص إسمه «هدفج Hedweig» . فلما كاشفته بالأمر، أكد لي أنه شرب هذا النبيذ لأول مرة مع سيدة تدعى هدفج، بل أتاح له هذا الكشف أن يقع على الإسم المنشود. لقد كان الرجل، يوم التقينا، متزوجاً سعيداً في زواجه، وكانت صلاته بهدفج ترجع إلى أيام خلت لا يود ذكراها.

إن ما أمكننا عمله في حالة الأسماء المنسية، لا بد أن يكون ممكناً كذلك في تأويل الأحلام: ذلك أن نبدأ من الشيء البديل حتى نصل إلى

الشيء الحقيقي الذي ننشره عن طريق سلسلة من المستدعيات. كما يجب أن نسلم ـ قياساً على ما يحدث في نسيان الأسماء ـ بأن المستدعيات التي يستحضرها عنصر الحلم، لا يحتمها هذا العنصر وحده فقط بل وتحتمها أيضاً الفكرة الحقيقية التي لا توجد في الشعور. ولئن صح فرضنا هذا، كان فيه بعض التبرير للخطة التي نسير عليها.

الفصل السابع

المحتوى الظاهر والأفكار الكامنة

رأيتم أن دراستنا للهفوات لم تكن عقيمة غير مثمرة. فبفضل الجهود التي بذلناها في هذه الدراسة، ظفرنا بنتيجتين إبتداء من الفروض التي تعرفونها: هما فهم لطبيعة عنصر الحلم، وخطة لتأويل الأحلام أما فيما يتصل بعنصر الحلم فقد رأينا أنه ليس بطبيعته شيئاً أولياً أساسياً، ليس فكرة أصيلة، بل هو بديل عن شيء آخر يجهله الحالم - كما تجهل المقاصد المستترة وراء هفواتنا - وبديل عن شيء يعيه الحالم، لكن تمتنع عليه معرفته. ونأمل أن نكون قادرين على بسط هذه الفكرة حتى تشمل الحلم بأسره، بوصفه مجموعة من العناصر. أما خطتنا فتتلخص في أن نتخذ هذه العناصر أساساً لتداع حر طليق، نستدرج به إلى الشعور أفكاراً وخواطر بديلة. نستطيع بها أن نحدس الأشياء الكامنة الخبيئة.

وأقترح عليكم الآن أن نستبدل بالمصطلحات التي ألفناها أخرى تكون أكثر طواعية ومرونة. فبدل أن نستعمل كلمة خفي أو ممتنع أو أصيل سنصطنع أوصافاً أدق منها، فنقول ممتنع على شعور الحالم أو لا شعوري. ولا نعني بهذا أكثر مما كنا نعنيه في حالة الكلمة المنسية، أو القصد المستتر وراء الهفوة أي أن كليهمالا شعوري بصورة مؤقتة. وعلى هذا تكون عناصر الحلم ذاتها وتلك الأفكار البديلة التي نظفر بها عن طريق عملية التداعي، عناصر وأفكاراً شعورية. ولنذكر أن هذه التسمية لا تنطوي بعد على أي تضمين نظري. فلا ضير علينا أن نستعمل كلمة

لا شعوري على أنها وصف مناسب من السهل فهمه.

فإذا أبسطنا وجهة نظرنا هذه من عناصر الحلم فرادى إلى الحلم في جملته، خرجنا بأن الحلم في جملته بديل محرف عن شيء آخر، عن شيء لا شعوري، وأن تأويل الحلم يهدف إلى الكشف عن هذه الأفكار اللاشعورية. ومن هنا نستخلص ثلاث قواعد هامة لا بد من ملاحظتها عند تأويل الأحلام.

١ ـ لا ينبغي لنا أن نهتم بالمعنى السطحي للحلم، واضحاً كان أو ملتبساً، متناقضاً كان أو غير متناقض. فهو لا يحتوي على الأفكار اللاشعورية التي نبحث عنها بحال (وسنرى فيما بعد أن هذه القاعدة لا تسري على إطلاقها).

٢ ـ يجب أن يقتصر عملنا على استدعاء أفكار بديلة عن كل عنصر من عناصر الحلم، دون أن نفكر أو نبحث لنعرف ما إذا كانت هذه البدائل تنطوي على شيء يناسب العنصر أو ينطبق عليه، ودون أن نشغل أنفسنا لنعرف إلى أي حد تباعد بيننا وبين العنصر.

٣ ـ يجب أن ننتظر حتي تنبعث الأفكار اللاشعورية الخافية التي نبحث عنها من تلقاء نفسها كما كانت الحال في كلمة «مناكو» المنسية في المثال الذي سبقت الإشارة إليه.

وعسى أن نكون قد فهمنا الآن أن مقدار ما نتذكره من أحلامنا، وخاصة مبلغ ما هو عليه من دقة وصدق، ليسا مما يؤبه له في شيء. فالحلم كما نتذكره ليس الشيء الحقيقي الذي نبحث عنه بل بديل محرف له تستدعى به أفكار بديلة أخرى، فيتيح لنا أن نقترب من لب الحلم وفكرته الحقيقية، وأن نستدرج الأفكار المستسرة في الحلم من

اللاشعور إلى الشعور. فإذا كانت ذكرانا الحلم خاطئة غير صحيحة، فكل ما هنالك أن البديل قد أصابه تحريف آخر، وهذا التحريف نفسه لا يمكن أن يحدث من غير دافع.

وكما أننا نستطيع أن نؤول أحلام غيرنا من الناس كذلك نستطيع أن نؤول أحلامنا نحن. والحق أننا نعلم من تأويل أحلامنا أكثر مما نتعلمه من تأويل أحلام الغير، لأن عملية التأويل في الحالة الأولى تكون أكثر بياناً وإقناعاً. فإذا حاولنا هذا التأويل، لاحظنا أننا نرتطم بقوة داخلية تعرقل سير التأويل، صحيح أن الأفكار والخواطر تنبعث متداعية، لكننا لا نقبلها جميعاً، فنحن مدفوعون إلى أن ننقدها وإلى أن نختار منها، إذ نقول لأنفسنا بصدد خاطر منها: «هذا لا يتناسب، أو لا يتعلق بالموضوع» أو بصدد خاطر آخر: «هذا سخيف متناقض» وبصدد خاطر ثالث: «هذه ناحية ثانوية جداً». ولا يشق علينا أن ندرك أن أمثال هذه الاعتراضات تعوق المستدعيات، بل قد تكفها بالفعل آخر الأمر قبل أن تتضح وتبين. وهكذا نجد أنفسنا نميل من جهة إلى الاستمساك الوثيق بالفكرة الأصلية، أي عنصر الحلم نفسه، كما نجد أنفسنا من جهة أخرى، نفسر عملية التداعي الطليق بانحيازنا وانتقائنا. فإذا لم نقم بتأويل أحلامنا بأنفسنا، وتركنا ذلك لغيرنا تدخل دافع آخر. يحملنا على هذا الانتقاء غير الجائز. إذ قد نقول لأنفسنا أحياناً «لا، هذه فكرة كريهة أكثر مما ينبغي، فلا أريد أو لا أستطيع أن أذكرها له».

يتضح من هذا أن أمثال هذه الاعتراضات من شأنها أن تحول دون نجاح عملية التأويل لذا يجب أن نأخذ حذرنا منها ونحن نؤول أحلامنا الخاصة، بأن نعزم عزماً أكيداً على ألا نستسلم لها استسلاماً. كما يجب أن نحتاط لها ونحن نؤول أحلام شخص آخر، فنفرض عليه قاعدة يجب

ألا يحيد عنها: هي ألا يمسك أي خاطر يعنّ له، فيمتنع عن الجهد به إن بدا له خاطر منافر مستكره لا يحسن الجهد به. فإن وعد بأن يمتثل لهذه القاعدة، فلا يضيق صدرنا به إن رأيناه قد عجز عن أن يستمسك بوعده فيما بعد. وقد يخيل إلينا، بادىء الرأي، أن تخليه يرجع عن وعده لعدم إقتناعه بما في عملية التداعي الطليق من فائدة، على الرغم من تأكيدنا الحازم له أن في نتائج هذه العملية ما يبرر القيام بها. وربما ظننا بعد ذلك أننا نستطيع أن نستميله ونجتذبه إلى نظريتنا بأن نعطيه كتباً يقرؤها، أو نوصيه بمحاضرات يختلف إليها. فإن فعلنا كنا خاطئين. وحسبنا ـ لكن لا نجشم أنفسنا أمثال هذا العمل ـ أن نعرف أننا أنفسنا لسنا بمنجاة ـ على الرغم من اعتقادنا واقتناعنا بما نقول ونوصي ـ من أن يكون موقفنا حيال بعض المستدعيات موقف نقد وانحياز وانتقاء وأننا لا نستطيع أن نظهر على هذا الموقف إلا فيما بعد. على أننا نستطيع بدل أن نضيق بعصيان الحالم، أن نستغل هذه الظاهرة لعلنا نظفر منها بأشياء جديدة، قد تكون أكثر أهمية ووزناً كلما بعدت عما نتوقع. من هذه الأشياء أن عملية التأويل تعرضها مقاومة تفصح عن نفسها تحديداً بتلك الإعتراضات النقدية التي نتكلم عنها، وهي مقاومة لا صلة لها بما لدى الشخص من اقتناع نظري. وفي وسعنا أن نعرف أكثر من هذا، إذ تدلنا الخبرة على أن هذه الاعتراضات ليس لها ما يبررها إطلاقاً، بل الأمر على عكس هذا، فقد وجدنا أن الأفكار والخواطر التي يريد الإنسان أن يقمعها بهذه الصورة تكون أبداً ودون إستثناء أهم الأفكار والخواطر، وأنها الحاسمة في الكشف عن اللاشعور فإذا ما اقترنت فكرة باعتراض من هذا النوع، كانت خليقة بالتفات خاص.

إن هذه المقاومة شيء جديد لم يكن في الحسبان، وظاهرة لم تكن

ضمن الفروض التي فرضناها من مبدأ الأمر، بل اكتشفناها في أثناء البحث. والواقع أن هذا العامل الجديد الذي دخل في حسابنا مفاجأة لا يمكن أن توصف بأنها سارة، إذ إننا نشك في أنه سيكون عوناً لنا على تيسير علمنا. بل إنه يكاد يميل بنا إلى أن نترك كل ما بذلناه من جهد في حل مشكلة الأحلام. أليس عجباً أن نتناول موضوعاً غير ذي وزن كبير، كالأحلام، فتعترضنا في معالجته صعوبات فنية كبيرة كتلك التي نراها! لكن من يدري فربما، كانت هذه الصعوبات من نوع يستحثنا على البحث، ويريناأن عملنا هذا حقيق بما يتطلبه من جهود. الحق أننا نلتقي أبداً بمقاومات كثيرة كلما حاولنا أن ننفذ إلى الفكرة اللاشعورية الخبيئة، من البديل الذي يزودنا به عنصر الحلم. لذا يحل لنا أن نفترض أن هناك شيئاً هاماً ذا دلالة يختفي وراء البديل. ذلك أن الأمر إن لم يكن كذلك، فلم نلتق بأمثال هذه الصعوبات التي تعمل على الاحتفاظ بالشيء الخبيء في مخبئه؟ إن الطفل متى أصر على ألا يفتح قبضة يده ليظهر ما فيها، فأكبر الظن أنها تخفي شيئاً لا ينبغي له أن يكون في حوزته.

أما وقد أدخلنا في موضوعنا تلك النظرة الديناميكية للمقاومة فلا بد، أن نذكر أن هذا العامل الجديد عامل متغير من حيث الكم. فالمقاومة قد تكون كبيرة أو قليلة، وعلينا أن نوطن أنفسنا خلال بحوثنا وتأويلنا على أننا سنلقي بمقاومات مختلفة متباينة. وربما نستطيع أن نربط بهذه الواقعة خبرة أخرى تعرض لنا أيضاً في عملية تأويل الأحلام، ففي أحوال معينة قد تكفي بضع مستدعيات ـ ربما لا تزيد على واحدة ـ لتؤدي بنا من عنصر الحلم إلى الفكرة اللاشعورية المتسترة وراءه. وفي أحوال أخرى يقتضي الوصول إلى هذه النتيجة سلاسل طويلة من المستدعيات، والتغلب على كثير من الاعتراضات النقدية. وأكبر الظن

أن عدد المستدعيات اللازمة يختلف باختلاف قوة المقاومة. هذا هو الراجح. فإذا كانت المقاومة طفيفة، لم تكن الشقة بعيدة بين البديل، والفكرة اللاشعورية، أما المقاومة الشريرة فيترتب عليها تحريفات بالغة في الفكرة اللاشعورية من شأنها أن تباعد ما بين البديل وبطانته اللاشعورية.

قد يكون هذا ظرفاً مواتياً، لنختار حلماً فنجرب فيه خطتنا، لنرى أيتحقق ما نقول فيها وما نرتقبه منها؟ ولا إخالكم تعلمون ما ينطوي عليه هذا الاختيار من صعوبات لا أستطيع أن أبينها لكم. فمن الواضح أن هناك أحلاماً لا يصبها في جملتها تحريف كبير. وقد ترون أنه من الخير أن نبدأ بها. لكن أي الأحلام أقلها تحريفاً؟ أهي الأحلام المعقولة غير الملتبسة، كتلك الأحلام الساذجة التي قدمت لكم مثالين منها؟ لو سلمنا بهذا لكان فيه خطر جسيم، إذ يرينا التحليل أن هذه الأحلام قد أصابها تحريف على جانب كبير من الشطط والإسراف. فإن لم أتطلب في الحلم الذي أريده شرطاً خاصاً، ووضعت يدي على أول حلم يتفق لي، فمن المحتمل أن أخلف ظنكم إلى حد كبير. إذ قد يتعين علينا أن نلاحظ وأن نسجل قدراً ضخماً من الخواطر والأفكار التي تستدعيها عناصره فرادى، بحيث يستحيل علينا أن نأخذ فكرة واضحة عما نريده في جملته. ذلك أننا لو سجلنا الحلم ووازناه بكل ما يستدعيه من أفكار وخواطر، فأكبر الظن أن نتجاوز هذه المستدعيات لكثرتها أضعاف النص الأصلي للحلم. لذا يبدو أن الطريق العملي هو أن نختار للتحليل عدة أحلام. قصيرة يستطيع كل واحد منها أن يعطينا فكرة معينة على الأقل أو أن يؤيد لنا إفتراضاً معيناً. وهذا هو الطريق الذي عولت على السير فيه، إلا إذا أشارت علينا التجربة والخبرة أنه ينبغي لنا أن نبحث عن أحلام لا تكون محرفة تحريفاً كبيراً.

على أن في وسعي أن أقترح وسيلة أخرى لتسهيل الأمور، وهي وسيلة في متناولنا مباشرة. تلك أننا نستطيع، بدل أن نؤول أحلاماً بأكملها. أن نقتصر على عناصر منعزلة منها، نجمع طائفة منها لنرى كيف يمكن تفسيرها حين نطبق عليها خطتنا.

أ ـ روت سيدة أنها كانت تحلم كثيراً وهي طفلة «أن الرب يضع قبعة مريبة من الورق على رأسه» ـ كيف السبيل إلى فهم هذا دون معونة من صاحبة الحلم نفسها، ألا يبدو هذا العنصر سخفاً وعبثاً بالغين؟ غير أن هذا السخف يختفي حين تقول لنا السيدة إن أهلها كانوا يلبسونها، وهي صغيرة، قبعة من هذا النوع، حين تجلس إلى مائدة الطعام، لأنها كانت لاتني تنظر ذات اليمين وذات الشمال لترى هل أصاب إخوتها وأخواتها من الطعام أكثر مما أصابها أي أن القبعة كان يقصد بها أن تكون عمامة لعينيها. وأذكر بهذا الصدد أن السيدة روت هذه «المعلومات التاريخية» دون صعوبة أو عناء. وقد أمكن تأويل هذا العنصر، وبالتالي تأويل الحلم بأسره. بفضل لقيا أخرى وقعت عليها السيدة: «بما أني كنت أسمع أن الرب يعلم كل شيء ويرى كل شيء، فحلمي هذا لا يمكن إلا أن يعني شيئاً واحداً، هو أني أعلم وأرى كل شيء كالرب، حتى حاولوا أن يمنعوني من هذا» ـ غير أن هذا المثال ربما كان أبسط مما يلزم.

ب ـ روت لي سيدة من المرضى المتشككات حلماً أطول من هذا رأت فيه بعض الناس يذكرون لها كتابي عن النكات «Wits» فيثنون عليه ثناء كبيراً ثم عرض لها شيء «يتعلق بقناة، ربما كان كتاباً آخر ذكرت فيه كلمة قناة Canal أو شيئاً آخر يتصل بالقناة.. إنها لا تعرف.. فقد كانت نقطة غامضة كل الغموض».

من المحقق أنكم تميلون إلى أن تفترضوا أن القناة في الحلم عنصر يتحدى التأويل لغموضه. وأنتم على حق إذ تتوقعون هذه الصعوبة. لكن الصعوبة لا تترتب على الغموض، بل الأمر على خلاف هذا. فصعوبة التأويل ترجع إلى شيء آخر، إلى نفس الشيء الذي جعل العنصر غامضاً. وقد عجزت السيدة عن أن تستدعي أية ذكرى تتصل بكلمة «قناة» ولم أستطع أنا الآخر بطبيعة الحال أن أقول شيئاً. وفي اليوم التالي لهذا تحديداً، عنّ لها خاطر ربما تكون له صلة بهذا العنصر من حلمها، ويتلخص في نكتة سمعتها: فحواها أن كاتباً معروفاً كان يتجاذب أطراف الحديث مع رجل إنجليزي وهما على ظهر باخرة تبحر بين كاليه ودوفر. فذكر الإنجليزي في حديثه العبارة الآتية: «ليس بين الشيء الرفيع الجليل والشيء التافه السخيف إلا خطوة واحدة» (خطوة= Pas بالفرنسية) فأجابه الكاتب «نعم، هي خطوة كاليه Pas de-calais» يعني بذلك أن فرنسا هي الشيء الرفيع، وأن إنجلترة هي الشيء السخيف. وخطوة كاليه هذه قناة ـ هي قناة المانش أو ما تسمى مضيق المانش. رُبَّ قائل يقول: «هل ترى صلة أياً كانت هذه الصلة بين ذلك الخاطر وبين الحلم؟» أرى ذلك على وجه التحقيق. فهذا الخاطر قد زودنا بالمعنى الحقيقي لذلك العنصر المحير من الحلم. أما تميلون إلى الشك في وقوع هذه الغمزة قبل الحلم، وفي أنها الفكرة اللاشعورية للعنصر «قناة» فتصرون على أنها مجرد إختلاف لفق بعد الحلم؟ إن هذا الخاطر يشهد بما لدى السيدة من تشكك وارتياب يستتر وراء إعجابها الدخيل بالنكتة، ومن ثم نشأت مقاومة لا ريب في أنها كانت السبب في بطء ورود الخاطر، وفي غموض العنصر المقابل له، بهذه الدرجة. ولنلاحظ ما بين عنصر الحلم وبطانته اللاشعورية من صلة فكأن العنصر في هذه الحالة جزء صغير من هذه البطانة أو كأنه إشارة إليها. فإذا فصل

عن تلك البطانة وعزل عنها أصبح مستغلقاً يستعصى على الفهم.

جـ ـ قص علي أحـد مرضـاي حلماً طـويلاً بعض الـطول منه «أن أفراداً كثيرين من أسرته كانوا يجلسون إلى مائدة ذات شكل خاص. . . إلخ» فذكرته هذه المائدة (عند التأويل) بأنه رأى مائدة تشبهها حين كان يزور أسرة معينة. ثم تتابعت خواطره على النحو الآتي: لم تكن الصلة بين الأب وإبنه في الأسرة التي زارها صلة ود بل صلة إعراض وجفاء. وسرعان ما أضاف أن صلته بأبيه شبيهة في الحق بتلك الصلة. من أجل هذا أدمجت المائدة في الحلم للإشارة إلى هذا التشابه.

لقد كان صاحب هذا الحلم ملماً منذ زمن طويل بما يتصله تأويـل الأحلام، يتضح هذا من اهتمامـه بذكـر تفصيل طفيف في حلمـه، هو شكل المائدة.

والواقع أننا نعتقد أن الأحلام لا يمكن أن تحتوي إطلاقاً على شيء من خلق المصادفة، أو على شيء لا يؤبه له ويهتم بـه. كما نعتقـد أن مناقشة التفاصيل التافهة، وتمحيص التفاصيل التي يبدو (من الظاهر) أن ليس من ورائها دافع، هو ما يعيننـا تحديـداً على الوصـول إلى النتائـج والمعلومات التي تهمنا. وربمـا تدهشـون من أمر هـذا الحلم إذ يختار المائدة ليعبر عن الفكرة الآتية: «الصلة بيننا كالصلة بينهما»: غير أن هذا يمكن تفسيـره متى عرفتم أن لقب الأسـرة المشار إليهـا هو «Tischler» (Tisch = المائدة بالألمانية» فهذا الحالم حين جعل أفراد أسرته يجلسون إلى هذه المائدة، كان يعني بذلك أن حالهم حال أسرة Fischler ونذكر بهذا الصدد شيئاً آخر لعلكم قد لاحظتموه: هو أننا، في تأويل الأحلام، مضطرون أحياناً إلى هتك الحجب وإفشاء بعض الأسرار. وهذه إحدى الصعوبات التي ألمحت إليها حين كنت أتكلم عن اختيار أمثلة للأحلام

لقد كنت أستطيع أن أسوق إليكم مثالاً آخر غير هذا، لكن أكبر الظن ألا يعفيني هذا مما أخشاه إلا ليوقعني في آخر غيره.

وأرى الظرف مواتياً لأقدم لكم إصطلاحين جديدين كنا نستطيع استخدامهما من قبل: سنسمي الحلم كما يرويه الحالم «المحتوى الظاهر للحلم» وسنسمي المعنى الخبيء الذي نظفر به عن طريق التداعي «الأفكار الكامنة للحلم» فعلينا الآن أن نأخذ في فحص الصلات بين المحتوى الظاهر والأفكار الكامنة، كما تبدو في الأمثلة السابقة ثمة أنواع كثيرة من هذه الصلات، فالعنصر الظاهر في المثالين (أ) و(ب) هو أيضاً جزء قائم بذاته من الأفكار الكامنة، ولكنه لا يعدو أن يكون جزءاً منها فقط أو هو نتفة صغيرة من بناء نفسي كبير مركب من الأفكار اللاشعورية للحلم، تطرقت إلى الحلم الظاهر ونفذت فيه، فبدت جزءاً منه. وقد تبدو في حالات أخرى كأنها إشارة أو تلميح أو كأنها تعبير رمزي أو اصطلاح تلغرافي من مختزل. ومهمة التأويل أن يكمل هذا الجزء أو أن يستجلي هذا التلميح كما وفقنا إلى ذلك في المثال (ب) وعلى هذا فمن الطرق التي تصطنعها عملية تحريف الحلم، الإستعاضة عن الشيء بجزء منه أو بتلميح إليه. وفي المثال (د) نلمح فوق هذا صلة أخرى ممكنة بين المحتوى الظاهر والأفكار الكامنة، وهي صلة تبدو أكثر وضوحاً وتميزاً في الأمثلة التالية.

د ـ رأى الحالم «أنه ينتشل سيدة يعرفها من حفرة وقعت فيها» وقد وجد الحالم بنفسه معنى هذا العنصر من حلمه، عن طريق أول خاطر عرض له: فكان معناه أنه «يعمل على أن ينتشل هذه السيدة من ضلال توشك أن تتردى فيه».

هـ ـ رأى رجل «أن أخاه يسير في الطريق وقد أمسك بصندوق من حديد». وكان أول خاطر عنّ له، أن يستبدل بكلمة «صندوق» «خزانة نقود» أما الخاطر الثاني فسرعان ما أسلم إلى تأويل الحلم: ذلك أن أخاه قد أمسك على نفسه في تلك الأيام.

و ـ رأى الحالم أنه «قد صعد جبلاً، وأخذ يكشف ما حواليه من أرض منفسحة بعيدة» ـ هذه قطعة من حلم تبدو طبيعية معقولة، فليست بها حاجة إلى تأويل، إلا أن تكون معرفة الذكرى التي تتصل بها والداعي الذي استثارها. غير أن هذا بعيد! فهي في حاجة إلى التأويل كغيرها من قطع الأحلام المعقدة الملتبسة. والواقع أن صاحب الحلم لم يتسنى له أن يتذكر شيئاً يتصل بصعوده الجبال، بل خطر له أحد أصحابه ممن ينتظمون في سلك الكشافة ويقومون برحلات إلى أقطار نائية. ومن ثم فالفكرة الكامنة لهذه القطعة من الحلم تتلخص في أن صاحب الحلم قد تقمص شخصية «كشاف» (وهذه الكلمة بمعناها الحرفي تشير إلى من يرقى ربوة من الأرض فيجعل بصره فيما حوله من مناظر).

هنا نلتقي بطراز آخر من طرز العلاقات بين العنصر الظاهر والعنصر الكامن للحلم. فالعنصر الظاهر ليس تحريفاً للعنصر الكامن بقدر ما هو تصوير له، فهو صورة عيانية لدنة له تنشأ من جرس اللفظ. والحق أن الأمر لا يعدو أن يكون تحريفاً في هذه الحالة أيضاً، لأننا حين ننطق بلفظة ما، نكون قد نسينا منذ أمد بعيد الصورة العيانية التي نشأت اللفظة منها أصلاً بحيث لا نعود نتعرف اللفظة حين يستعاض عنها بالصورة. فإذا عرفنا أن الحلم الظاهر يصاغ، في الغالبية العظمى من الأحوال، في صور بصرية، ولا يتألف من أفكار وألفاظ إلا في القليل النادر، لم يشق علينا أن ندرك ما لهذا الطراز في العلاقات من دلالة وأهمية خاصة في

بناء الحلم وتكوينه، ورأينا كذلك أنه من الممكن بهذه الطريقة أن نخلق سلسلة طويلة من الأفكار المجردة صوراً بديلة في الحلم الظاهر من شأنها إخفاء الأفكار الكامنة والتمويه عليها. هذه هي الكيفية التي تصاغ بها تلك الصور الملغزة التي يراها النائم. أما وجه الشبه بين هذا الطراز من التصوير وبين النكات فمسألة أخرى ليس هذا مكانها.

وثمة طراز رابع من العلاقات بين العنصر الظاهر والعنصر الكامن للحلم، سأرجيء الحديث عنه حتى ينكشف لكم من تلقاء نفسه خلال ما نبسطه من خطتنا في التأويل. وأود أن أشير إلى أن هذه الطرز لا تستنفد كل العلاقات الممكنة، لكن ما لدينا منها يكفي لما نحتاج إليه.

ترى ألدينا الآن من الشجاعة ما يتيح لنا تأويل حلم بأكمله؟ فلنحاول هذا لنرى إلى أي حد نستطيع أن نقوم بهذا العمل. ولن أختار لهذا الأمر، بطبيعة الحال، حلماً يكون من أكثرها غموضاً واستغلاقاً، بل حلماً يظهر الخصائص البارزة للأحلام بشكل واضح:

قصت علي سيدة شابة تزوجت من أعوام عدة: «أنها ألقت نفسها في مسرح مع زوجها، وقد خلا شطر من المقاعد التحتانية في القاعدة خلواً تاماً. وقد أخبرها زوجها أن «إليز» Elise وخطيبها كانا يريدان الحضور إلى المسرح أيضاً، غير أنهما لم يجدا إلا مقاعد لا تليق بهما (فقد كان أجر الثلاثة منها كروناً ونصف كرون) فلم يرضيا بها بطبيعة الحال. فأجابته بأنهما لم يفهما شيئاً كثيراً من جراء هذا».

لقد كان أول شيء طالعتنا به هذه السيدة، أن في المحتوى الظاهر لحلمها هذا إشارة إلى الظرف الذي استثار الحلم: فقد أخبرها زوجها بالفعل أن «إليز» - إحدى معارفها اللائي يقاربنها في السن، قد عقدت

قرانها، فكان الحلم إستجابة لهذا النبأ. ونحن نعرف من قبل أنه لا يشق علينا، في كثير من الأحلام، أن نشير إلى ظرف كهذا وقع في اليوم السابق للحلم، وأن صاحب الحلم يرى هذه الصلة غالباً في غير عناء.
ثم أدلت لنا السيدة بمعلومات أخرى، من النوع نفسه، عن عناصر أخرى في الحلم الظاهر. أما ذلك العنصر من الحلم الذي يتلخص في «خلو شطر من المقاعد التحتانية خلواً تاماً»، فقد قالت عنه إنه تلميح وإشارة إلى واقعة حقيقية حدثت لها في الأسبوع الذي سبق الحلم، حين عزمت على مشاهدة رواية معينة، فذهبت تحجز المقاعد قبل يوم العرض بوقت طويل، كان أطول مما يجب، حتى اضطرت إلى أن تدفع أجراً إضافياً عن هذا التبكير. فلما ذهبت إلى المسرح مع زوجها، رأت أنه لم يكن ثمة داع لهذا التبكير في حجز المقاعد، فقد كان شطر من المقاعد التحتانية، يكاد يكون خالياً بأكمله. ولو أنها احتجزت المقاعد في يوم العرض نفسه، لما خسرت شيئاً، ولما تعرضت لسخرية زوجها من تعجلها الزائد.. ثم تأتي بعد هذا مسألة «الكرون ونصف الكرون»: ترى ما مصدر هذا العنصر؟. لقد ردته صاحبة الحلم إلى ملابسات أخرى لا صلة بينها وبين الملابسات السابقة، وإن كان يتصل، هو الآخر، بأخبار سمعتها في اليوم السابق لحلمها: تلك أن أخت زوجها، قدم لها زوجها هدية ١٥٠ كروناً، فما إن تسلمت هذا المبلغ حتى أسرعت متعجلة في حمق ورعونة فاشترت به جميعاً قطعة المجوهرات... وما أمر العدد «٣» في هذا الحلم «ثلاثة مقاعد»؟ إنها لم تعرف عنه شيئاً، إلا أن يكون خاطراً نجم عن تداع: فقد كانت الفتاة المخطوبة «إليز» تصغرها بثلاثة أشهر فقط، في حين أن صاحبة الحلم متزوجة منذ عشر سنين... وكيف لنا أن نفسر ذلك السخف الذي يبدو في حجز ثلاثة مقاعد لشخصين إثنين؟ لم تستطع السيدة أن تقول عن

هذا شيئاً، ثم رفضت أن تدلي بأية معلومات أو ذكريات أخرى.

على أن هذا القدر القليل من الخواطر والذكريات التي أفضت بـه إلينـا، فيه مـا يكفي كل الكفـاية للكشف عن الأفكـار الكامنـة في هذا الحلم. ومما يستلفت النظر بوجه خاص، أن أقوالهـا تشير في مـواضع كثيرة منها إلى «شيء» يبدو كأنه رباط مشترك بين الأجزاء المختلفـة من أقوالها. «هذا الشيء» يدور حول الزمن. لقد فكرت في حجز المقاعد قبل عرض الرواية بوقت طويل كما احتجزتها بالفعل متعجلة فيها، حتى اضطرت إلى أن تدفـع أجراً إضـافياً وقـد سخر زوجهـا من هذه العجلة الزائدة. كذلك أسرعت أخت زوجها متعجلة فاشترت بما لها قطعة من مجوهرات، كـأنها كـانت تخشى أن تفوتهـا هذه القـطعة. فلو ربـطنا قولها بوقت طويل وقولهـا متعجلة ـ وقد نـطقت بهما في قـوة وتوكيـد ـ بـالظرف الـذي استثار الحلم (وهـو ذلـك النبأ الـذي حمـل إليهـا أن صديقتها التي تصغرها بثلاثة أشهر، قد وجدت آخر الأمـر زوجا طيبـا) وربطنا هذا أيضاً بذلك النقد اللاذع الذي وجهته إلى أخت زوجهـا إذا أسرعت متعجلة في نزق ورعونة فاشترت قطعة المجـوهرات. لـو فعلنا ذلك، لانكشفت لنا الأفكار الكامنة للحلم من تلقاء نفسها ولبان لنـا أن الحلم الظاهر ليس إلا بديلاً محـرفاً عنهـا مسرفـاً في التحريف فتكـون الأفكار الكامنة كما يلي:

«لقـد كنت رعناء حقـاً إذ تعجلت في زواجي! وها هي ذي «إليـز» تثبت لي أني كنت أستطيع أن أنتظر أو أجد زواجـاً فيما بعـد» (التعجل ممثل هنا في تبكيرها بحجز المقاعد، وفي اندفاع أخت زوجها، لشراء المجوهرات أما ذهابها وزوجها إلى المسرح فبديـل عن الزواج). هـذه هي الفكرة الرئيسية وفي وسعنا أن نمضي في التأويل إلى أبعد من هذا،

لكنه لا يكون تأويلاً يقينياً كما كان من قبل، لأن التحليل لا يكون مستنداً حينئذٍ إلى أقوال صاحبة الحلم وذكرياتها. وهذا ما لا ينبغي له. من ذلك نفترض أن سريرتها تنطوي على الفكرة الآتية: «وكنت أستطيع أن أحصل بنفس النقود على زوج خير من هذا مائة مرة!» (١٥٠ كروناً تساوي مائة مرة ١٥ كروناً). فلو استبدلنا كلمة البائنة بكلمة النقود، لكان معنى هذه العبارة أن الزوج يشتري بالبائنة: فتكون قطعة المجوهرات والمقاعد غير اللائقة في المسرح رموزاً إلى الزوج. والأجدر بنا أن ننظر فيما إذا كانت هناك رابطة بين العنصر «ثلاثة مقاعد» وبين الزوج. غير أن ما لدينا من معلومات لا تبيح لنا الذهاب إلى هذا الحد. فكل ما وجدناه إذن هو أن الحلم يعبر عن امتهان الزوجة لزوجها وعن أسفها على التعجل في زواجها.

على أني أرى أن نتيجة هذه المحاولة الأولى لتأويل حلم، لا ترضي نفوسنا بقدر ما تزيدنا حيرة واستغراباً. ذلك أننا نجد أنفسنا بصدد أفكار عدة تفرض نفسها علينا في آن واحد، مما يجعلنا في حيرة من أمرها. وها نحن أولاً نرى أننا لا نستوعب كل ما يمكن أن ينشكف عنه هذا التأويل من معلومات فلنسارع إذن إلى إفراد تلك النقاط التي يمكن أن تسفر لنا عن معلومات جديدة محققة عن هذا الموضوع.

فأول ما نلاحظ، أن الأفكار الكامنة للحلم تؤكد عنصر «التعجل» توكيداً بارزاً، في حين لا نجد لهذه السمة بذاتها أثراً في المحتوى الظاهر ولو أننا لم نقم بالتحليل، ما اشتبهنا قط في وجودها وقيامها بدور أياً كان نوعه. ومن ثم فمن الممكن، فيما يبدو، ألا تظهر النقطة الرئيسة التي تدور عليها بذاتها الأفكار اللاشعورية وألا تبدو في الحلم الظاهر أصلاً. وهذا من شأنه أن يغير الفكرة التي نأخذها عن الحلم في جملته

تغييراً أساسياً. الأمر الثاني: أننا نجد في الحلم مقاربات سخيفة متناقضة (ثلاثة مقاعد لشخصين) كما تكشف في أفكار الحلم عن المعنى الآتي: «لقد كنت رعناء (إذ تعجلت في زواجي) فهل نستطيع أن ننكر إنكاراً باتاً أن هذا المعنى قد صور في الحلم الظاهر بإدخال عنصر سخيف فيه؟. الأمر الثالث: هو أن العلاقة بين العناصر الظاهرة والكامنة كما يتضح من الموازنة بينها، ليست علاقة بسيطة. والمحقق أنها ليست علاقة من النوع الذي يستبدل فيه العنصر الظاهر دائماً بعنصر كامن، بل من نوع مركب، بحيث إن العنصر الظاهر قد يمثل عدة عناصر كامنة، وأن العنصر الكامن قد تحل محله عدة عناصر ظاهرة».

أما معنى الحلم وموقف السيدة منه. فينطوي كذلك على أشياء تثير الدهش حقاً. فقد سلمت من دون ريب بالتأويل الذي كاشفناها به، لكنها ارتاعت له. ذلك أنها لم تكن تفطن إلى أنها تحمل لزوجها في أعماق نفسها مثل هذا الامتهان والإستصغار بل إنها لم تكن تعرف ما يحملها على الغض من شأنه إلى هذا الحد. فثمة إذن نواح كثيرة غير مفهومة في هذا الحلم. وأعتقد حقاً أننا لم نهيأ بعد تهيئة كافية لتأويل الأحلام، وأن بنا حاجة إلى أن نعد لأنفسنا معلومات وإرشادات أخرى حتى يتسنى لنا القيام بمثل هذا العمل.

الفصل الثامن

أحلام الأطفال

يلوح لنا أننا سرنا بخطى أسرع مما يجب، فلنعد إذن بضع خطوات إلى الوراء. لقد قلنا ـ قبل أن نقوم بمحاولتنا الأخيرة التي عملنا فيها على أن نقهر الصعوبات الناجمة عن تحريف الحلم، بفضل خطتنا في التأويل ـ إن من الخير أن نظهر على هذه الصعوبات، بأن نقصر إهتمامنا على الأحلام التي تكون غفلاً من التحريف، أو تلك التي لا يصيبها التحريف إلا بقدر طفيف جداً (على فرض أن يكون هناك مثل هذه الأحلام). والواقع أن هذا الاتجاه من البحث، عكس الإتجاه الذي تطورت فيه معارفنا عن الأحلام. فنحن لم نفطن إلى وجود أحلام خالية من التحريف، إلا بعد أن طبقنا خطتنا في التأويل تطبيقاً موصولاً على أحلام محرفة، وبعد أن قمنا بتحليل مسهب مستفيض لهذه الأحلام.

والأحلام التي ننشدها هي أحلام الأطفال. فهي أحلام موجزة، واضحة ملتئمة. غير ملتبسة ولا مبهمة، فلا يصعب فهمها، ومع هذا كله فهي أحلام ما في ذلك شك. على أن الأحلام ليست كلها من هذا الطراز. فتحريف الأحلام يبدأ من عهد مبكر جداً في الطفولة. وبين أيدينا أحلام لأطفال فيما بين الخامسة والثامنة من العمر، بدت فيها منذ تلك السن كل خصائص الأحلام في الأعمار المتأخرة. غير أننا لو قصرنا ملاحظاتنا على الأحلام في المرحلة التي تقع بين مطلع النشاط النفسي المشهود عند الطفل وبين السنة الرابعة أو الخامسة من عمره استطعنا أن نميز طائفة من الأحلام ذات طابع يمكن أن نسميه «الطابع الطفلي».

وهي أحلام قد نلاحظ أمثالها في السنوات الأخيرة من الطفولة، بل قد نلقى بها عدة من الكبار الناضجين في ظروف خاصة.

ولو أننا قمنا بتحليل هذه الأحلام الطفلية، لاستطعنا أن نظفر من غير ما صعوبة مطلقاً، بمعلومات نستطيع أن نركن إليها عن طبيعة الأحلام، ونأمل أن تكون معلومات حاسمة تصدق على مختلف الأحلام جميعاً.

١ ـ لكي نفهم هذه الأحلام، ليست بنا حاجة إلى التحليل أو إلى اصطناع خطة أياً كانت هذه الخطة، ولا يتعين علينا أن نستجوب الطفل الذي يروي لنا حلمه. غير أننا يجب أن نعرف شيئاً عن حياته الخاصة وسنجد في كل حالة من الحالات أن هناك حدثاً خاصاً وقع للطفل في اليوم السابق لحلمه، من شأنه أن يفسر الحلم. فالحلم هو الاستجابة النفسية لذلك الحدث، في أثناء النوم.

ولنتأمل بضعة أمثلة لنقيم عليها ما سنستخلصه من نتائج فيما بعد:

أ ـ كلف ولد عمره إثنان وعشرون شهراً أن يقدم سلة من الكريز لآخر هدية له في عيد ميلاده. فقام بهذه المهمة وهو كاره لها كرهاً ظاهراً، على الرغم من أنه وعد أن ينال شيئاً من هذه الفاكهة، وفي صباح اليوم التالي روى أنه رأى في نومه أن «الطفل «هرمان» أكل كل الكريز».

ب ـ قامت طفلة صغيرة عمرها عام وثلاثة شهور، بنزهة في بحيرة، للمرة الأولى في حياتها. ولما رست السفينة، رفضت الطفلة أن تغادرها، وبكت بكاء مراً، فقد بدا لها أن النزهة أقصر بكثير مما يجب أن تكون عليه. وفي صباح اليوم التالي، روت أنها رات في منامها «أنها

كانت في نزهة على البحيرة هذه الليلة». وهي رواية أكبر الظن أنها تنطوي على رغبة عند الطفلة في دوام النزهة أكثر مما دامت.

د ـ إشترك ولد صغير عمره خمسة أعوام وثلاثة أشهر في رحلة إلى إشرنتال Escherntal بالقرب من هولشتات Hollstait، وكان قد سمع أن هولشتات تقع في سفح جبل داخشتين Daechstein، وهو جبل يهتم به كثيراً. وكان في وسع الطفل أن يشهد منظراً جميلاً لهذا الجبل من مسكنه بـاوزي Auasée وأن يرى بالمنظار المقرب في أعلاه (كوخ سيموني)، وقد حاول الطفل عدة مرات أن يرصد هذا الكوخ بالمرقب، ولم يعرف ما إذا كان قد أفلح في هذا. لقد بدأت الرحلة في جو مرح، وكلما ظهر جبل جديد تساءل الطفل: «هل هذا هو الداخشتين؟»، فإذا أجيب بالنفي برم وضاق صدره حتى انتهى به الأمر أن يلزم الصمت وأن يرفض الاشتراك مع رفقائه في الصعود مسافة قصيرة يرون فيها مسقطاً من مساقط الماء، فظنوه متعباً غير أنه في صباح اليوم التالي قص عليهم، وعليه مسحة من البشر والسعادة، أنه رأى «أنهم كانوا في الليلة الماضية في كوخ سيموني». إذن لقد اشترك الطفل في هذه الرحلة طمعاً في زيارة هذا الكوخ، فلما سئل في حلمه هذا، لم يدل إلا بتفصيل واحد كان قد سمعه من قبل وهو «أنه لا بد للوصول إلى الكوخ من الصعود على درج لمدة ست ساعات».

وحسبنا هذه الأحلام الثلاثة أن تزودنا بكل ما نحتاج إليه من معلومات في هذه الناحية.

٢ ـ من هذا نرى أن هذه الأحلام الطفلية ليست غفلاً من دلالة أو مغزى: فهي أفعال نفسية مفهومة مكتملة. ولو ذكرتم ما أسلفت لكم عن تصور رجال الطب للأحلام وعن تشبيهها بالأصوات التي تصدر من آلة

موسيقية تجـري عليها يـد غير صنـاع، فلن يفوتكم إدراك مـا بين تلك النـظرة وبين أحـلام الأطفـال من تنـاقض صــارخ. أليس من العجيب المدهش حقاً أن يكون الطفل قادراً على أن يقوم في أثناء نومه بعمليات نفسية تامـة، في حين يقنع الكبيـر الناضـج، وهو في الـظروف عينها، باستجابات تشجيعية إختلاجية؟ يضاف إلى هذا أن لدينا من الأسباب ما يحملنا على أن نعتقد، بحق، أن الطفل ينعم بنوم أحسن وأعمق من نوم الكبير.

٣ ـ وبما أن هذه الأحلام الطفليـة لا يصيبها أي تحـريف، فهي لا تتطلب أي تأويل: فالمحتوى الظاهر هو بعينه المحتوى الباطن في هذه الأحوال. ومن ثم فالتحريف ليس خاصة جوهرية من خصائص الحلم. وأرجـو أن يكون في هـذا التصريـح مـا يخفف عن نفـوسكم بعض مـا تشعرون به من حرج بصدد تأويل الأحـلام. ومع هـذا فالتـأمل الـدقيق يضطرنا إلى التسليم بأن التحريف لا تسلم منه حتى هذه الأحلام، وإن يكُ طفيفاً إلى حـد بعيد، فثمـة بعض الإختلاف بين محتـواها الـظاهر وأفكارها الكامنة.

٤ ـ إن حلم الطفل إستجابة لخبرة مرت به في اليوم السابق فخلقت من بعدها بعض الندم أو الشوق، أو رغبة لم تنل حـظها من الإشبـاع. فالحلم تحقيق مباشر سافر مقنع لهذه الرغبة. وأرجو أن تذكروا في هذا المقام ما قلناه عن الدور الذي تقوم به المنبهات الخارجية أو المنبهـات الداخلية البدنية في إقـلاق النوم وإحـداث فقد خـرجنا من ذلـك ببضع حقائق محددة. غير أن هذا التفسير لم ينسحب إلا على عدد صغير من الأحلام أما في أحلام الطفولة التي بين أيدينا، فليس ثمة ما يشيـر إلى فعل أمثال هذه المنبهات البدنية، وليس ثمة مجال للخطأ في هذا، لأنها

أحلام مفهومة حق الفهم، فلا يشق علينا إستيعاب كل حلم منها في جملته. لكن ليس في هذا ما يدعونا إلى نبذ الرأي الذي يقول إن المنبهات تسبب الأحلام. وبحسبنا أن نتساءل عما أنسانا، منذ البداية إن المنبهات التي تقلق النوم قد تكون نفسية كما قد تكون بدنية. فنحن نعلم علم اليقين أن المنبهات النفسية هي المسؤولة، على وجه التخصيص، عن إقلاق النوم عند الراشد الكبير، لأنها تحول بينه وبين تحقيق الشرط اللازم للنوم، وهو التحلل من كل اهتمام بالعالم الخارجي. فالراشد لا ينام لأنه لا يود أن تقف حياته الناشطة وأن ينقطع مجراها، ويؤثر أن يمضي في عمل ما يهمه ويشغله. أما عند الطفل، فالمنبه النفسي الذي يقلق النوم هو الرغبة غير المشبعة. وليس الحلم إلا استجابة منه لهذه الرغبة.

٥ ـ وهذا يسلم بنا ـ عن أقصر طريق ـ إلى نتيجة عن وظائف الأحلام. فلئن كان الحلم استجابة لمنبه نفسي، فلا بد أن تكون وظيفته إزالة التنبيه واستبعاده كي يستمر النوم متصلاً دون توقف وانقطاع. ترى بأية وسيلة ديناميكية يقوم الحلم بوظيفته هذه؟ ذلك ما لا نزال نجهله، غير أننا نستطيع أن نقول منذ الآن، إن الحلم يبعد أن يكون مصدراً لإقلاق النوم (كما يؤخذ عليه عادة) بل إنه حارس النوم يحميه من كل ما في شأنه أن يسبب له إزعاجاً. صحيح أننا نميل إلى الظن بأن النوم الخالي من الأحلام خير من النوم المصحوب بها، لكنه ظن خاطىء. والحق أننا دون معونة الحلم، لا نستطيع أن ننام البتة فنحن مدينون إلى الحلم بذلك القدر من النوم الذي نستمتع به. على أن الحلم ليس بمنجاة من أن يسبب لنا بعض الإزعاج، مثله في ذلك مثل حارس الليل، مضطر إلى أن يحدث هو نفسه بعض الجلبة والضوضاء وهو يطارد من يتصدى

لإزعاجنا ويعمل على إقلاق راحتنا وإيقاظنا من النوم.

٦ ـ فالرغبة هي التي تستثير الحلم، ومضمون الحلم تعبير عن هذه الرغبة: تلك إحدى الحقائق الرئيسية للحلم. وهناك خاصة أخرى للحلم، ليست أقل ثباتاً وإطراداً من الأولى، هي أن الحلم لا يقتصر على التعبير عن فكرة، بل إنه يصور الرغبة مشبعة، في صورة خبرة وهمية. فالرغبة التي استثارت الحلم في أحد الأمثلة السابقة تتلخص في العبارة: «أريد أن أتنزه في البحيرة»، أما مضمون الحلم ذاته فهو «إني أتنزه في البحيرة» من هذا نرى أننا حتى في هذه الأحلام البسيطة للأطفال، لا نزال نلحظ اختلافاً بين الحلم الكامن والحلم الظاهر، وتحريفاً للفكرة الكامنة للحلم من جراء نقل هذه الفكرة وترجمتها إلى خبرة حية ولا بد، في تأويل الأحلام، من أن نعمل، قبل كل شيء، على رد هذا التحريف إلى الأصل الذي نشأ منه، ولو صح أننا بصدد خاصة من أعم خصائص الأحلام كافة وأشملها، لعرفنا كيف نترجم ذلك العنصر في الحلم الذي عرض لنا من قبل، وهو: «أرى أخي وقد أمسك بصندوق من حديد». فهذا العنصر يجب ألا يترجم على النحو الآتي: «إن أخي قد أمسك على نفسه في هذه الأيام». بل على أنه: «وددت لو أنه أمسك على نفسه» أو «ينبغي له أن يمسك على نفسه» ولنذكر أن الخاصة الثانية من هاتين الخاصتين العامتين للأحلام أدنى إلى أن يعترف بها وإلى أن يسلم بها دون معارضة من الخاصة الأولى. ذلك أنه يتعذر علينا أن نستوثق من أن مثير الحلم لا بد أن يكون رغبة على الدوام، فلا يمكن أن يكون في بعض الآونة عرضاً خاصاً، أو شيئاً مما يشغل البال، أو ضرباً من اللوم، والنقد مثلاً ـ نقول ليس هذا ممكناً إلا بعد بحوث عميقة مستفيضة. أما الخاصة الأخرى فلا تتأثر بشيء من هذا، ونعني

بها أن الحلم لا يقتصر على استعادة المنبه دون قيد أو شرط، بل إنه يبطله أو يستبعده أو يخفف من حدته، وذلك بتمثيله تمثيلاً يفرغ عليه الحياة.

٧ ـ في وسعنا أن نعود مرة أخرى، ونحن بصدد هاتين الخاصتين، إلى الموازنة بين الأحلام والهفوات، فقد ميزنا في الهفوات بين نزعة دخيلة مقلقة، وأخرى تناصبها الأولى، ورأينا أن الهفوة صلح وتراضي بينهما، هذا الوصف نفسه مما ينسحب على الأحلام. فالنزعة المنزعجة فيها لا يمكن أن تكون بطبيعة الحال إلا النزعة إلى النوم. أما النزعة المزعجة فتتلخص في المنبه النفسي، أي في الرغبة التي تلح طلباً للإشباع: فالواقع أننا لا نعرف حتى الآن منبهاً نفسياً آخر من شأنه أن يقلق النوم. وهكذا ينشأ الحلم، هو الآخر، نتيجة لعملية صلح وتراضي. فنحن ننام ونشعر مع هذا بإرضاء رغبة ونحن نرضي رغبة ونستمر في الوقت نفسه في النوم. فثمة إرضاء جزئي وحرمان جزئي لكلتا النزعتين.

٨ ـ لعلكم تذكرون أننا كنا نأمل فيما مضى أن نجد منفذاً إلى فهم مشكلات الأحلام، عن طريق أحلام اليقظة ـ تلك المنتجات الخيالية الشفافة التي تواضع الناس على تسميتها بهذا الاسم ـ. الواقع أن أحلام اليقظة لا تعدو أن تكون تحقيقاً وتنفيذاً لرغبات شهوية أو لرغبات في الطموح، لكنه تنفيذ نعرفه حق المعرفة من حيث هو. ومهما بلغ من الوضوح والنصوع، فهو لا يخرج من حيز الفكر والتصور، ولا يتخذ شكل الأوهام والهلاوس على الإطلاق وبذا لا يتحقق هنا من الخاصتين الرئيسيتين للأحلام إلا أقلهما يقيناً. أما الأخرى فلا أثر لها البتة، لأنها مرهونة بحالة النوم، ولا يمكن أن تتحقق في حالة اليقظة. فإذا اتجهنا

إلى اللغة الدارجة ألفيناها تشير، هي الأخرى، إلى أن تحقيق الرغبات خاصة رئيسية من خصائص الأحلام، إن لم تكن إلا نوعاً آخر من التصورات تتيحها الظروف الخاصة بحالة النوم ـ ولنسمها «أحلام يقظة ليلية» ـ لفهمنا على التو كيف تؤدي عملية صوغ الحلم إلى إبطال المنبه الليلي وإلى إرضاء الرغبة. ذلك أن حلم اليقظة، هو الآخر، أسلوب من النشاط وثيق الصلة بإرضاء الرغبات وهذا هو السبب الوحيد في الواقع، الذي يحمل الناس على الالتجاء إليه.

يضاف إلى هذا أن هناك تعبيرات لغوية أخرى تتضمن المعنى نفسه. فمن الحكم الشعبية ما يقول: «إن الجائع يحلم بسوق العيش»؟ ومنها «إن الكلب يحلم بقطعة العظم» بل إن هذه الحكم لتذهب إلى أبعد مما ذهبنا، فتهبط كما نرى، دون مستوى الطفل إلى مستوى الحيوان، وتقرر أن مضمون الأحلام إرضاء لحاجات. هذا إلى عبارات شتى يبدو أنها تشير إلى المعنى نفسه فنحن نقول «هذا جميل كأنه حلم» و«لم أكن أحلم قط بمثل هذا» و«لم أكن أتصور هذا حتى في أغرب أحلامي». وواضح أن اللغة الدارجة تسلم من الانحياز في أحكامها هذه. فثمة أحلام يغشاها قلق شديد وأخرى ذات مضمون مؤلم أو مما لا يبالي به الشخص ويهتم به. غير أن هذه الأحلام لم تلق من اللغة الدارجة ترحيباً. صحيح أننا نتحدث عن أحلام «ثقيلة» لكننا إن تحدثنا عن «الحلم» على إطلاقه، فنحن نعني به عادة، الحلم الذي يرضي لنا رغبة مرموقة. وليس في الحكم الشعبية أن حيواناً رأى في نومه أنه يذبح!

مما يصعب إدراكه حقاً كيف فات الباحثون في الأحلام أن يلحظوا أن تحقيق الرغبات خاصة من خصائصها. الواقع أنهم كانوا يلاحظون هذه الخاصة في الكثير الغالب من الأحيان، غير أن أحداً منهم لم يفطن

إلى أنها خاصة عامة شاملة، وأن يتخذها مفتاحاً لتفسير الأحلام. ولا يعز علينا أن نتصور ما منعهم عن هذا. على أن هذه مسألة سنناقشها فيما بعد.

ولننظر الآن في كل تلك المعلومات النفسية التي أتيحت لنا ـ أكاد أقول دون عناء ـ من دراسة أحلام الأطفال فقد عرفنا أن وظيفة الأحلام هي حراسة النوم، وأنها تنشأ من صراع بين نزعتين تظل إحداهما، وهي الحاجة إلى النوم، ثابتة، في حين تحاول الأخرى إرضاء منبه نفسي معين. كما قدمنا الدليل على أن الأحلام أفعال نفسية حافلة بالدلالة والمغزى، وأن لها خاصتين رئيسيتين فهي تحقيق لرغبات، وهي خبرات وهمية مهتلسة. على أننا كدنا ننسى، في زحمة هذا البحث، أنا ندرس التحليل النفسي ففيما عدا الصلة التي أقمنا بين الأحلام والهفوات، لم يكن لعملنا طابع نوعي خاص به. وقد كان في مقدور أي مختص بعلم النفس، لا يعرف شيئاً عن مقدمات التحليل النفسي وفروضه، أن يقدم هذا التفسير لأحلام الأطفال. فلمَ لم يقم أحد من هؤلاء بهذا العمل؟

لو أن الأحلام كانت جميعها من طراز أحلام الطفولة، لحلت المعضلة ولانتهى البحث دون أن تكون بنا حاجة إلى استجواب الحالم، أو الرجوع إلى اللاشعور أو الإلتجاء إلى عملية التداعي الطليق وغني عن البيان أنه يتحتم علينا أن نمضي في عملنا، في هذا الاتجاه: وعلى أننا قد التقينا أكثر من مرة بخصائص قدرنا أنها ذات صدق مطلق، ثم ظهر لنا بعد هذا أنها لا تصدق إلا على نوع معين وفئة معينة من الأحلام. فالمسألة التي تطالعنا الآن هي أن نقطع بما إذا كانت تلك الخصائص العامة التي تتسم بها أحلام الأطفال أكثر ثباتاً من سابقتها، وبما إذا كانت تصدق أيضاً على الأحلام التي يستغلق معناها، والتي يبدو

محتواها الظاهر منقطع الصلة برغبة باقية من اليوم السابق. عندي أن هذه الأحلام الأخرى قد أصابها قدر كبير من التحريف والتشويه فلا يجوز لنا إذن أن نصدر عنها أحكاماً مباشرة. كذلك أرى أن لا بد لتفسير هذا التحريف، من الالتجاء إلى خطة التحليل النفسي وإجراءاته في التأويل، تلك الخطة التي انصرفنا عنها ونحن نجمع المعلومات عن أحلام الأطفال.

لا يزال أمامنا صنف آخر من الأحلام يبدو سافراً غير محرف كما إنه يشبه أحلام الأطفال، فلا يشق علينا أن نعرف فيه تحقيقاً لرغبات. تلك هي الأحلام التي تثيرها الحاجات العضوية الأساسية للإنسان طول حياته ـ كالجوع والعطش والرغبة الجنسية ـ فهي تحقيق لرغبات بمعنى أنها استجابات لمنبهات بدنية داخلية. من تلك أن طفلة عمرها تسعة عشر شهراً رأت حلماً مكوناً من قائمة طعام مشفوعة بإسمها (أناف . . Annaf، شليك مزمبواز بيض، حساء). فكان هذا الحلم رد فعل ليوم أكرهت فيه على الامتناع عن الطعام، لسوء هضم أصابها من أكل تلك الفاكهة التي ورد ذكرها في الحلم مرتين. في هذا العهد نفسه، اتفق لجدة هذه الطفلة ـ ومجموع عمريهما معاً سبعون عاماً أن اضطرت إلى الامتناع عن الطعام يوماً لاضطراب أصابها من كلية سائبة، فرأت تلك الليلة في منامها أنها دعيت إلى حفل قدم لها فيه أشهى الأطباق وألذها. ومن المشاهد المعروفة أن السجناء الذين يحرمون من الغذاء وأن الجوابين أو المستكشفين الذين تمر بهم أوقات يكابدون فيها الحرمان الشديد من المعروف أن أحلامهم تدور، في هذه الظروف، على إرضاء الحاجات التي لم يستطيعوا إرضاءها في الواقع. من هذا ما يذكره «أوتو نوردنسكلد Auto Nordenskiold» في كتابه عن القطب الجنوبي (عام

١٩٠٤) وهو يصف زمرة الرجال الذين أمضى معهم فترة الشتاء (المجلد الأول ـ ص ٣٢٦ :) «كانت أحلامنا تدل دلالة واضحة على اتجاه أفكارنا ولم تكن أحلامنا قط بهذه الكثرة والوضوح كما كانت في ذلك الوقت، حتى إن أصحابنا الذين لم يكونوا يحلمون في العادة إلا نادراً، كانوا يقصون علينا قصصاً طويلة كل صباح حين نجتمع لنتبادل خبراتنا الأخيرة في عالم الخيال. ولقد كانت الأحلام جميعها تدور على العالم الخارجي الذي كنا بعيدين عنه كل البعد، لكنها غالباً ما كانت تنصب أيضاً على حالتنا وموقفنا في ذلك الوقت. . فكان الطعام والشراب المحور الذي تدور عليه في أكثر الأحيان. وقد اشتهر أحد أصحابنا بأحلام له، يرى فيها أنه يدعى إلى ولائم حافلة، فكان يبتهج إذ يجيئنا في الصباح يقص علينا أنه دعي إلى مأدبة تناول فيها طعاماً من أطباق ثلاثة. كما كان آخر يرى التبغ في نومه، جبالاً برمتها من التبغ» . . . ورأى ثالث سفينة تأتي باسطة شراعاتها، تجري على الماء، بعد أن ذهب عنه الجليد. على أن هناك حلماً آخر جديراً بالذكر: «فقد جاء فيه موزع البريد وأخذ يشرح في إطناب تأخر الرسائل إلى هذا الحد، وذكر أنه أخطأ التوزيع ولم يفلح في جمعها بعد توزيعها إلا بعد عناء كبير. لقد كانت تشغل أذهاننا في أثناء النوم، أشياء أكثر استحالة من تلك بطبيعة الحال، لكن الأحلام التي كنت أراها أو أسمعها من غيري كانت تتسم جميعها بجدب في الخيال يثير العجب والدهش حقاً، ولو كان في مقدورنا أن نسجل هذه الأحلام جميعها، لكانت من دون شك وثائق ذات أهمية كبرى من الناحية السيكولوجية وليس من العسير أن يتصور الإنسان كم كنا نحنّ إلى النوم ونتلهف إليه، فقد كان يتيح لكل فرد منا ما يرغب فيه وما يصبو إليه». وإليكم عبارات أخرى أقتبسها من «دو بـرل Du Prel» «لقد كان «منجو بارك» Mungo Park يحلم على

الدوام، وهو يوشك أن يموت ظمأ في رحلة له بأفريقية بالتلال والوديان المخضلة بالماء في وطنه. وقد رأى «ترنك Trenck» حين كان يبرح به الجوع في معقل بمجد بورج، أنه إلى مائدة مثقلة بأطباق فخمة. كذلك كانت حال «جورج باك George Back»، الذي اشترك في رحلة فرانكلين الإستكشافية الأولى، «فقد كان يرى في نومه دائماً، يوم كان بين براثن الموت من الجوع، أنه يأكل طعاماً وفيراً».

إن من يشعر بالعطش في نومه، من طعام كثرت التوابل فيه، فأكبر الظن أنه يرى في نومه أنه يشرب. فإذا اشتد به العطش، أو برح به الجوع، صحا من نومه ظمآن يروي عطشه بماء حقيقي، إذ يستحيل على الحلم، بطبيعة الحال، أن يشبع حاجة مستبدة فالمهمة التي يؤديها الحلم في هذه الحال، لا غناء فيها من الناحية العملية، لكنها ترينا مع هذا أن الحلم قد أهيب به لحماية النوم من المنبه الذي يقسر النائم على الاستيقاظ والقيام بعمل. فإن لم تكن الحاجة على درجة كبيرة من الشدة والإلحاح، فالأغلب أن تكفي «أحلام الإرضاء» لسد هذه الحاجة.

والأمر بالمثل حين يكون المنبه رغبة جنسية، إذ يتيح الحلم للنائم إرضاء هذه الرغبة لكنه إرضاء من نوع خاص جدير بالذكر. فمن خصائص الدفعات الجنسية أنها لا ترتبط بموضوعها إرتباطاً وثيقاً مباشراً، كما هي الحال في الجوع والعطش: لذا قد يكون الإرضاء في «أحلام الإمناء» إرضاء حقيقياً. بل قد يحدث في كثير من الأحيان أن تقترن أحلام ذات مضمون غامض أو محرف بإرضاء حقيقي، وذلك من جراء صعوبات معينة تتصل بموضوع الدفعة الجنسية (وهي صعوبات سنعرض لها فيما بعد) ويرى «رانك O. Ronk» أن هذه الخاصة التي تتسم بها أحلام الإمناء مما يجعل هذه الأحلام موضوعات صالحة لدراسة تحريف

الأحلام بوجه خاص. يضاف إلى هذا أن كل أحلام الكبار الناضجين التي تدور على حاجات ورغبات، تنطوي عادة على شيء آخر إلى جانب الإرضاء، على شيء مصدره منبهات نفسية صرفة، ويتطلب تأويلاً لكي يفهم.

على أني لا أعني بهذا أن أحلام تحقيق الرغبات ذات الطراز الطفلي لا تعدو أن تكون - عند الكبار - إستجابات للحاجات الحتمية السالفة فإلى جانب هذه الأحلام، هناك أخرى موجزة واضحة، تحدثها بعض الظروف والمواقف الهامة الغالبة، ولا نزاع في أنها تنشأ من منبهات نفسية. من أمثالها «أحلام الإستعجال». وترى حين يكون المرء بسبيل الاستعداد للقيام برحلة، أو لمشاهدة رواية تهمه بوجه خاص، أو لسماع محاضرة، أو لتأدية زيارة... فإذا به يرى أن ما يرتقبه قد تحقق قبل ميعاده، في حلم من أحلامه، فيجد نفسه في الليلة التي تسبق التنفيذ الفعلي لما عزم عليه، وقد انتهى من رحلته، أو يتحدث إلى الصديق الذي قصد إلى زيارته، أو جالساً في بهو المسرح... ومن أمثالها أيضاً تلك الأحلام التي تسمى بحق «أحلام التكاسل» أو«أحلام الإستسهال». ونلاحظ عند من يؤثرون مواصلة النوم والاستجابة للأشياء إستجابة وهمية تكلفهم عناء أقل من الاستجابة الفعلية. فيرى النائم من هؤلاء أنه قد نهض من فراشه، وأنه يغتسل، أو أنه في المدرسة، في حين أنه لا يزال مستغرقاً في نومه. في هذه الأحلام، تبدو الرغبة في النوم. وقد رأينا أنها تشترك أبداً في إحداث الأحلام ظاهرة واضحة، كأنها العامل الأساسي والمصدر الفعلي لهذه الأحلام، من هذا نرى أن الحاجة إلى النوم تتخذ مكانها بحق، إلى جانب الحاجات العضوية الملحة الأخرى.

وأود أن أشير في هذا المقام إلى صورة نقلها الرسام «شفيند Schwind» توجد الآن ببهو شاك Schack في ميونج، وذلك لأبيّن لكم كيف استطاع الفنان بقوة حدسه أن يرد حلماً من الأحلام إلى موقف خطير من المواقف الغالبة في حياة فرد. تسمى هذه الصورة، «حلم سجين» فلا بد أن يكون موضوع الحلم هو الهرب والفرار بطبيعة الحال. وقد كانت فكرة موفقة أن يفر السجين من النافذة، فمن خلالها تنفذ أشعة الضوء فتوقظه من نومه أما تلك الأقزام التي يركب بعضها فوق بعض، فلا ريب في أنها تمثل الوضعات المتتالية التي لا بد أن يتخذها السجين حتى يبلغ النافذة. وعسى الا أكون مخطئاً فأنسب إلى الرسام شيئاً لم يقصد إليه، إذ قلت أن ملامح أعلى قزم في هذا السلم، ذلك الذي ينشر قضبان السلم ـ وهذا ما يصبو، السجين نفسه، إلى عمله ـ تشبه ملامح السجين شبهاً عجيباً! ـ

لقد أسلفت لكم أننا إذا استثنينا أحلام الأطفال والأحلام ذات الطراز الطفلي فإننا نلتقي في سائر الأحلام بعقبة هي تحريف الحلم وتشويهه. ولا نستطيع أن نقول بادي الرأي، ما إذا كانت سائر الأحلام بدورها تحقيقاً لرغبات وهذا ما نميل إلى افتراضه ـ كما أننا لا نستطيع أن نحدس المنبه النفسي الذي صدرت عنه من محتواها الظاهر، أو أن نبرهن على أنها تعمل ـ كالأحلام الأخرى ـ على إزالة المنبه أو التخفيف منه. والحق أنها أحلام يجب أن تؤول أي تترجم؟ وذلك بأن يرد التحريف إلى الأصل، ويستعاض عن المحتوى الظاهري بالفكرة الكامنة: عندئذ نستطيع أن نقرر على وجه التحديد، ما إذا كانت الخصائص التي تتسم بها الأحلام الطفلية مما يمكن أن يصدق على كافة الأحلام دون استثناء.

الفصل التاسع

الرقابة في الأحلام

كشفت لنا دراسة أحلام الأطفال عن كيفية نشوء الحلم، وعن وظيفته وخواصه الأساسية. فرأينا أنه وسيلة لإزالة تأثير المنبهات النفسية التي تقلق النوم وذلك عن طريق الإرضاء الوهمي. أما أحلام الكبار الناضجين، فلم نستطع أن نفسر إلا طائفة واحدة منها، هي ما أسميناها الأحلام ذات الطراز الطفلي. وأما غير تلك، فلا نعرف من أمرها حتى الآن شيئاً، ولا نزال عاجزين عن استيضاحها وفهمها. ومع هذا فقد ظفرنا بنتيجة ذات دلالة يجب ألا نبخسها أو أن نغض من شأنها: هي أننا كلما التقينا بحلم نفهمه حق الفهم ظهر أنه تحقيق لرغبة من الرغبات. وهذا الاتفاق لا يمكن أن يكون عارضاً أو مما لا يؤبه له ويعتد به.

فإن التقينا بحلم من طراز آخر، افترضنا أنه بديل محرف عن مضمون نجهله، ثم نجدُّ في أثناء المضمون ونستقصيه قبل كل شيء. ولدينا أسباب كثيرة تدعو إلى هذا الافتراض، منها ما بين الحلم وتصورنا الهفوات من تشابه. وعلى هذا تكون الخطوات التالية في بحثنا هي تمحيص التحريف في الأحلام وفهمه.

إن تحريف الحلم هو ما يجعله يبدو لنا غريباً غير مفهوم وثمة أشياء عدة بنا حاجة إلى أن نعرفها عن هذا الموضوع: أولاً ـ مصدر التحريف أي ديناميكيته. ثانياً ـ وظيفة التحريف. وأخيراً ـ كيف يؤدي هذه الوظيفة؟ . ونستطيع أن نقول، فضلاً عن هذا، إن التحريف هو نتيجة

عملية إخراج الحلم. فلنحاول إذن وصف هذه العملية، ورسم القوى التي تؤثر فيها.

لنستمع الآن إلى حلم سجلته سيدة معروفة في دوائر التحليل النفسي عن امرأة متقدمة في السن، ذات ثقافة عالية وموضع تقدير عظيم، وهو حلم لم يحلل لأن السيدة التي روته لنا زعمت أن أصحاب التحليل النفسي ليست بهم حاجة إلى تأويله كما أن صاحبة الحلم نفسها لم تؤوله، بل حكمت عليه وأدانته كما لو كانت تعرف ماذا يعني. فكان من بين ما قالت: «. . . امرأة في الخمسين ترى في نومها حلماً بهذه الدرجة من الحمق والبشاعة، امرأة لا تفكر ليلها ونهارها إلا في طفلها!».

يدور هذا الحلم حول إدارة شئون الحب في أثناء الحرب. وهاهوذا: ذهبت الجالة إلى المستشفى العسكري رقم ١، وقالت لحارس الباب أنها يجب أن تراجع كبير الأطباء (وذكرت له إسماً لا تعرفه) لأنها تريد أن تهب نفسها للخدمة في المستشفى. وقد ظهر للجاويش من كلامها أنها تؤكد كلمة «خدمة Service» وتشد عليها، بحيث أدرك من فوره أنها تتكلم عن الخدمة في «إدارة شئون الحب». ولما رأى أنها سيدة كبيرة، تركها تدخل بعد شيء من التردد. لكنها بدل أن تبحث عن كبير الأطباء، دلفت إلى حية واسعة مظلمة كان بها نفر من الضباط وأطباء الجيش وقوفاً أو جلوساً حول مائدة طويلة. ثم اتجهت إلى أحد أطباء أركان الحرب وأخبرته باقتراحها، وسرعان ما فهم ما تريد. وقد كان نص العبارة التي قالتها في حلمها: «إني وعدد لا يحصى من نساء ڤيينا وفتياتها على استعداد لأن نهب أنفسنا للجنود والرجال والضباط من أية رتبة كانوا. . .» وما كادت تنتهي من قولها هذا سمعت (في نومها) دمدمة

ولغطاً. وقد أدركت مما بدا على وجوه الضباط من تعبير ينم عن الارتباك والخبث، أنهم فطنوا جميعاً إلى ما تريد أن تقول. ثم مضت السيدة تقول «وأنا أعرف أن عزمنا هذا يبدو مستهجناً غريباً، لكنا نحمله محملاً جدياً غاية في الجد. فالجندي في ساحة القتال لا يسأل عما إذا كان يريد أن يموت أو لا يريد» . . . وتلت هذه لحظة من صمت أليم. ثم لفها الطبيب بذراعه وقال: «إفرضي يا سيدتي أن الأمر قد انتهى إلى هذا فعلاً، أن. . . (تسمع دمدمة ولغطاً). فانتزعت نفسها من ذراعه وقالت لنفسها «الرجال جميعاً سواء» ثم أجابت «رباه، إني امرأة مسنة، وقد لا يتاح لي البتة أن أكون في هذه الحال. فثمة شرط يجب أن يلاحظ ذلك أن السن لا بد أن يحسب لها حسابها، بحيث إن سيدة عجوزاً وشاباً يافعاً قد يسمح لهما أن. . . (دمدمة ولغط)، إنه يكون أمراً فظيعاً» ـ فقال طبيب أركان الحرب «إني أفهمك حق الفهم». وكان هناك بعض الضباط فانفجر أحدهم ضاحكاً، وكان يغازل هذه السيدة في صباه. وهنا رغبت السيدة في أن يرشدوها إلى كبير الأطباء فهي تعرفه، حتى يضع الأمور في نصابها. ولشد ما كانت دهشتها حين أدركت أنها لا تعرف اسمه. ومع هذا فقد أشار إليها طبيب أركان الحرب في تأدب جم واحترام، إلى سلم حريري ضيق لولبي يسلم إلى الطوابق العليا، وذكر لها أن كبير الأطباء في الطابق الثاني. وبينما كانت تصعد السلم سمعت ضابطاً يقول: «يا له من تصميم هائل، صغيرة كانت أم كبيرة، كل احترامي لهذه السيدة!» فمضت صاعدة على درج لا نهاية له، يدفعها شعورها بأنها تؤدي واجباً عليها.

لقد تكرر هذا الحلم مرتين خلال بضعة أسابيع، بتغييرات ترى صاحبة الحلم أنها غير ذات بال وأنها لا تنطوي على أي معنى.

مما يلاحظ أن هذا الحلم يطّرد كأنه حلم من أحلام اليقظة، في جملته متصل، فليس فيه إلا بضعة مواضع حدث فيها توقف وانقطاع، كما أن كثيراً من تفاصيل محتواه كان يمكن استيضاحها بالبحث والتحري، غير أن هذا، كما تعلمون، لم يحدث. على أن أظهر شيء في الحلم، وأهم ما فيه احتواؤه على كثير من الفجوات، لا في تذكره واسترجاعه، بل في مضمونه ومحتواه ففي مواضع ثلاثة، يرتج على المضمون كما لو كان قد نفد. وحينما تحدث الفجوات، ينقطع حديث السيدة بسبب دمدمة ولغط. وبما أننا لن نحلل الحلم، فليس لنا في الحق أن نقول شيئاً عن دلالته ومعناه. غير أن هناك بضع أمارات تبيح لنا أن نستخلص نتائج معينة منها ما تتضمنه «إدارة شئون الحب» من إشارة وتلميح. وأهم من هذا كله أن أجزاء الحديث التي تسبق اللغط مباشرة، بها حاجة إلى أن تستكمل. وهذه التكملة لا تستقيم إلا في هذا الاتجاه، خرجنا من ذلك بفكرة مضمونها أن السيدة مستعدة لأن تهب نفسها حين يدعوها الواجب، لترضي الحاجات الجنسية للجنود والضباط دون نظر إلى رتبهم. وليس من شك في أن هذا أمر فظيع مخز، بل إنه نموذج لخيال شبقي فاضح ـ غير أن الحلم لا يفصح عن ذلك، ولا يقول عنه شيئاً. وكل ما هنالك أنه في اللحظات التي تقتضي فيها الملابسات ذكر هذا الاعتراف نقول في هذه اللحظات تحديداً ـ يبدو في الحلم الظاهر لغط مبهم، كأن الاعتراف قد استبدل به هذا اللغط. أي أن شيئاً قد أمحي أو قمع.

أرجو أن يكون قد اتضح لكم أن فحش الفقرات المحذوفة في الحلم، هو على وجه التحديد ما دعا إلى استبعادها وقمعها. وهنا نجد فيما يقع في هذه الأيام شبيهاً بما يحدث في الحلم. فأية جريدة

نتصفحها، لا نلبث أن نرى فيها فقرات حذفت من هنا وهناك فبدت مكانها أجزاء بيضاء من الورق: وتعرفون أن هذا من عمل رقيب الصحافة فلا بد أن كانت هذه المواضع البيضاء تشغلها في الأصل عبارات لم ترضى عنها سلطات الرقابة فحظرت نشرها وهذا أمر يدعو إلى الأسف حقاً، إذ لا بد أن يكون ما حذفه الرقيب «زبدة» الأخبار وأهم ما فيها جميعها.

على أن الرقابة ـ في أحوال وظروف أخرى ـ لا يبدو أثرها في حذف فقرات بأكملها على هذا النحو. إذ يرى الكاتب أو المحرر أن هناك عبارات معينة، أكبر الظن أن يعترض عليها الرقيب، فيبادر إلى التلطف بها والتخفيف من حدتها، وتحويرها تحويراً طفيفاً، أو يقنع بضرب من الإشارة والتلميح إلى ما يريد أن يكتبه فعلاً. وفي هذه الحال، لا تبدو في الصحيفة رقع بيضاء لكن القارىء لا يفوته أن يدرك، من اللف والروغان في طريقة التعبير، أن الكاتب كان يتمثل الرقابة في ذهنه أثناء الكتابة.

فإن تمشينا مع هذا التشبيه، استطعنا أن نقول إن العبارات التي حذفت أو موه عليها اللغط، في حلم السيدة، كانت ضحية رقابة من نوع ما. . والواقع أننا نستخدم اصطلاح رقابة الأحلام، وننسب إليها بعض ما يصيب الحلم من تحريف وتشويه. فكلما بدت في الحلم الظاهر فجوات وثغرات، عرفنا أن الرقابة هي المسئولة عن ذلك. بل لا بد لنا في الواقع من أن نذهب إلى أبعد من هذا، فنقول إننا كلما التقينا في الحلم بعنصر شاحب ملتبس غير محدد، وسط عناصر تفوقه وضوحاً وتحديداً، فهذا شاهد على أثر الرقابة. على أنه يندر أن تتخذ الرقابة تلك الصورة المكشوفة الساذجة، إن صح التعبير، التي اتخذتها في

حلم تلك السيدة. فالأغلب أن يبدو أثرها بالصورة الأخرى: أي بأن تستحدث ضروباً من التحوير والتلميح والإشارة بدل المعنى الحقيقي.

ويتضح أثر الرقابة في صورة ثالثة، لا أجد لها مثيلاً في رقابة الصحف غير أني أستطيع أن أوضحها بوساطة الحلم الوحيد الذي قمنا بتحليله حتى الآن فعسى أن تذكروا حلم «المقاعد الثلاثة في المسرح، التي تستأجر بثلاثة كرونات ونصف» ففي الأفكار الكامنة لهذا الحلم، كان عنصر «التبكير والتعجل» يحتل المكان الأول منها، وكان معناه: «من الحمق أن أتعجل في زواجي ومن السخف أن أحتجز مقاعد قبل عرض الرواية بوقت طويل، ومن الرعونة أن تنفق أخت زوجي مالها على عجل كما فعلت». على أن هذا العنصر المركزي للأفكار الكامنة لم يبد شيء منه في المحتوى الظاهر، بل كان كل شيء في هذا المحتوى يدور على الذهاب إلى المسرح وحجز المقاعد. وإن إزاحة مركز الاهتمام على هذا النحو، وإعادة تنظيم عناصر الحلم بهذه الصورة، قد جعل المحتوى الظاهر مغايراً للأفكار الكامنة بحيث تمتنع كل شبهة في وجود تلك الأفكار من هذا المحتوى. هذه الإزاحة لمركز الاهتمام، من الوسائل الرئيسية التي تحرف بها الأحلام وهي ما يفرغ على الأحلام ذلك الطابع من الغرابة التي يجعلها تبدو في عين صاحبها كأنها ليست وليدة عقله هو.

فالحذف، والتحوير، وإعادة تنظيم العناصر هي إذن الأساليب التي تترتب على عملية الرقابة، والوسائل التي تستخدم لتحريف الأحلام وتشويهها. أما الرقابة نفسها وهي السبب الرئيسي أو أحد الأسباب الرئيسية للتحريف، فهي موضوع بحثنا هذا. وقد جرت العادة أن يعتبر التحوير وإعادة التنظيم وسيلتين من وسائل الازاحة.

ولننظر الآن إلى الرقابة في الأحلام من الوجهة الديناميكية بعد أن قدمنا هذه الملاحظات عن نشاطها ونتائجها. وأرجو ألا تأخذوا اصطلاح «الرقابة» على معنى تشبيهي أكثر مما يجب، فتتصوروا الرقيب قزماً صارماً غليظاً، أو روحاً تسكن مقصورة في المخ تصدر منها أوامرها وتقوم فيها بوظائفها. كما أرجو ألا تحاولوا تحديد مكانه بدقة أكثر مما يجب، فتحسبوه مستقراً في مركز من مراكز الدماغ تنبعث منه التنبيهات رصداً، فإن أصاب هذا المركز عطب أو تلف تعطلت الرقابة، بل ننظر إلى الرقابة مؤقتاً، على أنها اصطلاح مناسب يعبر عن علاقة ديناميكية وهذا لا يمنعنا من التساؤل عن نوع النزعات الراصدة والنزعات المرصودة بل لا تدهشوا إذا عرفتم أننا التقينا بهذه الرقابة من قبل، وربما لم تفطنوا إليها.

الواقع أن هذا قد حدث بالفعل. أتذكرون تلك الظاهرة المدهشة التي عرضت لنا حين بدأنا نطبق طريقة التداعي الطليق؟ لقد كنا نشعر إذاك أن هناك مقاومة تعترض جهودنا إذ نحاول النفاذ من عنصر الحلم إلى الفكرة اللاشعورية الأصيلة التي يقوم هذا العنصر بديلاً عنها، وقلنا إن هذه المقاومة لا تكون دائماً على درجة واحدة من الشدة، فهي تكون تارة عنيفة، وطوراً ضعيفة جداً. فإذا كانت ضعيفة لم يتطلب التأويل إلا بضع خطوات وحلقات رابطة. وإن كانت الأخرى، فلا بد من أن نبدأ من عنصر الحلم فنتأثر سلاسل طويلة من المستدعيات تبعدنا عنه كثيراً، ولا مناص من أن نتغلب، ونحن في طريقنا هذا، على كل الصعوبات التي تبدو في صورة اعتراضات وألوان من النقد يوجهها الشخص إلى الخواطر التي تتوارد بإزاء حلمه. هذه المقاومة التي اعترضتنا خلال عملية التأويل، نلتقي بها مرة أخرى في صورة رقابة، خلال عملية انصياغ

الحلم وإخراجه: فليست المقاومة إلا الرقابة محسوسة مجسمة. وهي شاهد على أن قوة الرقابة لا تستنفد كلها في تحريف الحلم وتشويهه، بل إنها لا تبرح تعمل بصورة دائمة موصولة، حتى يظل التحريف على ما هو عليه ويبقى كما بدأ: وكما أن شدة المقاومة في أثناء التأويل تختلف باختلاف عناصر الحلم، كذلك تختلف درجة التحريف الذي تحدثه الرقابة، من عنصر لآخر في الحلم نفسه. فلو أننا قارنا المحتوى الظاهر بالمحتوى الكامن، لبدا لنا أن بعض العناصر الكامنة يستبعد استبعاداً تاماً، وأن بعضها الآخر يصيبه التحوير بقدر قليل أو كبير، في حين تبدو عناصر أخرى في المحتوى الظاهر للحلم دون أن ينالها تحوير، بل قد تبدو أشد وأقوى مما هي عليه.

لقد كان هدفنا أن نستوضح عن النزعات التي تفرض الرقابة وعن تلك التي تفرض عليها الرقابة. وهذه مسألة جوهرية لفهم الأحلام، وربما لفهم الحياة الإنسانية جميعاً. ومن اليسير أن نجيب عنها متى استعرضنا سلسلة الأحلام التي وفقنا إلى تأويلها. أما النزعات التي تفرض الرقابة، فتلك التي يرضى عنها النائم ويصادق عليها وهو في حالة اليقظة، والتي يشعر أنه على وفاق ووئام معها. وكونوا على يقين من أنكم حين ترفضون أن تقبلوا تأويلاً صحيحاً لأحد أحلامكم، فإن الدوافع التي تملي عليكم هذا الرفض، هي بعينها الدوافع التي تملي على الرقابة عملها، والتي تسبب التحريف، وتجعل التأويل أمراً ضرورياً. وحسبكم أن تتأملوا حلم تلك السيدة ذات الخمسين عاماً: فقد بدا الحلم في نظرها، من دون أن يؤول، معيباً مستنكراً. ولو كانت الدكتورة «فون هج هلموث» ذكرت لها شيئاً عن حقيقة دلالته ومغزاه، لكان وقعه في نفسها أبغض مما كان. ولقد كان استنكارها هذا، على وجه

التحديد، ما دعا إلى الاستعاضة عن الفقرات المنكرة في الحلم بدمدمة ولغط.

أما النزعات التي تفرض عليها الرقابة فيجب أن توصف من ناحية المعيار النفسي للنقد عند المرء. ولئن فعلنا هذا، تسنى لنا أن نقول إنها نزعات مستنكرة تتنافر مع وجهة نظرنا الأخلاقية والجمالية أو الإجتماعية، وأشياء لا نجرؤ على التفكير فيها أبداً، إلا أن يكون تفكيراً يقترن بالمقت والاستفظاع. ثم إن هذه الرغبات الموصودة التي تبدو محرفة في الأحلام، هي قبل كل شيء، مظاهر لأنانية مستهترة لا حد لها. فليس ثمة حلم لا يظهر فيه أنا الحالم ولا يقوم فيه بالدور الرئيس، حتى إن عرف كيف يتنكر تنكراً تاماً في المحتوى الظاهر للحلم. وهذه «الأنانية المقدسة» للأحلام ليست، على التحقيق، منقطعة الصلة باتجاهنا النفسي اللازم للنوم: ألا وهو الإنسحاب من العالم الخارجي جميعاً، وقطع الصلة بكل اهتمام فيه.

فإذا ما تحلل الأنا من كل قيد أخلاقي، امتثل لمطالب الغريزة الجنسية جميعاً، تلك التي حرمتها تربيتنا الجمالية منذ أمد بعيد، وتلك التي تتعارض مع قواعد الأخلاق كلها. عندئذ تنطلق الشهوة «اللبيدو» - وهو اسم نطلقه على النزوع إلى التماس اللذة - باحثة عن موضوعات لها، لا تعترضها في ذلك مقاومة، ولا يصدها مانع بل إنها في الواقع تؤثر من الأشياء والموضوعات المحرمة والمحظور منها: فلا تمتد عين الرجل إلى زوجة غيره فقط، بل وإلى محارمه هو ممن تواضعت الإنسانية جميعها على تقديسهم - فإذا بالرجل يشتهي أمه أو أخته، وإذا بالمرأة تشتهي أباها أو أخاها - (حتى إن حلم تلك السيدة ذات الخمسين عاماً، ينطوي على اشتهاء المحارم، إذ كانت الشهوة منصبة فيه على الإبن دون

نزاع). بل هناك رغبات نعتقد أنها مجافية للطبيعة البشرية، فإذا بها تبدو ذات قوة تكفي لاستثارة الأحلام. فالكراهية تنطلق من عقالها، وكذلك الرغبة في الانتقام، وتمني الموت لأشخاص هم أعز شيء علينا وأقربه إلينا ـ كالأبوين والإخوة والأخوات، والزوج أو الزوجة، والأطفال ـ كل أولئك يجدون في الأحلام مرتعاً رحباً، وهيهات أن يبدو فيها على قلة وندور. وإن هذه الرغبات المرصودة لتبدو كأنها تنبعث من جحيم حقيقي حتى ليلوح لنا حين نستبطن معناها ونحن أيقاظ، أن كل رقابة مهما اشتدت، لا تكفي لصدها وحظرها.

ومع هذا فالحلم ذاته لا يعاب من أجل هذا المضمون الرجيم. وأكبر الظن أنكم لم تنسوا أن للحلم وظيفة بريئة بل وظيفة نافعة، هي حماية النوم مما يزعجه ويقلقه. فالشر والفجور ليسا لاصقين بطبيعة الحلم ذاتها. والواقع أنكم تعرفون أن هناك أحلاماً تدور على إرضاء رغبات مشروعة أو حاجات عضوية حتمية. وهي أحلام تظهر غفلاً من أي تحريف، بل إنها ليست في حاجة إليه، فهي تستطيع أن تؤدي وظيفتها دون أن تسيء النزعات الأخلاقية والجمالية للأنا واعلموا أيضاً أن درجة التحريف في الحلم مرهونة بعاملين. فيشتد التحريف كلما كانت الرغبة التي يجب أن ترصد مريبة معيبة، وكانت مطالب الرقابة في ظرف معين ملحة شديدة. من ذلك أن الرقابة الصارمة عند فتاة صغيرة، نشأت على تربية محتشمة وخفر شديد. من شأنها أن تحرف ما تراه الفتاة في نومها من ضروب للإغواء والاشتهاء، نراها نحن الأطباء مظاهر بريئة لرغبات شهوية غير ضارة، كما تراها الفتاة نفسها كذلك بعد أن تتقدم في السن عشرة أعوام.

ولنذكر أننا لم نخط بعد خطوات واسعة، حتى نسخط على هذه

النتيجة التي أسلمنا إليها في تأويل الأحلام. وأعتقد أننا لم نفهم بعد هذا البحث حق الفهم على أنه يتعين علينا، قبل كل شيء، أن نعصمه من أوجه معينة للنقد والاعتراض. إذ ليس من العسير إطلاقاً أن نجد فيه نقاطاً ضعيفة، فقد قام تأويلنا للأحلام على فروض صغناها قبل. منها: أن الحلم ينطوي إجمالاً على دلالة ومعنى، وأن النوم الطبيعي يزخر بعمليات نفسية، لا شعورية مؤقتة، شبيهة بتلك التي تبدو في النوم المغناطيسي، ومنها أن كل الخواطر والأفكار التي تتوارد بصدد الأحلام منحتمة مشروطة. فلو أننا بدأنا من هذه الفروض، فوصلنا إلى نتائج مقبولة معقولة في تأويلنا، لحق لنا أن نستنتج أنها فروض صحيحة تستجيب لحقائق الأشياء، لكن ماذا تكون الحال إذا كانت النتائج من النوع الذي وصلنا إليه بالفعل؟ طبيعي أن يقال في هذه الحال: «إنها نتائج مستحيلة، متناقضة، أو إنها على الأقل ضعيفة الإحتمال إلى حد بعيد، فلا بد أن تكون الفروض التي بنيت عليها خاطئة. فإما ألا يكون الحلم ظاهرة نفسية، وإما ألا يكون ثمة شيء لا شعوري في حياتنا وحالتنا الطبيعية أو أن هناك عيباً ما في الخطة التي نسير عليها. أليس هذا الافتراض أبسط وأكثر إرضاء للنفس من تلك النتائج الفظيعة التي نعترف بأننا استخلصناها من فروضه؟».

إنه في الحق أبسط وأكثر إرضاء للنفس، غير أن هذا لا يستتبع بالضرورة أن يكون أكثر صحة وصدقاً. فلنصبر: فالمسألة لم تنضج بعد للحكم عليها. وتعالوا بنا قبل كل شيء نجعل أوجه النقد التي يعترض بها على تأويلنا أكثر قوة مما هي عليها. أما أن النتائج التي ظفرنا بها، مكررة منفرة، فهذا شيء لا نأبه له كثيراً ولا نحفل به. على أن هناك حجة أقوى من تلك وأوجه: هي أن الحالمين الذين نكاشفهم بالرغبات

والنزعات التي ننزعها من تأويل أحلامهم، يرفضونها رفضاً باتاً مدعماً بأسباب معقولة. فها هو ذا أحدهم يقول: «ما هذا، أتريد أن تبرهن لي من حلمي أني آسف على المال الذي أنفقته في بائنة أختي وفي تربية أخي؟ لكن هذا محال. فأنا لا أعمل إلا من أجل أسرتي، وليس لي هم في الحياة إلا تأدية واجبي نحوها. وهذا ما وعدت به أمي المسكينة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة». أو ما قالته امرأة: «أتجرؤ أن تدعي أني أتمنى موت زوجي؟ يا له من لغو مثير! إن قلت لك إن حياتناالزوجية سعيدة جداً فقد لا تصدق. لكن أقول لك أكثر من هذا، فلو مات زوجي، فقدت كل ما أملك في الحياة» وقد يجيبنا أحدهم بقوله: «هل تعني أني أشتهي أختي شهوة جنسية؟ يا له من هزل سخيف، إنها لا تهمني في شيء والصلة بيننا متداعية فلم نتبادل كلمة واحدة منذ سنين» تلك أمثلة مما نسمعه من الحالمين فلا نعبأ به. بل إننا لا نكترث كثيراً إذا هم لم يعترفوا أو لم ينكروا ما ننسبه إليهم من نزعات ورغبات، إذ نقول لأنفسنا إن تلك النزعات هي بعينها الأشياء التي يجهلونها ولا يفطنون إلى وجودها، فهي أشياء لا شعورية. لكنهم عندما يستشعرون في نفوسهم عكس الرغبة التي ينطق بها تأويل أحلامهم، وعندما يبرهنون لنا بسيرتهم وسلوكهم الدائم في الحياة على أن الرغبة النقيضة هي الغالبة عليهم، فمحقق أن نجد أنفسنا حيارى قد أسقط في أيدينا. ترى أليس هذا الظرف مواتياً كي نطرح فيه كل ما بذلناه من جهد في تأويل الأحلام، بعد أن أسلمت بنا نتائجه إلى «قياس الخلق».

كلا، لم يحن الوقت بعد فهذه الحجة القوية في ظاهرها لا تلبث هي الأخرى أن تتهافت حيال ما نوجهه من نقد. ذلك أن القول بوجود نزعات لا شعورية في الحياة النفسية، لا ينقضه وجود نزعات مضادة

تصول وتجول في حيـز الشعور. فـربما كـان في الحياة النفسيـة متسع لنـزعات متضـادة ولمتناقضـات يقوم بعضهـا إلى جنب بعض. بـل من المحتمل في الواقع أن يكون بروز نزعة ما شرطاً لوأد النزعة المضادة لها واستبقائها في الـلاشعور. وهنـا لا يبقى من الاعتراضـات التي وجهت إلينا، إلا القول بأن نتائج تأويل الأحلام ليست بسيطة ولا مستساغة. أما فيما يختص بالبساطة، فأحب أن أذكر لكم أنكم مهما أغرمتم بها، فلن تكون عوناً لكم على حل مشكلة واحدة من مشكلات الأحلام، إذ إن كل مشكلة من تلك تطالعنا من أول الأمر بعلاقات وظروف معقدة. وأما فيما يتعلق بالنقطة الثانية، فـلا بد أن أقـول لكم إنكم تخطئـون لو اتخـذتم الميل والهوى رائداً لكم في الأحلام العلمية، تصدقون ما يحلو لكم أن تصدقوه، وتنكرون ما يبـدو لكم كريهـاً غير مستسـاغ. لئن بدا لكم أن نتائج تأويل الأحلام تنطوي على أشياء منفرة غير مقبولة بل على أشيـاء يكتنفها الخزى والاشمئزاز، فما قيمة هذا، وما شأنه؟ لقد كنت أسمـع أستاذي «شاركوه Charcot» وأنا لا أزال طبيباً ناشئاً، يردد العبـارة الآتية في مثل هذه الأحوال: «هذا لا يحول دون وجود الأشياء». فعلينا أن نلزم التواضع، وأن نطرح العاطفـة والهوى جـانباً إن أردنـا أن نعرف حقيقـة الأشياء في هذا العالم. ولو أن أحد علماء الطبيعة استطاع أن يبرهن لكم أن الحياة العضوية على الأرض مآلها إلى الفناء بعد زمن غير بعيد، فهل منكم من يجتريء أن يقول له: «لا، هذا غير ممكن، تباً لـه من مصير أكرهه كل الكراهية»؟ لا أظن أن فيكم من سيقول هذا، بل أعتقد أنكم ستلزمون الصمت حتى يظهر فيزيقي آخر يستطيع أن يقنع الأول بخـطأ ارتكبه في مقدماته أو في حسابه. فإن صددتم وأعرضتم عما يبدو لكم غير مستطاب، فأنتم بهذا تمثلون ما يحدث في عملية انصياغ الحلم بدل أن تعملوا على فهمها والهيمنة عليها.

ربما ترون بعد هذا أن تتغاضوا عما تتسم به الرغبات المرصودة في الأحلام من طابع كدر مزعج، وأن تتساءلوا: أمن الممكن أن تنطوي طبيعة الإنسان على مثل هذا القدر الكبير من الإثم والشر؟ غير أني أسألكم: هل وجدتم في خبراتكم الخاصة ما يبرر مثل هذا التساؤل؟ لن أقول شيئاً عن آرائكم في أنفسكم، لكن هل التقيتم بكثير مما يشير إلى السلام والوئام في قلوب الناس، في رؤسائكم ومنافسيكم، وبكثير مما يشير إلى الشهامة والمروءة في خصومكم وأعدائكم وهل اختفت الغيرة والحسد من نفوس معارفكم ومن يحيطون بكم من الناس، حتى تشعروا إزاء هذا كله أن من واجبكم أن تحتجوا على ما ننسبه إلى الطبيعة البشرية من ضعة وأنانية؟ ألا تعرفون إلى أي حد يعجز الفرد من سواد الناس عن ضبط نفسه حيال كل ما يتصل بحياته الجنسية، وإلى أي حد لا يوثق به أو يعول عليه في هذه الناحية؟ أم تجهلون أن كل ضروب الزيغ والضلال التي نراها في النوم أحلاماً، جرائم يرتكبها بالفعل في كل يوم أناس وهم في حالة يقظة تامة؟ وهل يصنع التحليل النفسي في هذه الناحية أكثر من أنه يؤكد ذلك القول القديم لأفلاطون، وهو أن خيار الناس من يقنعون بأن يروا في أحلامهم ما يرتكبه الأشرار منهم بالفعل في حياتهم اليومية.

فإذا انتهيتم من النظر إلى الأفراد وأحوالهم، فانظروا إلى هذه الحرب الضروس التي لا تزال تعصف بأوروبا، وتأملوا فيما تطالع به العالم المتحضر اليوم، من مظاهر للقسوة والوحشية والإفك. أيدخل في روعكم حقاً أن قبضة من طلاب المحاسب والجاه، وممن يقدمون الرشوة ويروجون للفساد، كانت تكفي لإطلاق كل هذا الشر الكامن من مكمنه، إن لم يشاركهم في الإثم ملايين من أتباعهم؟ وهل تجترئون،

حتى في هذه الظروف، أن تحطموا سناناً واحداً في سبيل طرد الشر في الحياة النفسية للإنسان؟

قد تتهمونني بأني أنظر إلى الحرب من جانب واحد فتقولون إن الحرب قد جلت كذلك كل ما تنطوي عليه الطبيعة البشرية من نبل وجمال: بطولة الإنسان، وجوده بالنفس، وعاطفته الإجتماعية. هذا حق، لكن أرجو ألا تظلموا أنفسكم كما ظلم الناس التحليل النفسي كثيراً، فعابوا عليه أنه ينكر شيئاً لأنه يؤكد شيئاً آخر. فهيهات أن ننكر ما في الطبيعة البشرية من نزعات نبيلة، ولم يسبق لنا قط أن فعلنا شيئاً من شأنه أن يغض منها وأن يحط من قيمتها. بل الأمر على عكس هذا. فما أنتم أولاً تروني أني لا أقصر حديثي على الرغبات الخبيثة التي تفرض عليها الرقابة، بل أحدثكم أيضاً عن الرقابة التي تقمعها وتموه عليها حتى لا يتعرفها الفرد. فإذا نحن أكدنا ما هو شر في طبيعة الإنسان، فما ذاك إلا لأن غيرنا ينكرون هذا الشر على الإنسان على أن دعوى الناس تلك، ليس فيها ما يجعل الحياة النفسية للإنسان خيراً مما هي عليه، بل تجعلها أكثر غموضاً وإبهاماً. ولئن أعرضنا عن النظرة الأخلاقية التي تقوم الإنسان من جانب واحد، فليس من شك أننا سنخرج بصيغة تعبر بصورة أدق وأضبط عن العلاقة بين الخير والشر في طبيعة الإنسان.

ولنكتف بهذا القدر هنا، فإن بدا لنا أن نتائج تأويلنا الأحلام تنطوي على ما يثير الدهش والغرابة، فليس في هذا ما يحملنا على أن نهجرها وننصرف عنها. فلعلنا نستطيع فيما بعد أن نقترب من فهمها عن طريق آخر. أما الآن فليقر في أذهاننا ما يأتي: إن تحريف الأحلام يرجع إلى رقابة تفرضها نزعات معينة (يرضى عنها الأنا) على رغبات معيبة تتحرك في نفوسنا ليلاً ونحن نيام. ترى لم تنبعث هذه الرغبات المريبة بالليل

تحديداً، ومن أين تنشأ؟ هذا سؤال تتطلب الإجابة عنه استجلاء نواح عدة وإجراء بحوث أخرى.

وثمة نتيجة أخرى من نتائج بحوثنا، ليس من الإنصاف أن نتركها دون أن نقدرها بهذا الصدد، حق قدرها. ذلك أننا لا نعرف شيئاً عن الرغبات التي تنبعث في أحلامنا فتقلق نومنا، ولا نفطن إلى وجود هذه الرغبات إلا بعد تأويل الحلم، لذا يمكن أن توصف بأنها رغبات «لا شعورية وقتية»، وذلك بالمعنى الذي استعلمنا فيه هذا الاصطلاح. غير أننا يجب أن نعترف أيضاً بأنها أكثر من لا شعورية وقتية، لأن الحالم ينكرها ـ كما رأينا في حالات كثيرة ـ حتى بعد أن يظهرها له تأويل حلمه. وهذا يذكرنا بفلتة اللسان التي تورط فيها خطيب الحفل فقال. . . «إن سرورنا لا يقدر بفقد رئيسنا» فقد أكد الخطيب إذ ذاك في حنق وغيظ أنه لم يفطن قط، في ذلك الحين أو في أي حين آخر، إلى عاطفة تتضمن كرهه لرئيسه. وقد ارتبنا في صحة توكيده هذا، وفرضنا أنه لا يفطن إلى وجود هذه العاطفة في نفسه البتة. ذلك الموقف نفسه يعرض لنا كلما قمنا بتحليل حلم على جانب كبير من التحريف. وهو أمر يزيد نظريتنا أهمية ودلالة. فعسى أن نكون بهذا على أهمية لافتراض وجود عمليات ونزعات في الحياة النفسية لا نعرف من أمرها شيئاً، ولا نعرف عنها منذ عهد طويل شيئاً، بل ربما لم نعرف عنها قط شيئاً مطلقاً. وهذا يضفي على اصطلاح اللاشعوري معنى جديداً: «فها نحن أولاً نرى أن الوقتية» ليست صفة جوهرية وخاصة أساسية له، إذ قد يفيد الاصلاح معنى اللاشعوري الدائم وليس مجرد «الكمون الوقتي». وسنشبع القول في هذه النقطة فيما بعد.

الفصل العاشر

الرمزية في الأحلام

رأينا أن التحريف الذي يعوقنا عن فهم الأحلام، يرجع إلى رقابة تعترض على الرغبات اللاشعورية غير أننا لم نقرر بطبيعة الحال أن الرقابة هي العامل الوحيد المسئول عن هذا التحريف. ذلك أننا إن تعمقنا في دراسة الأحلام، تسنى لنا، في الواقع أن نكشف عن عوامل أخرى تغضي إلى هذه النتيجة. وبعبارة أخرى، لو فرضنا أن الرقابة قد ألغيت وزال أثرها، لم نستطع مع هذا أن نفهم الأحلام، ولم يترتب على هذا أن يصبح الحلم الظاهر صورة طبق الأصل من الأفكار الكامنة للحلم.

هذه العوامل الأخرى التي تؤدي إلى مسخ الحلم وغموضه، تنكشف لنا إذا أدركنا أن هناك ثغرة في خطة التأويل التي نسير عليها. لقد أسلفت لكم أن عناصر الحلم فرادى قد تعجز أحياناً عن أن تستدعي خواطر وأفكاراً أياً كان نوعها، فيمن نقوم بتحليلهم والحق أن هذه الظاهرة أقل تواتراً وحدوثاً مما يؤكده هؤلاء الأشخاص. ففي أحوال كثيرة جداً، يمكن أن ترد المستدعيات إذا نحن ألححنا ومضينا في الإلحاح. غير أن هذا لا يمنع أن نستقصي المستدعيات في بعض الأحيان استقصاء تاماً. فإن انبعث بعضها آخر الأمر كرهاً واقتساراً، لم يكن هذا ما نريده وما نتوقعه. فإذا حدث هذا في أثناء العلاج بالتحليل النفسي، كانت له دلالة خاصة لا تعيننا في هذا المقام، بيد أنه يحدث أيضاً خلال تأويل الأحلام عند الأسوياء من الناس، أو حين نقوم بتأويل أحلامنا نحن.

ومتى تأكد لنا في أمثال هذه الظروف أن أي قدر من الإلحاح لا يغني في استدعاء الخواطر والأفكار ظهر لنا آخر الأمر أن هذا الامتناع يبدو على الدوام متى كنا بصدد عناصر معينة من الحلم عندئذ يتضح لنا أننا حيال ظاهرة تحكمها قوانين معينة، وأن الأمر يبعد أن يكون حالة استثنائية أو عارضة عجزت عن تناولها خطتنا في التأويل.

ويتفق أن نأخذ في تأويل هذه العناصر «الصامتة» وأن نحاول ترجمتها بما لدينا من وسائل خاصة. والغريب أننا نصل، في كل حالة نقدم فيها على مثل هذه الترجمة والتأويل، إلى معنى يبعث على الرضا. في حين يبقى الحلم مهلهلاً لا معنى له، إن لم نلجأ إلى هذه الطريقة. فلئن صحت هذه الطريقة في عدد كبير من الحالات المتشابهة كل الشبه، تسنى لنا أن نمضي في استعمالها في غير تردد أو إحجام، وكان لها ما نصبو إليه من تأكيد ويقين.

ولئن عرضت عليكم هذا كله بصورة تخطيطية، فلا جناح علي في ذلك فمنهج التعليم يأذن لي بمثل هذا النوع من العرض، ما دام يبسط الموضوع دون أن يزيفه وأن يحرفه.

فإذا سرنا على هذا المنوال، أمكننا أن نظفر بتراجم ثابتة لطائفة من عناصر الأحلام، شبيهة كل الشبه بالتراجم التي نجدها في الكتب الشعبية الدارجة عن الأحلام، والتي تفسر كل شيء يقع في الأحلام. ولعلكم لم تنسوا أننا لا نصل إطلاقاً إلى أمثال هذه التراجم الثابتة لعناصر الأحلام: إن اصطنعنا طريقة «التداعي الطليق».

ستقولون من فوركم إن هذا الأسلوب في التأويل يبدو لكم أبعد عن اليقين وأكثر تعرضاً للنقد من أسلوب التداعي الطليق. غير أن هناك شيئاً

آخر حرياً بالذكر: فلو أننا جمعنا من الخبرات الفعلية عدداً كافياً من أمثال هذه التراجم الثابتة، لرأينا أننا بصدد تأويلات كان من الممكن أن نصل إليها استناداً إلى ما لدينا من وسائل خاصة ليس غير، وأننا كنا نستطيع أن نفهمها دون أن نلتجىء إلى مستدعيات الحالم. وسنرى في النصف الثاني من استعراضنا هذا، كيف نظفر بمعرفة دلالتها ومعناها.

وسنسمي هذه العلاقة الثابتة بين عنصر الحلم وترجمته، بالعلاقة الرمزية أما عنصر الحلم نفسه فرمز للفكرة اللاشعورية في الحلم. وعساكم أن تذكروا أننا حينما كنا نفحص العلاقات المختلفة التي يمكن أن توجد بين عناصر الحلم وبين الأفكار الحقيقية التي تستتر وراءها، ميزنا بين أنواع ثلاثة من العلاقات: إستبدال الجزء بالكل، والتلميح، والتصوير المجازي. ثم ذكرت لكم إذ ذاك أن هناك علاقة ممكنة رابعة، لم أسمها ولم أبين لكم ما هي. هذه العلاقة الرابعة هي العلاقة الرمزية التي أقدمها لكم الآن، والتي تتصل بنواح كثيرة جديدة بالمناقشة وعلى جانب كبير من الطرافة. وسنتجه الآن إلى عرض هذه النواحي، قبل أن نبسط ملاحظتنا عن الرمزية بوجه خاص. إن موضوع الرمزية ربما كان أظهر الفصول وأكثرها استرعاء للنظر، في نظرية الأحلام.

لنذكر قبل كل شيء أن العلاقة بين الرمز والفكرة المرموزة علاقة ثابتة لا تتغير، كأن الفكرة ترجمة للرمز بوجه من الوجوه فالرمزية إذن، تحقق، إلى حد ما، المثل الأعلى للتأويل الشعبي للأحلام ولتأويلها القديم، وهو مثل تنأى عنه خطتنا نأياً كبيراً. إن الرموز تمكننا في أحوال معينة من أن نؤول حلماً دون أن نسائل صاحبه الذي لا يملك، في الواقع، أن يخبرنا بشيء عن هذه الرموز. فمتى عرفنا الرموز المألوفة المشاعة في الأحلام، وعرفنا كذلك شخصية الحالم والظروف التي

تلابسه، وانطباعاته النفسية التي أعقبها الحلم، فأغلب الأمر أننا نستطيع أن نؤول الحلم رأساً، وأن نترجمه ارتجالاً إن صح التعبير. ومثل هذه الحيلة من شأنها أن تتملق غرور المؤول، وأن تبهر صاحب الحلم وتروعه. كما أنها أقل مؤونة وعناء إذا قيست بطريقة استجواب الحالم لكن حذار أن تغركم هذه الطريقة: فليس من شأننا أن نقوم بخدع وحيل، وليست هذه الطريقة في التأويل التي تقوم على الإلمام بالرموز مما يمكن أن نستبدل بطريقة التداعي الطليق، أو مما يمكن أن تقارن بها. فهي لا تعدو أن تكون تتمة لطريقة التداعي، كما أن النتائج التي تتمخض عنها ليست بذات وزن إلا حين تقترن بطريقة التداعي. أما فيما يتعلق بمعرفة الحالة النفسية للحالم، فعليكم أن تذكروا أن الأحلام التي تقومون بتأويلها ليست على الدوام لأشخاص تعرفونهم حق المعرفة وأنكم بوجه عام لا تعرفون شيئاً عن الأحداث التي وقعت للنائم في اليوم السابق لحلمه فاستثارت الحلم، وأن المستدعيات التي ترد إلى ذهن الشخص المحلل هي بذاتها المصدر الذي نتعرف منه ما نسميه «الموقف النفسي» لصاحب الحلم.

وفضلاً عن هذا فمما يستلفت النظر بوجه خاص ـ لا سيما فيما يتصل باعتبارات معينة سنتناولها فيما بعد ـ تلك المعارضة العنيفة التي أثارتها، هنا أيضاً، مسألة وجود علاقة رمزية بين الحلم واللاشعور حتى إن قوماً من ذوي المكانة والحلم السديد، وممن سايروا التحليل النفسي من نواح أخرى ردحاً طويلاً، أعرضوا عنه في هذه الناحية، ورفضوا أن يجاروه في هذا السبيل وإن موقف هؤلاء ليبدو أكثر غرابة إذا ذكرنا شيئين: إن الرمزية ليست وقفاً على الأحلام وحدها، وليست خاصة مقصورة عليها دون غيرها. الأمر الثاني: أن الرمزية في الأحلام ليست من

كشـوف التحليل النفسي ولـو أن هذا العلم لم يقصـر، في الحق، عن الإتيان بكشوف رائعة. فإذا أردنا أن ننسب هذا الكشف إلى صاحبه في العصر الحديث، فـإن صاحبـه هوالفيلسـوف «شرنـر» Scherner (١٨٦١). وقد جاء التحليل فعزز هذا الكشف وأيده، وإن كان قد تناوله بالتحويـر في نواح هامة منه.

إخالكم تودون الآن أن تستمعـوا إلى شيء عن طبيعة الـرمزيـة في الأحلام وأن تروا إلى أمثلة منها. فسأخبركم بما أعرف عن طيب خاطر، بيد أني أعترف أن معارفنا في هذه الناحية، دون ما نريد.

إن العلاقة الرمزية، في جوهرها، علاقة مقارنة، لكنها ليست مقارنة أياً كان نوعها. ولا معدل عن الظن بأنها مقارنة تتـطلب شروطـاً معينة. وإن كنا لا نستطيع أن نقول مـا هي هذه الشـروط تحديـداً. فكل شيء يمكن مقارنته بموضوع من المـوضوعـات أو بحدث من الأحـداث، لا يظهر في الحلم رمزاً لهذا الموضوع أو لـذاك الحدث، هـذا من جهة. ومن جهة أخرى فالأحلام لا تصطنع الرموز لأي شيء ولكل شيء، بل لعناصر معينة من الأفكار الكامنة للحلم. وهكذا تكون الرمزية محدودة من كلتا الجهتين. ويتعين علينا أن نصرح أيضاً بأنه ليس في وسعنا في الوقت الحاضر، أن نحدد فكرتنا عن الرمز تحديداً واضحاً لأنها تلتبس بفكـرتي «الإبدال» و«التصـوير» وغيـرهما. بـل إنهـا تقتـرب من فكـرة «التلميح» قرباً كبيراً. ففي طائفة من الرموز، تكون المقارنـة التي تقوم عليهـا واضحة جليـة، غير أن هنـاك رمـوزاً أخـرى تحتـاج إلى البحث والتـدقيق لمعرفـة العامـل المشترك، أو «الجـامـع» في هـذه المقـارنـة المفترضة. وقد يهيىء لنا التأمل والتفكر العميق أحياناً، أن نكشف عن هذا العامل المشترك، أو يظل مختفياً عنا أصلاً في حين آخـر. يضاف

إلى هذا أن الرمز إن كان مقارنة حقاً، فمن العجيب ألا تكشف لنا عملية التداعي الطليق عن هذه المقارنة، وألا يعرف صاحب الحلم عنها شيئاً، بل يستخدمها على غير علم منه بموضوعها، وأكثر من هذا أنه لا يقبل بالفعل أن يعترف بها متى كوشف بأمرها. من هذا ترون أن العلاقة الرمزية مقارنة من نوع خاص غريب لا نزال نجهل طبيعته وأسبابه. وعسى أن نجد فيما يلي دلائل تلقي بعض الضوء على هذا الكم المجهول.

إن عدد الأشياء التي تصور في الأحلام تصويراً رمزياً ليس بكثير. منها جسم الإنسان في جملته، والأبوان والأطفال والأخوة والأخوات والولادة والموت والعرى - وشيء أكثر من ذلك. . . ! والتصوير النموذجي الوحيد أي المطرد لجسم الإنسان في جملته، هو المنزل، هذا ما اعترف به الفيلسوف «شرنر» من قبل، وقد أراد أن ينسب إليه دلالة شاملة لا ترجع إليه في الواقع. وكثيراً ما يرى النائم نفسه يهبط من واجهة منزل وقد لابسه شعور سار لذيذ، أو شعور بالرعب والفزع فإذا كانت جدران المنزل ملساء فالمنزل يعني رجلاً، وإن كانت تعترضها نتوءات وشرفات يمكن الإمساك بها، فالمنزل يرمز إلى امرأة. أما الأبوان فيبدوان في الأحلام في صورة ملك وملكة أو امبراطور وإمبراطورة أو غير تلك من الشخصيات الفخمة. أي أن الحلم يحيطهما بما هما خليقان به من احترام وتبجيل. وهذا على خلاف ما يعامل به الأطفال والإخوة والأخوات، فهو لا يتلطف في الإشارة إليها، إذ يرمز لها بالحيوانات الصغيرة أو الديدان. وأما الولادة فيكاد يصورها الحلم دائماً بإشارة إلى الماء. فيرى النائم أنه يلقي بنفسه في الماء، أو أنه يجهد في الخروج منه، أو يرى أنه ينتزع شخصاً من الماء، أو أن أحداً ينقذه منه. وفي هذا

رمز إلى العلاقة بين الأم والطفل. والحلم يرمز إلى الموت المرتقب ، رحلة أوسفرة في قطار، في حين يرمز إلى حالة الموت بإشارات مختلفة مبهمة مشئومة. أما العرى فيرمز إليه بملابس وبزات رسمية. من هذا نرى أن الحد الفاصل بين التصوير الرمزي وبين التصوير بالإشارة والتلميح يميل إلى أن يتلاشى في هذه الحالات.

في مقابل هذه الرموز القليلة المحدودة، ثمة ميدان آخر يشار إلى الأشياء والموضوعات فيه برموز تبهر وتروع لما هي عليه من تنوع وثراء. وأعني بذلك ميدان الحياة الجنسية وما يحتويه من أعضاء تناسلية وأفعال جنسية وتواصل جنسي. فإذا عرفنا أن الغالبية الساحقة من الرموز في الأحلام رموز جنسية، ألفينا أنفسنا بصدد مقابلة عجيبة لا تناسب البتة بين طرفيها: فالموضوعات التي يرمز إليها قليل عددها، في حين أن الرموز التي تشير إليها على جانب كبير من الوفرة والتعدد، بحيث إن كل موضوع من هذه الموضوعات القليلة يمكن التعبير عنه بعدد ضخم من الرموز. تتكافأ جميعها من حيث قيمتها ودلالتها. فإذا ما أخذنا في تأويل هذه الرموز، طالعنا أمر ليس مما يرتاح إليه فبينما يمثل الشيء الواحد بصور شتى في الأحلام، إذا بالتأويلات جميعها تعتبر واحدة. . . وهذه واقعة لا يبتهج بها من قدر له أن يخبرها. لكن ما حيلتنا في ذلك؟

وبما أن هذه المرة الأولى التي نتصدى فيها للحياة الجنسية في محاضراتنا فأرى لزاماً عليَّ أن أشرح لكم الطريقة التي أقترح أن أتناول بها هذا الموضوع: إن التحليل النفسي لا يرى داعياً إلى المواربة والكلام المستور، ولا يرضى بإشارات غير مباشرة، كما أنه لا يرى داعياً إلى الاستحياء والتحرج في معالجة موضوع خطر كهذا. بل يرى من الخير والصواب أن يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقة. فهو يأمل بهذا أن

يتفادى ضروب الرياء التي ليس من ورائها إلا اضطراب البحث وتهويشه. ولن يغير شيئاً من هذا أني أتحدث إلى مستمعين يمثلون الجنسين جميعاً. فليس ثمة علم يمكن أن يعالج على طريقة العرافين الذين يبدون الحسن ويخفون القبيح، أو أن يكيف حتى يرضي الساذجات من تلميذات المدارس والحاضرات من النساء بيننا، يعبرن بحضورهن ضمناً، عن رغبة في أن ينظر إليهن كما ينظر إلى الرجال سواء بسواء.

يرمز الحلم إلى الأعضاء الجنسية للرجل بطرق مختلفة شتى، يكون العامل المشترك للمقارنة فيها واضحاً جلياً في أغلب الأحيان. فالجهاز التناسلي للرجل يشار إليه في جملته بالرقم المقدس ٣. وإن أظهر جزء فيه، وأكثر ما يهم الجنسين جميعاً، وهو القضيب، يرمز إليه في المقام الأول بأشياء تشبهه في شكله، بأشياء مستطيلة منتصبة كالعصي والمظلات والأغصان والأشجار وما يشبهها كما يرمز إليه أيضاً بأشياء تشترك مع الرموز في قدرتها على ولوج الجسم وإذائه كالأسلحة المدببة بمختلف أنواعها: المدي والخناجر والحراب والسيوف، أو بالأسلحة النارية كالبنادق والغدارات وخاصة المسدسات، فهي رمز ملائم جداً للمقارنة نظراً لشكلها الخاص. ففي أحلام الجثام عند الفتيات، كثيراً ما ترى الفتاة رجلاً يطاردها وفي يده مدية أو بندقية. وربما كان هذا الرمز أكثر الرموز تواتراً في الأحلام: وليس في تأويله صعوبة ما. كذلك قد يشار إلى العضو الذكري بأشياء يتدفق منها الماء كالصنابير والنافورات والرشاشات وهي إشارات لا يصعب فهمها هي الأخرى. كما يستعاض عنه أيضاً بأشياء قابلة للاستطالة كالمصابيح المدلاة في بكر وكالأقلام التي تطول وتقصر وغيرها. وليس من شك في أن الأقلام وريش الكتابة

ومبارد الأظافر والمطارق وغير تلك من الأدوات رموز جنسية ذكرية تقوم على فكرة عن عضو الذكورة لا يشق فهمها أيضاً.

ومـا يتسم به هذا العضو من خاصة غريبة هي قدرته على أن ينتشر إلى أعلى كأنه يتحدى قانون الجاذبية (وهي جزء من ظاهرة الإنتصاب)، فقد يرمز إليه بالمناطيد والطائرات. على أن الأحلام تشير إلى الانتصاب بوسيلة أخرى أشد تأثيـراً وأبلغ في التعبير من تلك، فهي تجعـل عضو التناسل يتقمص الشخص نفسه، فإذا بالنائم يرى نفسه يطير. فلا ترتاعوا إن ذكرت لكم أن أحلام الطيران التي تعرفونها جميعاً، والتي تبدو غالباً على درجة كبيرة من الجمـال يجب أن تؤول على أنها أحـلام أساسهـا إهتياج جنسي عام، أي ظاهرة الإنتصاب. وقدأيد«فيدرن» P. Federn أحد أنصار التحليل النفسي صدق هذا التأويل بأدلة لا تقبل التنفيذ. بل لقد قام أحد الباحثين«مورلي فلد» Morly Vold وهو ممن يعرفون برزانة الحكم، وممن تبتعد نظرياتهم عن نظريات التميل بعداً كبيراً (بل ربما لم يكن يعرف عنها في الـواقع شيئـاً) قـام بتجـارب تتلخص في وضع الأذرع والسيقان في أثناء النوم في وضعات مصطنعة، فخـرج من ذلك بنفس النتائج. وإخالكم تعترضون بأن النساء أيضاً يـرين في النوم أنهم يطرن فأرجو أن تذكروا أن غرض الأحـلام تحقيق الرغبـات، وأن رغبة المرأة في أن تكون رجلاً، من الرغبات المشاعة عند النساء، سواء كانت رغبة شعورية أو لا شعوريـة. ومن منكم، على علم بالتشـريح، لم يـرَ عجبـا في أن تكون المـرأة قادرة على تحقيق هـذه الرغبـة، عن طريق إحساسات شبيهة بما يشعر به الرجل؟. ذلك أن الجهاز التنـاسلي للمرأة يشتمل على عضو صغير يشبه القضيب، وأن هذا العضو، وهو ما يعرف بالبظر، يقوم في أثناء الطفولة وفي السنوات التي تسبق التواصل الجنسي

بنفس الدور الذي يقوم به القضيب عند الذكر الكبير.

ومن الرموز الجنسية الذكرية ما هو أعصى على الفهم من الرموز السابقة كالزواحف والأسماك وأهم هذه جميعاً ذلك الرمز الشهير وهو الثعبان. أما الرمز بالقبعات والمعاطف لتلك المعاني، فمما يصعب حدسه دون ريب، وإن كانت دلالتها الرمزية مما لا مراء فيه. ويبدو لنا أن نتساءل أخيراً عما إذا كان تمثيل العضو الذكري بعضو آخر كاليد أو القدم مما يمكن اعتباره تمثيلاً رمزياً. أعتقد أننا إذا نظرنا إلى الحلم في جملته وملابساته، وإلى ما يقترن بهذين العضوين من رموز أنثية وجدنا أنفسنا مرغمين على قبول هذه النتيجة والتسليم بهذه الدلالة.

أما الأعضاء التناسلية للمرأة فيرمز إليها بجميع الأشياء التي تشاركها من حيث وجود فجوة فيها، أو من حيث قابليتها لأن تكون أوعية ومستودعات: كالحفر والتجاويف الكهوف والقوارير والمطربانات والصناديق مختلفة الأنواع والأحجام والكالصوانات والعلب والجيوب وغيرها. كذلك السفن أيضاً. وثمة رموز أخرى تشير إلى الرحم أكثر مما تشير إلى الأعضاء التناسلية الأخرى، منها: خزانات الملابس والأفران، وفوق هذه وتلك الغرف. والرمز بالغرف يرتبط هنا برمزية المنازل، وبذا تكون الأبواب والبوابات رموزاً تشير إلى الفتحات التناسلية. يضاف إلى هذا أن هناك مواد مختلفة تستعمل رموزاً للمرأة ـ كالخشب والورق أو ما يصنع منهما كالموائدوالكتب ـ. فإذا اتجهنا إلى عالم الحيوان. وجدنا القواقع وبلح البحر من الرموز الأنثية التي لا يخطئها التقدير. ولنذكر علاوة على هذا أن الفم هو أحد أعضاء الجسم التي يرمز به إلى الفتحة التناسلية، وأن الكنائس والمعابد مما يشار به إلى المرأة. من هذا ترون أن هذه الرموز لا تستوي جميعها من حيث سهولة فهمها.

ومما يجب اعتباره ضمن الأعضاء الجنسية: الثديان وردفا المـرأة، ويرمز إليها عادة بالتفاح والخوخ والفواكه إجمالاً. أما شعر العانة عند كلا الجنسين فيصور في الأحلام بغابات وأدغال. على أن التكوين المعقـد للجهاز التناسلي عند المرأة مما يجعله يبدو في الحلم غالباً في صـورة منـظر طبيعي تغشـاه الصخـور والأشجـار والمـاء في حين أن التكـوين المهيب للجهاز التناسلي عند الرجل مما يجعله يرمز إليه بآلات معقـدة ذات أنواع شتى من العسير وصفها.

ومن الرموز الجديرة بالذكر للجهاز التناسلي للأنثى علبـة الحلى. فالحلية والكنز مما يشار به، حتى في الأحلام، إلى الشخص المحبوب. أمـا الحلوى فتقـوم في الغـالب رمـزاً إلى التلذذ الجنسي. والإشبـاع الجنسي الذي يتاح من اللعب بالأعضاء التناسلية يرمز إليـه في الأحلام بكل أنواع اللعب ومنها اللعب على البيانو في حين يرمـز إلى الاستمناء بالتزحلق والإنزلاق وانتزاع غصن من الشجر. ومن الرموز التي تسترعي الإنتباه بوجـه خاص سقـوط سن أو انتزاعهـا ومن المحقق أن الدلالـة البـدائية لهـذا الرمـز هي الخصاء عقـاباً على مـزاولة الاستمنـاء. ومـن الغريب أن الرموز الخاصة بالعملية الجنسية أقل شيوعاً في الأحلام مما نتوقع، خاصة بعد أن سردنا ما سردنا من رموز. فمن الرموز التي يمكن أن تذكر بهذا الصدد، أوجـه النشاط المـوقع كـالرقص وركـوب الخيل والتسلق وكـذلك بعض الحـوادث العنيفة، كـأن يرى النـائم أن سيـارة تدعسه، هـذا إلى بعض الأعمال اليـدوية وأن يـرى النائم نفسـه مهدداً بسلاح.

إن استخدام هذه الرموز في الأحـلام وترجمتهـا ليسا من السهـولة

بمثل ما قد تظنـون فنحن نلتقي في كلتا الحـالتين بأشيـاء وتفاصيـل لا نتـوقعها. من تلك مـا يشق علينا تصـديقه، كـألاّ يميز بين الجنسين المختلفين تمييزاً فاصلاً في هذه التصاوير الرمزية غالباً. فكثير من الرموز يشير إلى الأعضاء الجنسية إجمالاً ـ ذكرية كانت إم أنثية ـ كتلك الرموز التي تبدو في صورة طفل صغير أو إبن صغير أو إبنة صغيرة. وقـد يستعمل الـرمز الـذكري لـلإشارة إلى جـزء من الجهاز التنـاسلي للأنثى عكس هـذا، وسيظل هذا الأمر مستعصياً على الفهم حتى تزاد معرفتنا بتطور الجنسية ورموزها عند الإنسان. على أن هذا التخليط في الرموز قد يكون في كثير من الأحيان ظاهرياً أكبـر منه حقيقيـاً. يضاف إلى هـذا أن أكثر الـرموز ظهـوراً وبـروزاً، كـالأسلحـة والجيـوب والصنـاديق، لا تستعمـل على الإطلاق إستعمالاً خنثوياً.

والآن أقدم لكم بياناً موجزاً، أستهله بالـرموز ذاتهـا لا بما تصـوره حتى تتضـح لكم المصادر التي تشتق منهـا الرمـوز الجنسيـة في أغلب الأحوال، وسأضيف إلى هذا بضع ملاحظات تتصل خاصة بالـرموز التي تكـون صفتها المشتـركة مـع الأشياء المـرمـوزة خـافيـة يصعـب فهمهـا والكشف عنها. من أمثال هذه الرموز الغامضـة القبعة، أو ربمـا أغطيـة الرأس إجمالاً، فهي رموز لها دلالة ذكرية عادة، لكنها تتخذ دلالة أنثية أحياناً. كذلك المعطف فهو يدل على الرجـل عادة، ولـو أنها دلالـة لا تشير إليه من الناحية الجنسية أحياناً. وقد يكون لكم أن تتساءلوا عن السر في هذا. وواضح أن يكون رباط العنق رمزاً ذكرياً لأنه شيء يتدلى ولا تلبسه النساء، في حين تكون الرقائق الشفافة البيضاء، بوجه عام، رموز أنثية وقد أسلفنا أن الملابس والبزة الرسمية تمثل العري أو شكل الجسم الإنساني. كذلك تستخدم الأحذية والأخفاف رموزاً لأعضاء التناسل عند

المرأة. ولعلكم لم تنسوا أننا ذكرنا الخشب والموائد على أنها من الرموز المحيـرة. بيد أنهـا تشير دون ريب إلى الأنثى. ولا مراء في أن عملية الصعـود على سلم أو درج، أو ارتقاء جـرف، مما يـرمـز إلى العمليـة الجنسية. فلو أننا تأملنا الأمر، لوجدنا أن الطابع الإيقـاعي للصعود هـو الصفة المشتركة بين هاتين العمليتين. وربما كان المراد الإهتياج وقصر التنفس اللذان يصاحبان هاتين العمليتين صفة مشتركة كذلك.

لقد قدمنا أن المناظر الطبيعية تمثل الجهاز التناسلي للمرأة. كذلك تتخذ الجبال والصخور رموزاً للقضيب. كما أن الحدائق رمز كثير الذيوع لأعضاء التناسل للمرأة. أو التمرة فرمزإلى الطفل. والحيوانات المتوحشة تشيـر إلى أنـاس في ثـورة وهيجـان ومن ثم فهي تشيـر إلى الأهـواء والإندفاعات الشريرة الخبيثة. يضاف إلى هذا أن البراعم والزهور تصور الأعضاء الجنسية للمرأة. ومن عهد البكارة على التخصيص ونذكر بهذا الصدد أن البراعم هي أعضاء التناسل في النباتات بالفعل.

وقد أسلفنا إلى مـا ترمـز إليه الغـرف. ومن الممكن أن يبسط هذا التمثيل بحيث النوافذ والأبواب (مخارج الغرف ومداخلها) دلائـل على فتحات الجسم، وبحيث تندرج الغرف المفتوحة والغرف المغلقـة في نطاق هذه الرمزية أيضاً. أما المفتاح الذي يفتحها فرمز ذكري على وجه التحقيق.

هـذا بعض ما أقـدمه لكم من مـادة تعيننا على دراسة الرمـزية في الأحلام. وهيهات أن تكون مادة كـاملة، وإن كنا نستـطيع أن نـزيدهـا اتساعاً وعمقاً. على أني أعتقد أنها تلوح لكم أكثر مما يكفي، بل ربما بدت في أعينكم مستكرهة غير مستساغة، فتتساءلون: «أنعيش حقاً في

عالم من الرموز الجنسية؟ أو كل ما يحيط بنا من مواد، وكل ما نلبسه من ملابس، وكل ما نتناول من أشياء، أكل أولئك رموز جنسية ولا شيء غيرها؟» الحق أن هناك مجالاً لأسئلة يكتنفها الدهش والإستغراب، لعل أولها أن يقول أحدكم: «كيف نستطيع أن نتعرف دلالة الرموز في الأحلام، ما دام الحالم نفسه لا يزودنا بأية معلومات عنها إلا أن تكون معلومات زهيدة بتراء؟».

وأجيب عن هذا بأننا نستمد هذه المعرفة من مصادر شتى: من الأساطير والخرافات، من النكات والفكاهات ومن الأدب الشعبي أي مما نعرف من العادات والعرف، ومن الحكم والأغاني في الشعوب المختلفة، ومما نعرفه عن لغة الشعر واللغة الدارجة للقوم. فحينما بحثنا في هذه الميادين المختلفة، التقينا بنفس الرمزية، حتى لنستطيع أن نفهمها، في كثير من هذه الميادين، دون علم سابق بها. ولو أننا تأملنا هذه المصادر المختلفة واحداً بعد آخر، لوجدنا فيها أوجهاً كثيرة للشبه برمزية الأحلام، مما يحملنا على الإقناع بصحة تأويلنا.

لقد قدمنا أن جسم الإنسان غالباً ما يرمز إليه بمنزل، فيما يراه الفيلسوف «شرنر» فإذا بسطنا هذا التصوير الرمزي، كانت النوافذ والأبواب والبوابات إشارات إلى مداخل تجاويف الجسم. أما واجهات المنزل، فإما أن تكون ملساء وإما ذات شرفات وطنف يمكن الإمساك بها والإرتكاز عليها. هذه الرمزية نفسها مما نلتقي به في ثنايا اللغة الدارجة: فنحن نقول عن صديقنا إنه «منزل قديم»، كما نصف أحداً من الناس فنقول إن «طابقه العلوي ليس على ما يرام». وفي علم التشريح أيضاً تسمى فتحات الجسم «بالأبواب Portals».

وقد ندهش باديء ذي بدء إذ نرى الأبوين، يظهران في الأحلام على صورة ملك وملكة، أو إمبراطور وإمبراطورة، لكننا نجد شبيهاً لهذا في القصص الخرافية. ألم يبد لكم في كثير من هذه القصص التي تبدأ بالعبارة «ذات مرة كان هناك ملك وملكة» أن هذه الصيغة وما هي إلا بديل رمزي عن العبارة «ذات مرة كان هناك أب وأم»؟ وفي أحضان الأسرة، يداعب الأطفال أحياناً بأن يسموا أمراء، كما يسمى كبيرهم ولي العهد ثم إن الملك نفسه يدعى أبا الرعية يضاف إلى هذا أن صغار الأطفال كثيراً ما يدعون على سبيل التفكه، بأسماء صغار الحيوانات، فيقال عنهم في ألمانيا الديدان الصغيرة.

ولنعد إلى رمزية المنزل ومشتقاتها: فحين نرى في النوم أننا نتخذ من طنف المنزل مساند وركائز، ألا يذكرنا هذا بقول الدهماء في ألمانيا، عندما يلتقون في الطريق بامرأة بارزة الصدر: «لديها ما يمكن الإستناد عليه»، وثمة عبارة دارجة أخرى يرددها هؤلاء أيضاً: «أمام منزلها خشب كثير». كأن في قولهم هذا ما يؤيده تأويلنا الذي يرى أن الخشب رمز مؤنث للأم.

وما دمنا قد عرضنا لموضوع الخشب، فثمة شيء يجدر أن يضاف إليه. ذلك أنه يشق علينا أن نفهم. لمَ يتخذ الحلم من الخشب رمزاً يشير إلى المرأة أو إلى الأمر؟ ولعلنا نستطيع أن ندرك السبب في هذا لو قارنا بين الألفاظ في لغات مختلفة. فالخشب يدعى بالألمانية Holg. ويقال إن هذه الكلمة مشتقة من نفس الأصل الذي اشتقت منه الكلمة اليونانية التي تعني «مادة»، «مادة خام». وهذا مثال لعملية شائعة تتطور خلالها معاني الكلمات، فإذا بالإسم الذي يطلق على المادة إجمالاً انتهى به الأمر ألا يطلق إلا على مادة خاصة ليس غير. من تلك أن جزيرة

بـالمحيط الأطلسي تسمى «ماديـرا Madeira»، وهو إسم أطلقـه عليهـا البرتغاليـون عندمـا استكشفوهـا، لأنها كـانت في ذلك الحين، مغـطاة بغابات كثيفة، وكلمة ماديرا Madeira معناها الخشب بـالبرتغـالية. ولا شك أنكم لاحظتم أن كلمة «ماديرا» هذه ليست إلا صورة محورة للكلمة الـلاتينية Materia التي تعني «مـادة Material» بوجـه عام والـواقـع أن Materia مشتقة من كلمة Mater التي تعني الأم. فالمادة التي يصنع منها أي شيء يمكن اعتبارها كأنها تمخضت عن هذا الشيء وولدته. وهكذا نجد بقية من تلك الفكرة القديمة في الاستعمال الرمزي للخشب للدلالة على المرأة أو الأم.

أما الولادة فيعبر عنها في الأحلام دائماً بشيء أو فعل يتصل بالماء. فإذا رأى النائم أنه يغوص في الماء، فهذا يعني أنـه يلد، وإذا رأى أنه يخرج من الماء، فهذا رمز إلى أنه يولد، ولا يغرب عن بالنا أن هذا الرمز يشير إلى الحقائق الثابتة في نظرية التطور إشارة مزدوجة. ذلـك أن كل الثدييات البرية التي نشأت منها السلالة الإنسانية انحدرت من كائنـات كانت تعيش في الماء. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكل حيوان ثديي وكل إنسان قد أمضى المرحلة الأولى من وجوده في الماء، يوم كان جنيناً يكتنفه السائـل الأمينوني في رحم الأم. فمـولده إذن يعني خـروجه من الماء. ولا أقول لكم إن الحالم يعرف هذا، بل أرى أنه ليس في حاجة إلى أن يعرفه وأكبر الظن أنه يعرف شيئاً آخر مما يحكى له في طفولته. غير أني أوكد لكم أن هـذه المعرفـة نفسها لم تفض إلى تكـوين الرمـز بشيء. لقد جرت العادة أن يقال للأطفال إن طائر الفلق هو الذي يأتي بالأطفال. لكن أين يجد هذا الطائر الأطفال؟ إنه يجدهم في بركة أو في بئر ـ أي أننا نعود دائماً إلى الماء ـ. لقد ذكرت هذه الخرافة لأحد مرضاي

يوم كان طفلاً (وكان إذ ذاك أميراً صغيراً)، ثم اتفق أن اختفى بعد ذلك أصيل يوم بأكمله، فألفوه آخر الأمر منبطحاً على حافة بحيرة القصر ينظر بإمعان من فوق صفحة الماء الصافي، باحثاً في قاعه عن أطفال صغار.

لقد قام «ا. رانك O. Rank» بدراسة مقارنة للأساطير التي تدور على ولادة الأبطال ـ وأقدمها أسطورة تتناول ولادة « سرجون الأول » ملك أكاد، حوالي سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد فوجد أن الانغماس في الماء والإنقاذ من الماء يقومان بدور هام. كما فطن إلى أنهما يرمزان إلى الولادة بطريقة تشبه ما يحدث في الأحلام. فمتى رأى النائم أنه ينقذ شخصاً من الماء، فإنه يكون بهذا قد جعل من هذا الشخص أماً باختصار. والأمر بالمثل في أساطير الأولين: فمن أنقذت طفلاً من الماء، أقرت بأنها أمه الحقيقية. وثم فكاهة معروفة عن ولد ذكي من اليهود سئل عمن كانت أم موسى، فأجاب من فوره: «إنها الأميرة»، فلما قيل له إن الأميرة لم تزد على أن انتشلته من الماء، أجاب: «هذا ما قالته هي» فأظهر بذلك أنه يدرك الدلالة الصحيحة للأسطورة.

ويعتبر «الرحيل» من الرموز التي تنوب في الأحلام عن الموت. وهذا شبيه بما يقال للطفل حين يسأل عن شخص مات والطفل يفتقده، فنجيبه بأنه سافر ورحل. على أني أود أن أصرح هنا، مرة أخرى، بأن ذلك الجواب المراوغ ليس في ظهور هذا الرمز في الأحلام كذلك نرى شعراء يصطنعون هذا الرمز نفسه حين يتكلمون عن الدار الآخرة «كأنها منطقة مجهولة لا يعود منها سائح أبداً». هذا إلى أننا في أحاديثنا اليومية، قد ألفنا أن نتكلم عن «الرحلة الأخيرة». وكل من ألم بالحفلات الدينية في العهود القديمة يعرف أن القوم كانوا ينظرون إلى هذه الفكرة نظرة جديدة إلى حد بعيد ـ كما كان الشأن عند قدماء المصريين. ولدينا اليوم

نسخ عدة من «كتاب الموتى» الذي كان يعطي للمومياء كما يعطي دليل المدن للسائحين اليوم، كي يرافقها في الرحلة الأخيرة. وبما أن قبور الموتى كانت تبنى بعيدة عن بيوت الأحياء، فقد أصبحت هذه الرحلة الأخيرة للموتى حقيقة واقعة.

والأمر بالمثل في الرمزية الجنسية، فهي ليست وقفاً على الأحلام وحدها. فكلكم يعرف أن عبارة «علبة قديمة» مما تسب به المرأة وتشتم، لكن الناس قد لا يعلمون أنهم يستخدمون رمزاً تناسلياً، ومن الإنجيل «إن المرأة وعاء ضعيف». هذا إلى أن الكتب المقدسة عند اليهود، تلك التي يقترب أسلوبها قرباً كبيراً من أسلوب الشعر، تزخر بتعبيرات مستعارة من الرمزية الجنسية، وصيغ لم تفهم على الدوام فهماً صحيحاً، وقد أدى تأويلها في سفر «نشيد الإنشاد» مثلاً، إلى ضروب كثيرة من سوء الفهم. وفي الآداب العبرية التي جاءت بعد ذلك، تصور المرأة بمنزل في كثير من الأحيان، كما يشار إلى الفتحة التناسلية بالباب. من ذلك أن الزوج يشتكي من زوجته حين يجدها غير عذراء فيقول إنه «وجد الباب مفتوحاً» كذلك يرمز إلى المرأة بالمائدة في هذا الأدب، فتقول المرأة عن زوجها «لقد مهدت له المائدة لكنه قلبها». كما يحكى أن الأطفال المعقدين تصيبهم هذه العاهة لأن الزوج «يقلب المائدة». وأود أن أشير إلى أني اقتبست هذه المعلومات من رسالة «ليفي ده برن Levy in Brunn» عن «الرمزية الجنسية في التوراة والتلمود».

هذا وقد جاء علماء أصول الكلمات يؤيدون ما نعتقده من أن «السفينة» في الأحلام، تصوير رمزي للمرأة: فكلمة Schife (سفينة) التي كانت تستخدم أصلاً للدلالة على وعاء من الآجر ليست في الواقع إلا تحويراً لكلمة Schaff (أي الدن أو الوعاء الخشبي) أما ما نراه من أن

الفـرن رمز للمـرأة أو لـرحم الأم فتـأويـل تعـززه الأسـطورة اليـونـانيـة عن«بريندروس» الكـورنثي Perinder وزوجته ميليشـا. ففي هذا يقـول هيرودوتس أن ذلك الجبار بعد أن دفعته الغيرة إلى قتـل زوجته، وكـان يحبها حباً جماً، أخذ يستحلف طيفها ويناشـده أن يخبره بشيء عنهـا. إذاك حضرت الزوجة المتوفاة وأخبرتـه (أي بريـنـدروس) أنه «كـان يضع خبزه في فرن بارد» فعبرت بهذا، في صورة مقنعة، عن حالة لا يعرفها شخص آخـر ويحـدثنـا «ف. س كـراوس F. S. kraus» في كتـابـه Arthropophyteia ـ وهو مرجع لا يستغنى عنه في كل ما يتصل بالحياة الجنسية لمختلف الشعوب ـ أن في بعض مناطق ألمانيا، يقال عن المرأة التي انتهت من الوضع «أن فرنها قد تحطم». أما إشعال النار، وكل مـا يتصل به، فمن الأشياء المشبعة بالرمزية الجنسية تشبعاً كبيـراً. فاللهب يرمز أبداً إلى القضيب، في حين يرمز الموقد أوالمدفأة إلى رحم المرأة.

لئن عجبتم أن تشيع المناظر الطبيعية في الأحلام رمزاً إلى الجهاز التناسلي للمرأة، فليس عليكم إلا أن تقرأوا ما كتبه علماء الأساطير عن الـدور الكبير الـذي قامت بـه أمنا الأرض في أفكـار الشعوب القـديمة وعبـاداتها، وإلى أي حـد كانت هـذه الرمـزية تعين تصـورهم للزراعـة وأفكـارهم عنها. وقـد نميل بكم اللغـة الدارجـة إلى أن تلتمسوا فيهـا الأسباب التي جعلت الغرفة في الأحلام رمـزاً إلى المرأة. ألسنـا نقول Frauerzinner (ومعنـاها الحـرفي «غرفـة المرأة») بـدل أن نقول Frau (امرأة). فنكون بهذا قد استعضنا عن الشخص الإنساني بالمكان الذي يعمل فيه؟ كذلك نقول «الباب العالي» للدلالة على السلطان وحكومته. وقد كان حاكم مصر قديماً يدعى فرعون، وهي كلمة تعني «الفناء الكبير» من الشـرف القديم، كـانت الأفنية الـواقعـة بين البـوابـات المـزدوجـة

للمدينة، أماكن للاجتماع، كأماكن الأسواق في العصور المأثورة. غير أني أعتقد أن هذا الاشتقاق سطحي أكثر مما ينبغي. وأكبر الظن عندي أن الغرفة جاءت رمزاً للمرأة لأنها تحتضن الإنسان بين جنباتها. وقد سبق لنا أن التقينا «بالمنزل» في هذا المعنى. ثم إن ما جاء بالشعر والأساطير ليبيح لنا أن نعتبر المدن والقصور والقلاع والحصون رموزاً أخرى إلى النساء. والقول الفصل في هذا ميسر لو رجعنا إلى أحلام قوم لا يتكلمون الألمانية ولا يفهمونها. من هذا أن قدر لي في السنوات الأخيرة أن أعالج عدداً كبيراً من المرضى الأجانب، وأذكر أن الغرف كانت تنوب في أحلامهم عن النساء، مع أن لغتهم لا تشتمل على كلمة تشبه Frauerziner في الألمانية. وثمة أمارات أخرى على أن الرمزية قد تتجاوز نطاق اللغة ـ وهذه حقيقة سبق أن اعترف بها «شوبرت Schubert» معبر الأحلام القديم، عام١٨٦٢. على أني يجب أن أقول لكم إن أحداً من مرضاي لم يكن يجهل الألمانية جهلاً تاماً، لذا يتعين علي أن أدع هذا الأمر يفصل فيه المحللون ممن يستطيعون أن يجمعوا ملاحظات، في أقطار أخرى، من أشخاص يتكلمون لغة واحدة فحسب.

أما فيما يتعلق بالرموز التي تشير إلى العضو التناسلي للرجل، فليس من بينها رمز واحد لا تعبر عنه اللغة الدارجة في صورة هزلية أو عبارة مبتذلة أو في صيغة شعرية، كما كان يفعل القدامى من الشعراء المأثورين. هنا لا نلتقي بالرموز التي تبدو في الأحلام فحسب، بل وبرموز جديدة أيضاً. من أمثالها الأدوات التي تستخدم في أنواع مختلفة من الأعمال وخاصة المحراث. والحق أن ميدان الرموز الذكرية متسع مسرف في الاتساع كما يكتنفه الجدل والنزاع من كل جانب لذا سنتفاداه حتى لا نضيع وقتاً. بل أريد أن أدلي ببضع ملاحظات عن رمز يقوم

بذاته، إن صح التعبير. ذلك هو الرقم ثلاثة وسواء اشتق هذا الرقم طابعه المقدس من دلالته الرمزية، أم كان الأمر غير ذلك، فتلك مسألة نتركها دون أن نبت فيهـا. والذي لا ريب فيـه أن في الطبيعـة عدداً كبيـراً من الأشياء المثلثة (كالنقل ذي الأوراق الثـلاث مثلاً) تستعـار أشكالهـا في تصميم الشارات والشعارات نـظراً لدلالتهـا الرمـزية، وإن زهـرة الزنبق المسماة «بالفرنسية» ذات الشعب الثلاث، وذلك الشعار الغريب الـذي تتخذه جزيرتان متناثيتان، هما جزيرتا صقلية ومان (وهو شكل مكون من ثـلاث أرجل منحنيـة تنبعث من نقطة مـركـزيـة)، ليسـا في نـظري إلا صورتين مقنعتين لعضو الذكورة. فقد كانت صور هذا العضو، تعتبر في العصور القديمة، أقوى ذريعة لدرأ الأرواح الشريرة واتقائها (تعـاويذ). وربما نجد بقية لهذا الاعتقاد في أن التمائم التي يلبسها الناس، في يومنا هـذا، جلباً للحظ الحسن، لا تعـدو أن تكـون كلهـا رمـوزاً جنسيـة أو تناسلية. فلو استعرضنا مجموعة من هـذه التمائم التي تصـاغ في شكل تعـاليق صغيرة من فضـة، لوجـدنـا من بينهـا: نفلة ذات أربـع أوراق، وخنزيراً، ونبات عيش الغراب، وحدوة فرس، وسلماً، ومنظف مداخن. أما النفلة ذات الأوراق الأربع فقد قامت مقام ذات الأوراق الثلاث التي كانت رمزاً أنسب في الواقع. وأما الخنزير فرمز قديم للخصب والإنتاج، في حين أن عيش الغـراب رمزاً لا نـزاع فيـه للقضيب، حتى إن هنـاك فصائل من هذا الفطر تشتق اسمها من مشابهتها الأخاذة لهذا العضو Phallus Inedicus. ثم إن حدوة الفرس صورة لحافة الفتحة التناسلية للمرأة. أمـا انتماء «منـظف المداخن يحمـل سلمه»، إلى هـذه المجموعـة من التمائم، فيرجع إلى أنه يـزاول مهنة يشبههـا السوقـة بالعمليـة الجنسية (انـظر Arthropophyteia). والواقـع أننا نعـرف من قبل أن السلم في الأحـلام رمز جنسي. وهنـا تعيننا اللغـة الألمانيـة إذ تبين لنـا أن كلمـة

«يصعد» تستعمل بمعنى جنسي في جوهره. فحين يقال بالألمانية إن فلاناً «يصعد خلف النساء» فهذا لا يعني أنه يكثر من ملاحقتهن. كما يقال عن المدمن على الاستهتار والفجور إنه «صعاد قديم». والأمر بالمثل في اللغة الفرنسية إذ يقال فيها عن العجوز إنه «دراج قديم» (Marche Vieux Marcheur بالفرنسية= درجة السلم) وربما كان هذا الترابط في الأفكار يرجع إلى أن التواصل الجنسي عند كثير من الحيوانات الكبيرة يقتضي أن يصعد الذكر على الأنثى.

أما التمثيل الرمزي للإستمناء بانتزاع غصن من شجرة، فلا يتمشى مع وصف السوقة لهذه العملية فحسب، بل نجد بينه وبين ما يجري من أساطير الأولين أوجه الشبه كثيرة. غير أن ما يسترعي الإنتباه بوجه خاص، تمثيل الإستمناء، أو بالأصح، تمثيل الخصاء يوقع عقاباً على الاستمناء بسقوط سنة أو باقتلاعها. لأننا نجد في الآداب الشعبية نظيراً هذا التمثيل الذي لا يستطيع أن يعرفه إلا قليل جداً من الحالمين. وأعتقد أن ليس ثمة مجال للشك في أن الختان ـ تلك السنة المشاعة في كثير من الشعوب ـ هو عدل الخصاء وبديله. وقد سمعنا منذ عهد قريب أن بعض القبائل الأصيلة في استراليا، يقيمون للختان حفلات دينية ابتهاجاً ببلوغ الصبي سن الحلم، في حين أن قبائل أخرى مجاورة لتلك تستعيض عن الختان اقتلاع سنة من أسنان الصبي.

بهذه الأمثلة أختتم بياني عن الرموز. وهي لا تعدو أن تكون أمثلة. فنحن نعرف عن الموضوع أكثر من هذا. ولا يعز علينا أن نتصور ما يمكن أن يكون عليه مثل هذه المجموعة من وفرة وطرافة، لو قام بجمعها خبراء حقيقيون في علوم الأساطير والتاريخ الطبيعي للأنواع البشرية، وفقه اللغة، والأدب الشعبي، لا نفر من أمثالنا الهواة. على أن ذلك

القليل الذي سردناه يسمح لنا باستخلاص نتائج معينة، لا ندعي أنهـا تستغرق الموضوع وتستوعبه وإن كانت تنطوي على كثير ممـا هو جـدير بالتأمل والتفكير:

وأولى تلك النتائج أن الحالم يقدر على أسلوب رمزي للتعبير لكنه لا يعرفه بل ولا يتعرفه في حالة اليقظة. وليس هذا بأقـل غرابـة من أن تجد، ذات يوم، أن خادمة منزلك تعرف لغة الهنود القدماء وتفهمها. في حين أنـك تعلم عن يقين أنها ولـدت في قريـة من قرى بـوهيميا، فلم تدرس قط هذه اللغـة. هذه واقعـة ليس من اليسير أن نـوفق بينها وبين آرائنا السيكولوجية، فكل ما نملك أن نقول هو أن معرفة صاحب الحلم بالرمزية، معرفة لاشعورية، وأنها تنتمي إلى حياته النفسية اللاشعورية. غير أن هذا الافتراض نفسه لا يعنينا كثيراً فلم تكن بنا حاجة إلى الآن إلا أن نفترض وجود نزعات لاشعورية؛ وقتية أو دائمة، أما الآن فقد كبرت المسـألة وامتـدت وأصبح لـزاماً أن نعتقـد بوجـود معرفـة لاشعـوريـة، وعلاقات لاشعورية بين معـان معينة، ومـوازنات لاشعـورية بين أشيـاء مختلفة يترتب عليها أن تستبدل معنى بآخر على الدوام. وهي موازنات لا تعقد في كل مرة من جديد، بل إنها رهن الإشارة، صالحة أبداً لكل وقت. وشاهدنا على أنها تتشابه عنـد مختلف الناس تشـابهاً تـاماً على الرغم من اختلاف لغاتهم.

ترى من أين نستمد معرفتنا بهـذه العلاقـات الرمـزية؟ فـأما اللغـة الدارجة فلا تزودنا إلا بقدر ضئيل من هذه المعـرفة، وأمـا أوجه الشبـه الكثيرة بما يوجد في الميـادين الأخرى، فـلا يعرفهـا الحالم في أغلب الأحـوال، ونحن لم نستطع أن نجمـع عدداً معينـاً منها إلا بعـد جهـد وعناء.

النتيجة الثانية: أن هذه العلاقات الرمزية ليست وقفاً على الحالم وحده أو على عملية إخراج الحلم التي تعبر عن هذه العلاقات. فقد وجدنا أن هذه الرمزية بعينها تستخدم في الأساطير والخرافات وفي الأقوال والأغاني الشعبية، ومن اللغة الدارجة، وأخيلة الشعراء. والواقع أن نطاق الرمزية متسع بعيد الإتساع، وليست الرمزية في الأحلام إلا جزءاً صغيراً منه فلا يغني أن نعالج هذه المشكلة بأسرها من ناحية الأحلام فحسب. ذلك أن كثيراً من الرموز المشاعة في الميادين الأخرى لا تظهر في الأحلام إطلاقاً، أو لا تظهر فيها إلا على قلة وندور. ومن جهة أخرى، فكثير من رموز الأحلام لا نلتقي بها في ميدان آخر بل نجدها مبعثرة هنا وهناك كما رأينا، حتى لنحسب أننا بصدد أسلوب قديم من التعبير قد هجر واندرس، فبقيت منه آثار متناثرة في ميادين مختلفة، نثرة هنا، وأخرى هناك، وثالثة في نواح شتى وقد حورت بعض التحوير. وأذكر بهذه المناسبة خيالاً من الأخيلة الطريفة عنّ لبعض المصابين بأمراض عقلية إذ تصور أن هناك «لغة أولى أصلية» ليست هذه الرموز كلها إلا بقايا متلكئة منها.

أما النتيجة الثالثة فتدور على ما يدهشكم من أن الرمزية في الميادين الأخرى التي ذكرت، لا تنحصر في دائرة الموضوعات الجنسية وحدها في حين أنها في الأحلام تكاد تكون مقصورة على الرموز والصلات الجنسية. وهذه ناحية ليس من اليسير أن نجد لها هي الأخرى، تعليلاً. فهل لنا أن نفترض أن الرموز كانت في الأصل ذات دلالة جنسية، ثم تغير استعمالها فيما بعد، وأن هذا التغيير في الاستعمال قد ترتب عليه أن فقدت طابعها الرمزي تدريجياً، حتى تلاشى ذلك الطابع آخر الأمر؟ من البديهي أننا لا نستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة إن لم نتناول إلا رمزية

الأحلام وحدها. وكل ما نستطيع أن نفعل هو أن نستمسك بالغرض الذي يقول بوجود علاقة وثيقة بين الجنسية والرموز الحقيقية بوجه خاص. ومما يستأنس به في هذا الصدد، راي هام طالعنا به أخيراً أحد فقهاء اللغة (هو سبربر Sperber) من أسيا لا ممن لا يتصلون بالتحليل النفسي)، فحواه أن الحاجات الجنسية قامت بأهم دور وأخطره في نشأة اللغة وتطورها. فأول أصوات نطق بها الإنسان، كانت وسائل للإتصال بين الناس ولمناداة الجنس الآخر. ثم تطورت الحال فيما بعد وصارت عناصر الكلام (أصول اللغة) تصاحب الأعمال المختلفة التي يقوم بها الإنسان البدائي. فكان الإنسان البدائي يقوم بتلك الأعمال في جماعات، ويقرن العمل بألفاظ وتعبيرات تتكرر في إيقاع. ومن هنا انتقل الاهتمام الجنسي وتحول إلى العمل نفسه. فكأن الإنسان البدائي قد حبب العمل إلى نفسه، بأن جعله عدل النشاط الجنسي وبديلاً عنه. وهكذا كان للكلمة التي ينطق بها في أثناء العمل الجمعي معنيان: معنى يتصل بالفعل الجنسي، وآخر يتصل بالعمل الذي أصبح مكافئاً لذلك الفعل. ثم انسلخت الكلمة على درج من دلالتها الجنسية، واقتصر استعمالها على العمل. وقد كان هذا موقف الأجيال التالية من كل كلمة جديرة ذات دلالة جنسية، إذ كانت تطبق على نوع جديد من العمل. وبذا نشأت طائفة من أصول الكلمات، كانت جميعها ذات مصدر جنسي، غير أنها فقدت معناها الجنسي. ولئن صح هذا الرأي، أتاح لنا منفذاً، على الأقل، يمكننا من أن نفهم رمزية الأحلام، ومن أن نفهم ما تحتوي الأحلام ـ وهي تحتفظ بشيء من تلك الظروف البدائية ـ على هذا القدر الضخم من الرموز الجنسية، ولِمَ تتخذ الأسلحة والأدوات بوجه عام رموزاً ذكرية، في حين تتخذ المواد والأشياء المصنوعة رموزاً أنثية؟. ومن ثم تكون العلاقات الرمزية بقايا ذلك التطابق القديم بين

الألفاظ. وهكذا تظهر الأشياء التي كانت في الماضي تسمية أعضاء التناسل وما يتصل بها، في صورة رموز تشير إلى تلك الأشياء، في أحلامنا اليوم.

إن جميع هذه المتشابهات التي أثارها موضوع رمزية الأحلام قد تعينكم على تكوين فكرة عن التحليل النفسي، وتريكم أنه موضوع، ذو أهمية عامة شاملة، وهذا ما لم يتوافر لعلم النفس أو لطب الأمراض العقلية. فالتحليل النفسي ذو صلة وثيقة بكثير من فروع العلوم الأخرى، كعلم الأساطير وفقه اللغة والأدب الشعبي وسيكولوجية الشعوب وعلم الديانات وغير تلك من العلوم التي يبشر البحث فيها بنتائج ذات شأن وخطر كبيرين. فلا تعجبوا إن عرفتم أن حركة التحليل النفسي قد أدت إلى إصدار نشرة دورية، ليس لها من هدف إلا معالجة هذه الصلات: وأعني بتلك مجلة Lnago التي أخرجها للمرة الأولى كل من «هانز ساكس Hanns Sachs» و«أوتورانك Ottorank». والتحليل النفسي في جميع صلاته بالعلوم الأخرى يعطي أكثر مما يأخذ. صحيح أن النتائج التي يتمخض عنها التحليل والتي تبدو غريبة في كثير من الأحيان، تصبح مساغة مقبولة حين تعززها البحوث في ميادين أخرى، غير أن التحليل هو الذي تصدر عنه الطرق الفنية ووجهات النظر التي يبدو تطبيقها مثمراً في العلوم الأخرى. إن بحث الحياة النفسية للفرد بطريقة التحليل النفسي يفضي إلى تفاسير تعيننا على حل كثير من الألغاز التي تكتنف حياة الجماعات البشرية، أو على إيضاح هذه المعضلات وإظهارها في ثوبها الحقيقي على الأقل.

على أني لم أحدثكم بعد عن الظروف التي يتاح لنا فيها أن نجتلي أعماق تلك «اللغة الأصلية الأولى» المزعومة، أو عن الميدان الذي

يحتفظ بأغلب بقاياها. وما دمتم لا تعرفون هذا فليس في مقدوركم تقدير الدلالة الحقة للموضوع بأسره. هذا الميدان هو ميدان الأمراض النفسية. فمواده مكونة من الأعراض المرضية والأساليب التي ابتكر التحليل النفسي في الواقع لتفسيرها وعلاجها.

أما وجهة نظري الرابعة فتعود بنا إلى المكان الذي بدأنا منه، وتقودنا في نفس الإتجاه الذي انتهينا من رسمه. لقد قلنا إن الحلم يستعصى على الفهم والتأويل حتى إن لم تكن ثمة رقابة، لأنه يتحتم علينا من هذه الحال أن نترجم اللغة الرمزية للأحلام إلى لغتنا في حالة اليقظة. فالرمزية إذن عامل ثان مستقل من عوامل مسخ الحلم وتحريفه، تقوم جنباً إلى جنب مع الرقابة. على أننا لو استنتجنا أن الرقيب يطيب له أن يستخدم الرموز، فلا جناح علينا في هذا الاستنتاج، ذلك أن كلا من الرقابة والرمزية يخدم غرضاً بعينه: هو جعل الحلم مستغلقاً غير مفهوم.

وسنرى بعد قليل ما إذا كانت دراستنا التالية للأحلام، تكشف لنا عن عامل آخر من عوامل التحريف، على أني لا أود أن أترك موضوع الرمزية في الأحلام، دون أن أذكركم، مرة أخرى، بذلك الموقف الغريب الذي وقفه منه المستنيرون من الناس، فقد كان موقف مقاومة ومعارضة لا هوادة فيها، وذلك على الرغم من ذيوع الرمزية في الأساطير والديانات واللغة والفن ذيوعاً لا ريب فيه. ألا يغلب أن يكون السبب في هذا هو صلة الرمزية بموضوع الجنسية؟.

الفصل الحادي عشر
إخراج الحلم

لو أن التوفيق حالفكم فاستطعتم أن تكوِّنوا لأنفسكم فكرة عن الرقابة وعن التصوير الرمزي في الأحلام، لأصبح في وسعكم أن تفهموا أغلب الأحلام، لكنكم لن تكونوا بهذا قد استوعبتم، في الواقع، موضوع التحريف في الأحلام بأكمله. فلكي تفهموا الأحلام، أمامكم طريقتان تكمل إحداهما الأخرى: استدعاء خواطر الحالم وذكرياته، حتى يتسنى لكم النفاذ إلى الفكرة المستترة وراء بديلها الظاهر، والكشف عن معاني الرموز من معلوماتكم الخاصة بالموضوع. وقد تعترضكم خلال هذا العمل، بضع نواح مريبة سنتحدث عنها فيما بعد.

نستطيع الآن أن نعود إلى ناحية حاولنا معالجتها من قبل، ولم تكن لدينا وسائل كافية، وذلك حين كنا ندرس العلاقات القائمة بين عناصر الحلم والأفكار الحقيقية المستترة وراءها. فقد وجدنا أن هذه العلاقات على أربعة أنواع رئيسية: علاقة الجزء بالكل، والإشارة أو التلميح، والعلاقة الرمزية، وتصوير الألفاظ تصويراً لدناً (الصور الذهنية). وسنعمل الآن على معالجة هذا الموضوع على نطاق أوسع، وذلك بالمقارنة بين المحتوى الظاهر للحلم في جملته وبين الحلم الكامن كما يكشفه لنا التأويل.

وأرجو ألا تلبسوا هذين السببين أحدهما بالآخر مطلقاً. فإن وفقتم إلى التمييز بينهما. كنتم قد خطوتم في سبيل فهم الأحلام خطوات أبعد في أكبر الظن مما فعله أغلب من قرأ كتابي «تأويل الأحلام». وأذكركم

مرة أخرى بأن العملية التي يتحـول بها الحلم الكـامن إلى حلم ظاهـر تسمى «إخراج الحلم» وأن العملية المضادة لتلك تلتمس الأفكار الكامنة من الأفكار الظاهرة هي عملية التأويل. فعملية التأويـل إذن تهدف إلى تقـويض ما بنتـه عمليـة الإخـراج وأشيـر إلى أن الأحـلام ذات الـطراز الطفلي، التي لا يشـق علينا أن نعرف في وجوهها تحقيق رغبات، تكون بمنجاة من أثر عملية الإخراج، ولو إلى حد محدود. فالرغبة تتحول فيها إلى واقعية كما تتحول الأفكار المستترة إلى صور ذهنية بصرية في أغلب الأحوال. هنا لا يتحتم التأويل، يكفي أن نلقى نظرة سريعة نستشف من ورائها هذه الرغبة وتلك الأفكار. أما في الـطرز الأخرى من الأحـلام، فثمة عمليات وحيـل أخرى تتـدخل في إخـراج الحلم - هي ما نسميـه تحريف الحلم. وهذا التحريف لا يمكن تقويمه وانتزاع الأفكار الأصلية من ثناياه إلا بعملية التأويل.

ولقـد أتيحت لنا فـرص قارنـا فيها بين تـآويل لأحـلام كثيرة، لـذا استطيع الآن أن أقدم لكم بياناً شاملاً عن الحيل والأساليب التي يتناول بها إخراج الحلم المواد التي تتكون منها الأفكار. الكامنة للحلم. على أن أرجو، مع هذا، ألا تسارعوا في استخلاص نتائج مما سأقول، وألا تفهموا منه أكثر مما ينبغي. فما هو إلا وصف يتطلب أن تسمعوا إليه في تيقظ وهدوء.

إن أول حيلة يتوسل بها إخراج الحلم هي تكثيف الحلم. وهذا ما يجعل محتوى الحلم الظاهر أقل ثراء من محتوى الحلم الكامن. فكأن الحلم الظاهر ترجمة مختصرة للحلم الكامن، بوجه من الـوجوه. وقـد ينعدم التكثيف أحياناً، لكنه يوجد عادة، وغالباً ما يوجد بقدر كبير جداً. كما أن أثره لا يبدو البتة في الاتجاه المضاد، أي أنه لا يتفق إطلاقاً أن

يكـون الحلم الظاهـر أوسع مـدى أو أكثـر ثـراء في محتـواه من الحلم الكامن. ويحدث التكثيف بإحدى الطرق الآتية:

١ ـ بأن تحذف بعض العناصر الكامنة برمتها.

٢ ـ بألا يبدو في المحتوى الظاهر إلا جزء واحد فقط من مركبـات كثيرة في الحلم الكامن.

٣ ـ بأن تلتحم العناصـر الكامنـة ذات الصفات المشتـركة بعضهـا ببعض في الحلم الظاهر.

فإن آثرتم أن تقصروا اصطلاح «التكثيف» على الطريقة الأخيرة التي تبـدو نتائجهـا أكثر وضـوحـاً من غيـرهـا، فلكم مـا أردتم. انـظروا في أحلامكم الشخصية، تـروا فيها من دون عنـاء، أمثلة لتكثيف أشخـاص مختلفة في شخص واحد فهذا الشخص المركب يشبه في نظره، لكنـه يلبس كما يلبس ويعمل شيئاً يذكرنا بـ (ج) ومع هذا فنحن نعرف، طول الوقت، أنه (د) بالفعل. ومن الطبيعي أن يكون الفرض من هذه الصور المركبة، إبراز صفة مشتركة بين الأشخاص الأربعة كما أن من الممكن أن تؤلف الصورة المركبة من أشياء أو أماكن كما تؤلف من أشخـاص، على شرط أن يكون بين الأشياء أو الأماكن المفردة صفة مشتـركة يـريد الحلم الكامن أن يؤكدها بوجه خاص. فكأن ما يحدث هو تكـون فكرة جديدة عابرة نواتها الصفة المشتركة. وأن تراكيب الأجزاء المنفصلة التي يتناولها التكثيف ينجم عنه عادة، صورة مبهمة مطموسة، كما لو أخذنـا عدة صور فتوغرافية على لوح واحد.

إن انصياغ أمثال هذه الصور المركبة لا بد أن تكون له أهمية كبرى في إخـراج الحلم. ففي وسعنا أن نبـرهن على أن الصفات المشتـركة اللازمة لتكوينها قد صيغت عمداً، حتى في الحالات التي يلوح لنا فيها،

بادي الرأي، أنها غير موجودة كما هي الحال مثلاً، عند اختيار تعبير لفظي خاص لتمثيل فكرة. والواقع أننا التقينا من قبل بأمثلة للتكثيف ولصيغ مركبة من هذا النوع، ورأينا أنها تقوم بدور هام في أحداث كثيرة من فلتات اللسان. ولعلكم تذكرون ذلك الشاب الذي أراد أن يراقب سيدة في الطريق (فهذه الكلمة مكثفة من كلمتين يرافق ويعاتب) كما أن هناك نكات وفكاهات تبنى على تكثيف من هذا النوع. ويغض النظر عن هذه الحالات، فالتكثيف في الأحلام عملية غريبة مسرفة في الغرابة، صحيح أن تأليف صور مركبة من عدة أشخاص في الأحلام، له ما يناظره في كثير من منتجات الخيال التي تلتحم فيها أجزاء وعناصر لهاصلة بن بعضها وبعض في الواقع. مثال ذلك، حيوان القنطروس والحيوانات الخرافية التي تزخر بها أساطير الأولين أو لوحات «بكلن Boeckline» وفضلاً عن هذا فالخيال «الإبداعي» لا يبتكر في الواقع شيئاً جديداً فهو لا يعدو أن يؤلف بين عناصر من مصارد مختلفة لكن المستغرب في عملية الإخراج هو طريقتها في صياغة الحلم، فالمواد التي في متناولها تتلخص في أفكار قد يكون بعضها مبتذلاً غير لائق وغير مساغ، لكنها على الرغم من هذا تصاغ صوغاً صحيحاً ويعبر عنها تعبيراً صحيحاً. فإخراج الحلم يشكل هذه الأفكار شكلاً آخر. ومما يسترعي الإنتباه ويستعصى على الفهم أنه يستخدم في عملية النقل هذه ـ وكأنها ترجمة من لغة إلى لغة أخرى ـ أسلوب التجميع والإدماج. ففي حين يعمل المترجم عادة على مراعاة خصائص النص الأصلي، وما به من فوارق، كما يعمل بوجه خاص على التمييز بين الأشياء المتشابهة غير المتطابقة، نرى الأمر على عكس هذا في إخراج الحلم. إذ هو يعمل على تكثيف فكرتين مختلفتين، بأن يختار ـ كما هي الحال في صوغ النكات ـ كلمة ذات عدة معان من شأنها أن توحي بكلتا الفكرتين هذه هي خاصة

التكثيف في الأحلام. وسوف يتاح لكم المزيد من فهمها فيما بعد. فقد يكون لها شأن كبير فيما يتصل برأينا عن إخراج الحلم.

إن التكثيف، ولو أنه يجعل الحلم غامضاً، إلا أنه لا يلوح لنا أنه من عمل الرقابة، بل نجد أنفسنا أقرب إلى أن نرده إلى عوامل ميكانيكية أو اقتصادية، ومع هذا فهو يخدم أغراض الرقابة.

ونتائج التكثيف قد تكون في بعض الآونة غريبة خارقة للعادة. إذ قد يتيح لسلسلتين مختلفتين كل الاختلاف من الأفكار الكامنة أن تندمجا في حلم ظاهر واحد، بحيث قد نظفر بتأويل يلوح لنا في ظاهره، كافياً مرضياً، دون أن نفطن إلى أن هناك تأويلاً ممكناً آخر.

ومن نتائج التكثيف أيضاً، أنه يعقد الصلة بين عناصر الحلم الكامن وعناصر الحلم الظاهر. إذ تتشابك هذه بتلك فيمثل العنصر الواحد في الحلم الظاهر عدة عناصر كامنة في الآن نفسه، أو تدخل الفكرة الكامنة ذاتها في عدة عناصر من الحلم الظاهر. كما أننا كثيراً ما نلاحظ، في أثناء تأويل الأحلام، أن الخواطر والأفكار التي يستدعيها عنصر بعينه من العناصر الظاهرة لا يشترط أن تستخدم على حسب ترتيبها في التوارد، بل لا بد لنا، في كثير من الأحيان، أن ننتظر حتى يتم تأويل الحلم بأسره.

فإخراج الحلم إذن يتبع أسلوباً على جانب كبير من الشذوذ في فسخ أفكار الحلم، فهو لا يقوم بترجمتها كلمة بكلمة، وعلامة بعلامة، كما أنه لا يقوم بعملية اختيار وفق قاعدة معينة، كما هي الحال مثلاً عندما يريد الإنسان أن ينطق بالحروف الساكنة وحدها، في كلمة من الكلمات، دون أن ينطق بالحركات. هذا إلى أنه لا يقوم بما يمكن أن

نسميه عملية تصوير فينتزع عنصراً واحداً أبداً لتصوير عدة عناصر أخرى. بل إنه يتبع أسلوباً يختلف عن كل تلك. ويزيد عليها تعقيداً.

أما الحيلة الثانية التي يصطنعها إخراج الحلم فهي النقل وهي حيلة نعهدها لحسن الحظ من قبل ونعرف أنها بأسرها من عمل الرقابة. ويتخذ النقل صورتين: أولاً: مما أن يبدل عنصر كامن، لا بجزء منه، بل بشيء آخر أبعد من ذلك وأنأى؛ أي بنوع من التلميح والإشارة. ثانيتهما: تحول التوكيد من عنصر مهم إلى آخر لا أهمية له. بحيث يزاح مركز الثقل في الحلم، إن صح التعبير فيبدو الحلم في مظهر غريب.

والإبدال عن طريق الإشارة والتلميح مما نعهده في تفكيرنا ونحن أيقاظ، لكن مع فارق معين. ففي حالة اليقظة لا بد أن يكون التلميح مما لا يشق فهمه، ولا بد أن يكون مضمون البديل مرتبطاً بمضمون الفكرة الأصلية. كما أن التلميح مشاع كذلك في النكات والفكاهات، غير أن الارتباط بين المضمونين، يستعاض عنه في هذه الحال، بارتباط خارجي غير مألوف، كتشابه الجرس أو تعدد معاني الكلمة أو غير ذلك. ومع هذا فسهولة الفهم مما يجب أن يراعى في صياغة النكتة: فإن لم يتحقق هذا الشرط، أي إن لم نستطع أن نتعرف الشيء الحقيقي الذي يلمح إليه دون جهد وعناء، فقدت النكتة أثرها وروحها. لكن التلميح بالنقل في الأحلام لا يأبه لأي من هذين الشرطين ولا يخضع لهما. فالتلميح، في هذه الحال، يرتبط ارتباطاً سطحياً جداً بعيداً كل البعد عن العنصر الذي يلمح إليه، ومن ثم فهو لا يفهم في سهولة. فإذا أردنا أن نستقصي العنصر، بدا التأويل كأنه نكتة غير موفقة، أو كأنه تفسير مكره مقتضب. وعلى هذا فالرقابة في الأحلام لا تبلغ هدفها إلا إذا أفلحت في سد الطريق الذي بين التلميح وبين الفكرة الأصلية التي يشير إليها.

أما نقل التوكيد فحيلة نستعملها في حياتنا اليقظة أحياناً، طلباً للفكاهة والتندر ولو أنها حيلة غير مشروعة إن كنا نريد التعبير عن أفكارنا. وسأقص عليكم ملحة تكونوا لأنفسكم بها فكرة عما يحدثه النقل من لبس وتخليط في هذه الحال: إرتكب حداد يعيش في قرية ما جريمة خطيرة، فأدانته المحكمة. لكنه كان الحداد الوحيد في القرية، فلم تكن القرية في غنى عنه، وكان فيها ثلاثة حائكين، فجيء بأحدهم وأعدم بدلاً من الحداد!.

الحيلة الثالثة من حيل إخراج الحلم، هي أهم الحيل جميعاً وأكثرها طرافة من الناحية السيكولوجية. وتتلخص في تحويل الأفكار إلى صورة ذهنية بصرية. على أن هذا لا يعني أن كل ما ينطوي عليه الحلم من أفكار، مصيره يتحول على هذا النحو، فكثير من هذه الأفكار يحتفظ بشكله الأصلي، ويبدو في الحلم الظاهر كما هو، أو في شكل معلومات أو أفكار تتصل بصاحب الحلم. ومن جهة أخرى، فالصور البصرية ليست الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتخذه الأفكار، ولو أنها تقوم بالدور الأساسي في صياغة الأحلام. وتعرفون أن هذا الجانب من إخراج الحلم هو أكثر جوانبه ثباتاً. وأقلها عرضة للتغير. أما التصوير اللفظي اللدن للعناصر الفردية من الحلم فعملية نعرفها من قبل.

ومن البداهة أن هذا الأسلوب من أساليب إخراج الحلم ليس عملاً سهلاً بأية حال. فإن شئتم أن تكونوا لأنفسكم فكرة عن صعوبته فحسبكم أن تتصوروا أنكم تقومون بإبدال مقالة سياسية رئيسية في صحيفة ما، بطائفة من الرسوم الإيضاحية، أي تستعيضوا عن الحروف الأبجدية بعلامات تصويرية. إذ ذاك لا يشق عليكم أن تستعيضوا عن الأشخاص والأشياء العيانية بتصاوير، بل قد ترون أن الصور أنسب لها

من الحروف. غير أنكم لا شك ملاقون صعوبات جمة متى شرعتم في التصوير العياني المحسوس لكلمات مجردة، ولتلك الأجزاء من الكلام التي تعبر عن علاقات بين الأفكار، كالأدوات وحروف العطف وغيرها، وستلجأون إلى اصطناع شتى الحيل: فتعملون مثلاً على نقل النص الأصلي للمقال إلى صيغ لفظية أخرى، قد لا تكون مألوفة كالأولى، لكنها تؤلف من عناصر دون النص تجريداً حتى تكون أكثر طواعية للتصوير. ولعل في هذا ما يذكركم بأن أغلب الكلمات المجردة كانت شيئية عيانية أصلاً، ثم فقدت مدلولاتها الأصلية، فإذا بكم تلتمسون المعنى العياني الأصلي لهذه الكلمات ما وسعكم ذلك من هذا أنكم إذا عرفتم أن المدلول الحرفي الأصيل «لامتلاك شيء» Possessing هو «الجلوس» على هذا الشيء، سارعتم إلى تصوير «الإمتلاك» بأصله العياني. وهذا هو ما يحدث، بالتحديد، في إخراج الحلم. هنا يجب ألا نتطلب من الحلم دقة كبيرة في التصوير وألا نضيق بعملية الإخراج إن هي استعاضت عن عنصر يصعب رده إلى صورة عيانية ـ كفكرة هتك العهود الزوجية مثلاً ـ بكسر أو هتك من نوع آخر، كهتك في الذراع أو الساق. إذا عرفتم هذا تسنى لكم أن تصححوا إلى حد ما، ما قد يكون في الكتابة التصويرية من خرق وارتباك حين تستدعى لتحل محل الحروف الأبجدية.

لنفرض أننا أخذنا الآن، تصوير الكلمات التي تشير إلى علاقات بين الأفكار، مثل «لأن» و«لذا» و«لكن» وغيرها، فماذا يكون الأمر؟ إن أمثال الوسائل التي وصفنا، لا يمكن أن تسعفنا في هذه الحال، فلا بد إذن أن تضيع هذه الأجزاء من النص الأصلي فلا تتحول إلى صور عيانية. بمثل هذا ترد عملية الإخراج مضمون أفكار الحلم و«تحله» إلى

«مادته الخام» المكونة من أشياء وأوجه نشاط. ولعلكم تبتغون وسيلة أياً كانت تعدل بها الصور تعديلاً أدق وأحكم، تعديلاً يشير بوجه ما إلى العلاقات التي تستعصى على التصوير، فأذكر لكم أن إخراج الحلم يحتكم في هذه الوسيلة تحديداً، إذ يفلح في التعبير عن كثير من مضمون الأفكار الكامنة عن طريق الملامح الشكلية للحلم الظاهر، كوضوحه أو غموضه، وكتقسيمه عدة أجزاء وغير تلك. وإن عدد الأجزاء التي ينقسم إليها الحلم يقابل بوجه عام، عدد موضوعاته الرئيسية وسلاسل الأفكار المتعاقبة في الحلم الكامن. فالحلم الموجز التمهيدي يكون في الغالب بمثابة مقدمة أو سبب للحلم الرئيسي المفصل الذي يليه، في حين أنه يعبر عن الفكرة الثانوية التي تضاف إلى الأفكار الرئيسية بإحداث تغيير في منظر من مناظر الحلم الظاهر وغير ذلك. فشكل الحلم إذن ليس غفلاً من الأهمية في ذاته. بل إنه ليتطلب بدوره تأويلاً. وإذا حدثت عدة أحلام في ليلة بعينها، فغالباً ما يكون لها نفس المعنى والدلالة، كما أن هذا إشارة إلى مجهود مطرد يبذله النائم لضبط منبه تزداد شدته إلحاحاً. أما في نفس الحلم الواحد، فقد يرمز إلى العنصر الذي يتفرد بصعوبته بعدة رموز.

فإذا مضينا في الموازنة بين فكرة الحلم والأحلام الظاهرة التي نتصورها بدت لنا في كل صوب، أشياء لم نكن نتوقعها قط: من تلك أن التناقض والسخف ذاتهما لا يخلوان في الأحلام، من دلالة ومعنى. هنا تزداد الشقة بين النظرة الطبية ونظرة التحليل النفسي إلى الأحلام، ويصبح الخلاف بينهما أظهر وأبرز مما كان من قبل. ذلك أن الأطباء يعللون السخف في الأحلام بأن النشاط النفسي يعجز في أثناء الرؤيا عن أن يصدر حكماً وعن أن يوجه نقداً. أما نحن فنرى أن الحلم يصبح

سخيفـاً متناقضـاً حين يتعين عليه أن يصـور نقـداً مضمـراً من الأفكـار الكامنة، وأن يصدر حكماً فحواه «هذا سخيف». الحلم الذي سبق أن بسطته لكم «زيارة المسرح واحتجاز ثلاثة مقاعد» مثال حسن لما أقول: فالحكم الذي يعبر عنه في هذه الحال هو: «كان من السخف أن أعجل بالزواج كما فعلت».

ثم إننا نكشف، في أثناء تأويل الأحلام، عن الدلالة الحقيقية لتلك الشكوك والشبهات التي يصرح بها الحالمون في كثير من الأحيان، كأن يقول صاحب الحلم «ترى هل ظهر معين في الحلم بالفعـل؟ وهل هـو هذا العنصر حقـاً وليس عنصراً آخـر غيره؟» فنحن لم نجـد في الأفكار الكامنة شيئاً يقابل، بوجه عام هذه الشكوك والشبهات. وما هي بأسرها إلا نتيجة لفعل الرقابة ولا مناص من اعتبارها محاولة لدرء بعض الأفكار أو استبعادها من منطقة الشعور، لكنها محاولة لم تنجح نجاحاً تاماً.

ومن أعجب الكشوف التي وقفنا عليها، تلك الطريقة التي يعالج بها إخراج الحلم الأضداد والمتقـابلات في الحلم الكـامن. لقد عـرفنا أن العناصر المتشابهة في المواد الكامنة لا يستعاض عنها في الحلم الظاهر ويضروب من التكثيف، وعلينا أن نعرف الآن أن الأضداد تعالـج بنفس الطريقة التي تعالج بهـا الأشياء، وأن إخـراج الحلم يؤثر أن يعبـر عنها بنفس العنصر الظاهر. لذا قد يشير العنصر في الحلم الظاهر إلى نفسه أو إلى ضده ـ إن كان يحتمل ضداً ـ أو إليهما معاً، فلا نستطيـع أن نقطع بتأويل نختـاره إلا بتأمـل المعنى العام. وهـذا يفسر لنـا لمَ لا نجد في الأحلام تصويراً لمعنى «لا»؟، أو تصويراً لا يكون مبهماً؟، على الأقل.

إن لهذا الاتجاه الغريب الذي تسلكـه عمليـة إخـراج الحلم شبيهاً

مواتياً في تطور اللغة فقد لاحظ كثير من فقهاء اللغة أن الضدَّين، في أقدم اللغات - مثل قوي وضعيف، واضح وغامض، كبير وصغير - كان يعبر عنهما معاً بنفس أصل اللفظ (وهذا ما يعرف بتباين المعنى في الكلمات البدائية). من ذلك أن كلمة Ker في لغة قدماء المصريين كانت تعني أصلاً «قوي» و«ضعيف» وكان القوم يتفادون سوء التفاهم في استعمال هذه الكلمات المتباينة المعنى بأن يقرنوا كلامهم بإيماءات خاصة أو بالنبر والتنغيم. أما في الكتابة فكان يشفعون الكلمة بصورة لا ينطقون بها حتى يتحدد المعنى. فكلمة Ker = قوى كانت تردف بصورة رجل واقف. فإذا أريد بها معنى «الضعف» أضيفت إليها صورة رجل صغير يجلس القرفصاء في وضع مسترخ. ولم تظهر كلمة خاصة بكل من المعنيين المتضادين اللذين ينطوي عليهما الأصل إلا في مرحلة متأخرة من تطور اللغة، بعد أن حور الأصل تحويراً طفيفاً لبلوغ هذه الغاية. وهكذا اشتقت من كلمة Ker التي تعني «قوي - ضعيف» كلمتان: Ker = قوي وKer = ضعيف هذه الظاهرة ليست وقفاً على اللغات القديمة في المراحل الأخيرة من تطورها، بل تشترك فيها بعض اللغات التي ليست عريقة في القدم، حتى إن بعض اللغات الحية، في يومنا هذا، لا تزال تحتفظ بكثير من بقايا هذه الكلمات الأولى التي تحتمل معنيين متضادين.

وإليكم بضعة أمثلة إيضاحية اقتبستها من «أبل Abel» (١٨٨٤): ففي اللغة اللاتينية نلتقي بكلمات من أمثال تلك: Altug = مرتفع وعميق. Sacer = مقدس أو ملعون.

ومن الأمثلة على التحوير الذي يصيب أصول الكلمات:

Clamare = يصيح. Clan = بهدوء، بصمت، خفية. Siccus = جاف. Succus = عصير.

وفي الألمانية: Stinne = صوت. Stunn = أبكم.

والمقارنة بين اللغات التي من أصل واحد تزودنا بأمثلة كثيرة:

ففي الإنجليزية Lock = يحبس، وفي الألمانية Lock = ثقب، Luck = فجوة.

وفي الإنجليزية Cleave = يشق، وفي الألمانية Kleber = يلصق.

وكلمة Without الإنجليزية ومعناها (بدون) كانت تحمل في الأصل معنيين إيجابي وسلبي، لكنها تستعمل اليوم بالمعنى السلبي وحده. وواضح أن «With» لا تفيد «الإضافة» فحسب، بل تفيد «الطرح والإنتزاع» أيضاً، كما يبدو من الكلمتين المركبتين Withdraw (يسترجع أو ينسحب) وWithhold (يمسك، يمنع عن). والأمر بالمثل في كلمة Wieder الألمانية (أي مرة أخرى).

وثم خاصة أخرى من خصائص إخراج الحلم لها ما يناظرها في تطور اللغة. ففي اللغة المصرية القديمة، وفي لغات أخرى أحدث منها، كثيراً ما تقلب أوضاع الحروف في الكلمة الواحدة، فتنشأ من ذلك كلمات مختلفة تعبر عن الفكرة الأساسية نفسها. فإليكم بضعة أمثلة متنوعة من المقارنة بين الإنجليزية والألمانية:

Topt (الألمانية) = قدر، Pot (إنجليزية) = قدر.

Boat (إنجليزية) = قارب، Tub (إنجليزية) = دن.

Hurry (إنجليزية) = تعجل، Ruhe (ألمانية) = راحة.

Bolker (ألمانية) = رومية خشب، Klober (ألمانية) = كتلة خشب.

Wait (إنجليزية) = ينتظر، Tawer (ألمانية) = ينتظر.
وأخرى من المقارنة بين اللاتينية والألمانية :
Packer = Capere (ألمانية) = يحزم.
Nierre = Rer (ألمانية) = كلية.

هذا القلب المكاني الذي نراه هنا في حالة الكلمات المفردة، مما نقوم به عملية إخراج الحلم بطرق مختلفة، وقد مرت بنا من قبل أمثلة لقلب المعنى أي إبداله بضده. على أننا نلتقي في الأحلام بحالات أخرى تقلب فيها المواقف، أو العلاقات بين شخصين، وبذا تنعكس الأوضاع وتبدو الأمور كأنها قلبت راساً على عقب: فالأرنب هو الذي يطارد الصياد، لا العكس. ومما يلاحظ في الأحلام أيضاً، قلب تتابع الحوادث بحيث تتلو العلة المعلول. وفي هذا ما يذكرنا بما يحدث أحياناً في المسارح المزجاة، إذ نرى بطل الرواية يسقط صريعاً قبل أن تنطلق الرصاصة المعدة لقتله. هذا إلى أحلام ينقلب فيها ترتيب العناصر إنقلاباً تاماً، فإذا حاولنا الكشف عن مغزاها، تعين علينا أن نبدأ تأويلها من العنصر الأول. وربما تذكرون أننا رأينا، في دراستنا رمزية الأحلام، أن الغوص في الماء أو السقوط فيه نفس الشيء الذي يعينه الخروج من الماء، أي أن الشخص يلد أو يولد، وأن الصعود على سلم أو مرقاة له نفس معنى الهبوط من أيهما. من هذا ألا يشق علينا أن نرى المزايا التي يمكن أن تجنيها عملية تحريف الأحلام من تلك الحرية في تصوير أفكار الحلم؟.

هذه السمات التي توصف بها عملية تحريف الأحلام، يمكن أن نسميها السمات الأثرية. فهي مما تعرف به الأساليب البدائية للتعبير في اللغات القديمة المنطوقة أو المكتوبة ومما تتمخض عن مشكلات

بعينها، سنعرض لها فيما بعد، حين نتناول هذا الموضوع بشيء من النقد.

ولننظر الآن في مظاهر أخرى لهذا الموضوع. من الواضح أن إخراج الحلم يقوم بتحويل الأفكار الكامنة التي تتضمنها الألفاظ إلى صور حسية عيانية أغلبها صور بصرية. والوقع أن أفكارنا نشأت أصلاً عن أمثال هذه الصور. العيانيه إذ ليست مادتها الأولى والمراحل الإبتدائية من تطورها إلا انطباعات وتأثيرات حسية، أو على الأصح صور محفوظة لهذه التأثيرات. ثم تتصل الألفاظ بعد ذلك بهذه الصور، فيرتبط بعضها ببعض ومن ثم تنشأ الأفكار. وعلى هذا فإخراج الحلم يعود بأفكارنا أدراجها وتتأثر خطوات تطورها إلى مراحلها الأولى. وفي أثناء هذا التراجع والنكوص لا مناص من أن يضيع كل تحصيل جديد اكتسبه الفرد خلال تطور هذه الصور المحفوظة وتحولها إلى أفكار.

هذا هو إخراج الحلم. وقد اتضح لنا من عملياته المختلفة ما يخافت من اهتمامنا الكبير بالحلم الظاهر. لكن بما أن الحلم الظاهر هو الشطر الوحيد من الحلم الذي يتسنى لنا أن نعرفه مباشرة، فسنخصه ببضع ملاحظات أخرى.

من الطبيعي أن يفقد الحلم الظاهر بعض ما له من أهمية وخطر في اعيننا وسواء أكان مصوغاً بدقة وإحكام، أم كان مفككاً إلى سلسلة من صور لا رباط بينها، فهذا أمر لا يعنينا. ذلك أننا نعرف أن الحلم، حتى إن بدا حافلاً بالمعنى في ظاهره، فمظهر هذا من فعل عملية التحريف، ولا يمكن أن يكون بينه وبين المضمون الداخلي ارتباط عضوي وثيق، إلا كما يكون بين واجهة كنيسة إيطالية وبين تكوينها العام وتصميمها.

ومع هذا فقد يكون لواجهة الحلم في بعض الأوقات معنى دلالة كذلك، حين تعلن عن جزء هام من الأفكار الكامنة دون تحريف طفيف. غير أننا لا نستطيع أن نعرف هذا إلا إذا أولنا الحلم فأتيح لنا أن نقدر مبلغ ما هو عليه من تحريف. وإنا لنلتقي بمثل هذه الشبهة حين نكون بصدد عنصرين يبدو أن أحدهما يرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً. إذ قد يكون في مثل هذا الارتباط إشارة إلى أن العنصرين المناظرين لهما في الحلم الكامن يرتبطان كذلك أحدهما بالآخر. على أننا نستطيع في حالات أخرى أن نستوثق من أن العناصر المرتبطة في الأفكار الكامنة لا رباط بينها في الحلم الظاهر.

وعلينا أن نمتنع بوجه عام من أن نحاول تفسير شطر من الحلم الظاهر بشطر آخر منه، كما لو كان الحلم كلاً ملتئماً وبناء منسجم الأجزاء فالحلم في أغلب الأحوال، أدنى أن يكون لوحة من فسيفساء قوامها قطع من أحجار شتى رصت إلى حوار بعضها بعضاً، بحيث لم تعد الصور الناشئة من ذلك حواشي الأحجار الأصلية. والواقع أن من بين العمليات التي ينطوي عليها إخراج الحلم، عملية تسمى بالصياغة الثانوية. وظيفتها جمع النتائج المباشرة للإخراج، وصوغها في كل واحد ملتئم إلى حد ما. وخلال هذه العملية ترتب المواد غالباً بحيث تستغلق على الفهم إستغلاقاً تاماً كما تكمل وتسد ما بينهما من ثغرات متى اقتضى الأمر ذلك.

ومن جهة أخرى، يجب ألا نعزو إلى إخراج الحلم أكثر مما يستحق فنغلو في تقدير أهميته وخطره. ذلك أن نشاطه ينحصر في تلك الحيل التي قدمنا، وهي: التكثيف، والنقل، والتصوير اللدن والصياغة الثانوية للحلم بأسره. أما تلك المظاهر التي تصادفنا في الأحلام، كإصدار

الأحكام، وتوجيه النقد والإستنتاج والإستغراب فليست على الإطلاق من عمل إخراج الحلم، كما أنها ليست نتيجة للتأمل في الحلم بعد حدوثه إلا في القليل النادر، لكنها غالباً ما تكون نتفاً من الأفكار الكامنة اقتحمت الحلم الظاهر بعد أن أصابها تحوير قليل أو كبير، وبعد أن كيفت لتناسب الظروف والملائمات يضاف إلى هذا أن إخراج الحلم ليس في وسعه أن يخلق في الأحلام محادثات إلا في بضع حالات استثنائية. فما يسمعه الحالم في نومه أو ما ينطق به من أحاديث، ما هو إلا صدى للأشياء التي سمعها أو التي قالها نفسه في اليوم السابق لحلمه، فاندمجت في الأفكار الكامنة وكانت بمثابة مواد أو مثيرات له.
كذلك لا يدخل «الحساب الرياضي» في مجال إخراج الحلم. فإن ظهر في الأحلام شيء من هذا، فما هو بوجه عام إلا مجرد رص لأعداد، وحساب زائف لا ينطوي على معنى من حيث هو، أو لا يعدو أن يكون نسخة من حساب مضمر في الأفكار الكامنة. لهذا كله لا يستغرب أن يتحول اهتمامنا من إخراج الحلم إلى الأفكار الكامنة التي تفصح عن نفسها في الحلم الظاهر بدرجات متفاوتة من التحريف.

غير أن من الخطل أن نشت في هذا الاتجاه الجديد، بحيث لا نعود نتكلم إن عرضنا للموضوع من الناحية النظرية، إلا عن الأفكار الكامنة نستعيض بها عن الحلم بأسره، وننسب إليه ما لا يصدق إلا على هذه الأفكار وحدها. ومن العجيب أن يساء فهم الكشوف التي قام بها التحليل النفسي، فيخلط بين سدين ويلبس أحدهما بالآخر. إن اصطلاح «الحلم» لا يصح أن يطلق إلا على نتائج إخراج الحلم أي على الشكل الذي تضفيه هذه العملية على الأفكار الكامنة.

إن إخراج الحلم عملية من طراز قديم لم نجد له إلى الآن نظيراً في

الحياة النفسية. فهـذه الألوان من التكثيف والنقـل والترجمـة التراجعيـة للأفكار إلى صور مستحدثات طريفة، في معرفتها خير جزاء عن جهودنا في ميـدان التحليل النفسي. أمـا نظائـر عمليـة الإخـراج في الميـادين الأخرى، فقد كشفت لنا عن الصلات التي تربط التحليل النفسي بغيره من البحوث، وخاصـة تلك التي تدور على تـطور اللغة والفكـر.

واعرف أيضاً أننا لا نستطيع بعد أن نستوعب كل ما يمكن أن يفيده علم النفس من هذه الجهود الجديدة. وحسبي أن أشير إلى هذه البراهين الجديدة التي تسنى لنا أن نؤيد بها وجود أوجه نشاط نفسي لا شعوري. فالأفكار الكامنة ليست في الحق إلا أمثلة لهذه الأوجه، وإلى أن تأويل الأحلام يتيح لنا مدخلاً إلى الإلمام بالحياة النفسية اللاشعـورية ومنفـذاً أفسح بكثير مما كنا ننتظر.

وأظن أن الظرف موات كي أقدم لكم أمثلة لأحلام قصيرة مختلفة، تجلو النواحي التي فرغت من تهيئتكم لها.

الفصل الثاني عشر
تأثير العقاقير على السلوك

مقدمة :

إن دراسة تأثير العقاقير على السلوك له أهمية كبيرة من نواحي متعددة. فمن الناحية التطبيقية لا نستطيع أن نستخدم العقاقير دون أن يسبق ذلك الإستخدام ويصاحبه دراسة لتأثيرها. ولا بد من تحديد نوع الآثار المترتبة على العقاقير وحجم هذه الآثار تحديداً دقيقاً بالإعتماد على التجارب. ولا تصلح التأملات أو الآراء الشخصية كوسيلة لتقدير آثار العقاقير على السلوك. كذلك فإن هذه الدراسة تلقي الضوء على دور العوامل الكيميائية في تغيرات السلوك، وعلى كيفية عمل الجهاز العصبي.

ولقد تزايد إستخدام العقاقير في علاج الأمراض النفسية تزايد كبيراً منذ أوائل الخمسينات. ونشطت البحوث التي تدرس آثار العقاقير على السلوك وعلى الوظائف النفسية المختلفة. وأصبح هذا الموضوع علماً مستقلاً يسمى بعلم الصيدلانيات النفسية وأصبح هذا العلم منطقة إهتمام مشتركة بين علوم متعددة، هي علوم الصيدلية، والكيمياء، والكيمياء الحيوية، والطب النفسي، وعلم النفس. وأصبح نموذج البحوث في هذا الميدان هو تعاون الأفراد المنتمين لهذه التخصصات مع بعضهم في شكل فريق متكامل فلا يوجد شخص واحد يستطيع أن يستوعب هذه العلوم المتنوعة جميعاً ويتعمق فيها، بل إن الأسلوب الأمثل هو عمل الفريق الذي يضم هذه التخصصات. وفي هذه الحالة لا بد من وجود

لغة مشتركة بين أعضاء الفريق حتى يعمل الفريق على أعلى مستوى من الكفاءة. هذه اللغة المشتركة تأتي من معرفة كل عضو معرفة عامة جيدة (وليست معرفة متعمقة) بالتخصصات الأخرى. وفي هذه الحالة يستطيع كل عضو أن يقدم أفضل ما عنده من إمكانيات البحث العلمي.

ولا يقتصر إهتمام علم الصيدلانيات النفسية على دراسة تأثير العقاقير المستخدمة في علاج الأمراض النفسية. بل يهتم أيضاً بدراسة تأثير المواد أو المركبات الأخرى كالحشيش أو النيكوتين أو الكحول أو عقاقير الهلوسة (LSD). فرغم أن هذه ليست ذات تأثير علاجي فإن دراستها تلقي الضوء على طريقة عمل الجهاز العصبي كما أن هذه العقاقير تثير قضايا ومشكلات إجتماعية بسبب مشكلة الإدمان أو الإعتماد على هذه المواد.

الدراسة التجريبية لأثر العقاقير:

عند الدراسة التجريبية لتأثير العقاقير على السلوك، لا بد لنا أن نأخذ في الإعتبار عدة عوامل تؤثر على إستجابة الشخص للعقار. ولا بد من ضبط كل عامل منها، وتحديد مقدار تأثيره. فهذا الضبط التجريبي يجعل نتائج التجربة واضحة، أما عدم الضبط فيؤدي إلى غموض النتائج، وعدم الحسم، ومن أهم العوامل التي نأخذها في اعتبارنا عند دراسة تأثير العقاقير على السلوك.

١ ـ طبيعة العقار: تركيبه، تركيزه، وأسلوب تناوله بالفم أو الحقن أو غير ذلك وحجم الجرعة... إلخ.

٢ ـ طبيعة الشخص: شخصيته، وذكاؤه، وخصائصه الشخصية الأخرى وحالته عند إجراء التجربة.

٣ ـ البيئة الإجتماعية: علاقات الشخص مع الآخرين أثناء إجراء التجربة.

كل هذه العوامل لا بد من أخذها في الإعتبار عند دراسة الأثر النفسي للعقاقير إذا أردنا الوصول إلى نتائج واضحة ومحددة.

البلاسيبو:

أدرك العلماء والمفكرون منذ وقت بعيد أن العقاقير يمكن أن تؤثر عن طريق الإيحاء بصرف النظر عن مكوناتها الكيميائية. فمن المعروف أن كبسولة الجيلاتين الممتلئة بملح الطعام حين تقدم للشخص على أنها قرص منوم، فكثيراً ما تؤدي إلى النوم الفعلي، وذلك في حالة واحدة من كل ثلاث حالات من الناس. أما إذا أعطيت للأشخاص على أنها ملح، فلن نشهد هذه الآثار النفسية الجسمية (النوم) بل نشاهد الآثار المتوقعة أي زيادة مناسبة ومتوقعة في مقدار ملح الطعام الذي يفرزه الجسم.

وقد وجدت الدراسات المتعددة أن ثلث الأشخاص الذين يعطون البلاسيبويذكرون أن هناك تحسناً قد طرأ لديهم على الأعراض المرضية كالصداع أو الكحة أو البرد أو الربو أو المرض النفسي... إلخ.

والبلاسيبو هو عبارة عن مادة تأخذ شكل الدواء ولكنها لا تحتوي على أية عناصر فعالة. ولذلك فإن أي تأثير أو تغير يحدث نتيجة له لا يرجع لعناصر فعالة، بل يرجع للعوامل النفسية.

وهذه العوامل النفسية كالإيحاء أو التوقع... إلخ تؤدي إلى زيادة تأثير العقار أو التقليل من تأثيره. وقد اهتم علماء النفس بدراسة شخصيات الأفراد الذين يؤثر عليهم البلاسيبو، وأشاروا إلى أنهم أميل

إلى الإتصاف بالقلق النفسي أو الإنطواء.

ومنذ الحرب العالمية الأولى نشط الإتجاه العلمي نحو العلاج الطبي وزاد إستخدام الطرق التجريبية المضبوطة في دراسة آلاف المستحضرات الصيدلانية. وقد أظهر ذلك أن الكثير من هذه المواد هو من نوع البلاسيبو، أي ليس له نشاط فزيولوجي على الإطلاق.

بل إن العقاقير ذات العناصر الفعالة كالمضادات الحيوية أو المخدرات الموضعية أو غيرها تتضمن تأثيراً نفسياً. فاي علاج يتضمن نوعاً من الفائدة للمريض.

التأثيرات غير النوعية للعلاج:

أدى إدراك العلماء لهذه الحقائق إلى إهتمامهم بتحديد التأثير الخاص أو النوعي للعقار وعزله عن التأثيرات الأخرى غير النوعية وذلك حتى يتضح التأثير النوعي للعقار مستقلاً عن المؤثرات النفسية الأخرى وعن الظروف المحيطة التي يتم فيها العلاج ويشتمل ذلك الطبيب والممرضة والمريض نفسه كذلك، الموقف الذي يحدث فيه العلاج سواء كان مستشفى أو عيادة أو المنزل.

فهناك دائماً تفاعل بين المريض والعقار والبيئة المحيطة. . . مثال ذلك ملاحظة أن جرعة المادة المنومة التي تساعد الطفل على الراحة تكون في المنزل أكبر مما يحتاجه لو كان بالمستشفى. كذلك فإن مقدار العقار الذي يحتاج إليه مريض في حالة إكتئاب (إنهباط) يرتبط إرتباطاً عكسياً مع عدد أفراد الأسرة، والعلاقات الإجتماعية التي يتعرض لها.

وهذه الأمثلة، توضح لنا أهمية الظروف المحيطة بتناول العلاج.

وهي تفسر ما نشاهده أحياناً من أن بعض العقاقير التي تنجح عند تجربتها بالعمل أو بمستشفيات البحوث تفشل عندما تستخدم على نطاق واسع نظراً لتدخل تلك الظروف الخارجية فعندما تستخدم العقاقير على نطاق عام نجد أن هناك تفاوتاً بين الأفراد في مدى تناولهم للعقاقير حسب التعليمات الطبية. فقد يفشل العلاج نتيجة لعدم طاعة المريض لتعليمات الطبيب، أو لتوقف المريض عن تناول العلاج لأنه أحس بالتحسن قبل إتمام العلاج المحدد، أو لأن ثقته في فعالية الدواء محدودة، بحيث يتأثر تناوله للعلاج بذلك. وتشير نتائج البحوث المتعددة إلى أن متوسط الأقراص التي يأخذها المرضى بالنسبة لعدد الأقراص التي تحددها تعليمات الطبيب، يتراوح (هذا المتوسط) بين ٥٠ و٨٠٪ هناك بالطبع أفراد يلتزمون بتعليمات الطبيب إلتزاماً حرفياً، ولكن هناك أيضاً من يخرجون على هذه التعليمات لأسباب شخصية متعددة. بل لقد لوحظ أيضاً أن نتائج العلاج تتأثر بشخصية الطبيب المعالج، بحيث أن العقار «أ» يعطي نتائج أفضل عندما يصفه الطبيب «س»، بينما يعطي العقار «ب» نتائج أفضل على يد الطبيب «ص»، فاتجاهات المريض نحو الطبيب، ونحو العلاج تؤثر على نتائجه.

الدراسة التجريبية لتأثير العقاقير:

عندما نجري تجارب العقاقير، يلزم أن يتم ذلك حسب قواعد المنهج العلمي. ويحتم المنهج العلمي ضبط مختلف ظروف التجربة، بحيث نستبعد أي مؤثرات خارجية قد تجعل النتائج غامضة، وغير محددة.

وأبسط صور الضبط التجريبي أن تكون لدينا مجموعتان من الأفراد على النحو التالي:

١ ـ مجموعة تجريبية تتناول العقار بعناصره الفعالة.
٢ ـ مجموعة ضابطة لا تعطى العقار. بل تتناول البلاسيبو.

فإذا كنا نريد دراسة تأثير أحد العقاقير، فإننا نأخذ مجموعتين من الأفراد متشابهان أو متكافئان من جميع النواحي المتصلة بالدارسة. كالعمر والحالة الصحية، والجنس... وغير ذلك. ونعطي العينة التجريبية العقار نفسه، أما المجموعة الضابطة فإنها تأخذ البلاسيبو.

ولتحقيق مزيد من الضبط، فإن الأفراد الذي نجري عليهم الدراسة لا يعرفون هل هم يتناولون العقار أم البلاسيبو. بل إن الطبيب الذي يقوم بعد ذلك بتقييم آثار التجربة يجب الا يعرف توزيع الأفراد على العينتين التجريبية والضابطة. بمعنى أنه لا يعرف هل الفرد ينتمي إلى هذه المجموعة أم تلك. والهدف من ذلك أن لا تتأثر أحكام الطبيب بمعرفته لتناول الشخص للعقار أو للبلاسيبو. وذلك يساعد على تحقيق الدقة والموضوعية في تقييم آثار العقاقير.

الآثار المتنوعة للعقاقير:

من المهم دراسة الآثار المختلفة المترتبة على تناول العقاقير. فللعقاقير آثارها على أجهزة الجسم المختلفة، ومن المهم معرفة العلاقات بين هذه الآثار بعضها مع البعض الآخر.

ومن الملاحظ أن هناك حاجة ماسة إلى هذا النوع من الدراسات، التي تربط بين الآثار السلوكية والآثار الفزيولوجية، أو الآثار السلوكية والبيوكيميائية، أو بين الآثار السلوكية والآثار الغددية... إلخ. فمثلاً عند دراسة أحد العقاقير ذات النشاط النفسي، يكون من المفيد جداً أن تتوفر لدينا بعض المعلومات عن مقدار ما يصل من هذا المركب أو من

عناصره الفعالة إلى الجهاز العصبي المركزي. وكذلك أين يؤثر بالتحديد، وما هي طبيعة تأثيره بوجه عام.

أما إذا شغلنا أنفسنا بالآثار السلوكية لعقار، وأخذنا نقيس آثاره السلوكية قبل أن يصل تأثيره فعلاً إلى الجهاز العصبي فإن ذلك لن يؤدي إلى الحصول على نتائج دقيقة. فمثلاً قد يحاول الباحث قياس الآثار السلوكية للعقار، عندما يكون هذا العقار لا يزال في الكبد، وقبل أن يصل تأثيره للجهاز العصبي، أو قبل أن يصل تركيز العقار في المخ إلى درجة مؤثرة على السلوك... وفي هذه الحالة لا يكون من الملائم قياس آثار العقار، ولن يؤدي القياس إلى نتائج ذات قيمة.

وهذا يوضح أهمية التعاون بين التخصصات العلمية المختلفة عند دراسة آثار العقاقير. وذلك حتى يتم الربط بين التغيرات الداخلية الفزيولوجية أو البيوكيميائية أو غيرها من ناحية وبين التغيرات السلوكية المصاحبة لها من ناحية أخرى.

تأثير العقاقير على الوظائف النفسية المختلفة:

وبعد أن نحدد المجموعة التجريبية التي نعطيها العقار بعناصره الفعالة، والمجموعة الضابطة التي نعطيها البلاسيبو الذي يشبه العقار دون أن يحتوي على عناصر فعالة، يتعاون فريق البحث المكون من تخصصات متنوعة في دراسة آثار العقار.

ودور الباحث السيكولوجي هنا يتركز أساساً على قياس الآثار السلوكية للعقار. وتتضح هذه الآثار السلوكية في شكل تغيرات تطرأ على الوظائف النفسية المختلفة، كالإنتباه، والإدراك، والتعلم، والذاكرة، والدوافع... إلخ.

ومن المهم عزل هذه الوظائف النفسية أو فصلها إحداها عن الأخرى. فمن المهم أن نعرف مقدار تأثير العقار على وظيفة الإنتباه مستقلة عن الوظائف الأخرى، أو على الذاكرة مستقلة عن الوظائف الأخرى. وبذلك نتمكن من معرفة تأثير العقار على كل وظيفة منها على حدة مستقلة عن غيرها من الوظائف.

وتتضح لنا أهمية هذا التمييز بين الوظائف النفسية المختلفة من المثال التالي. لنفرض أننا أردنا قياس آثار أحد العقاقير على وظيفة التعلم بمتغيراتها المختلفة كالإرتباط الشرطي أو الإنطفاء التجريبي أو العودة التلقائية.

فإذا كان هذا العقار يؤثر على شهية الكائن الحي للطعام بخفض الشهية، فإن ذلك قد يؤثر على تعلم الكائن الحي. وبذلك يصبح من الصعب تفسير النتائج. فإذا كنا نستخدم الطعام كمدعم أو مكافأة فسنجد أن دافع الحيوان للحصول على هذا التدعيم دافع منخفض، وبالتالي فإن قوة تأثير الطعام تنخفض إنخفاضاً كبيراً ويؤدي ذلك إلى بطء التعلم.

فهنا تنخفض قدرة الكائن الحي على التعلم إذا استخدمنا الطعام، أما إذا استخدمنا نوعاً آخر من التدعيم بدلاً عن الطعام فقد نصل إلى نتائج مختلفة تماماً.

هذا المثال يوضح لنا أهمية الفصل بين الوظائف النفسية المختلفة، وقياس تأثير العقار على كل وظيفة منها على حدة حتى تصبح النتائج واضحة، وتعرف بشكل محدد تأثيرات العقار المختلفة.

قياس الآثار السلوكية للعقاقير:

يقوم الأخصائي النفسي بقياس الآثار السلوكية للعقاقير مستخدماً في ذلك المقاييس النفسية والأجهزة المختلفة.

فبعض الوظائف النفسية كالإدراك أو الذاكرة أو التخيل يمكن قياس التغيرات التي تطرأ عليها باستخدام الإختبارات النفسية، بينما يحتاج قياس التغيرات في بعض الوظائف الأخرى إلى استخدام الأجهزة الخاصة بالتعلم أو الإنتباه أو الإدراك.

وهذه الإختبارات والأجهزة تتوفر فيها الخصائص العلمية للمقياس الجيد، مثل الثبات والصدق والتقنين.

ويعني الثبات أن المقياس يعطي نفس النتائج إذا إستخدم أكثر من مرة تحت نفس الشروط أو الظروف.

أما الصدق فيعني أن المقياس يقيس فعلاً الوظيفة التي وضع لقياسها ولا يقيس شيئاً آخر فالترمومتر مثلاً يكون صادقاً إذا كان يقيس الحرارة فعلاً وليس شيئاً آخر.

ويعني التقنين توحيد وتحديد مختلف الظروف التي يتم فيها القياس بسواء في ذلك الظروف الفيزيقية أو التعليمات التي يعطيها الأخصائي النفسي أو غير ذلك من الظروف المحيطة.

ونتيجة للقياسات نحصل على نتائج في شكل أرقام. ولا بد من معالجة هذه الأرقام إحصائياً حتى يصبح لها معنى. كأن تحسب المتوسطات أو معاملات الإرتباط التي تصدر العلاقة بين المتغيرات.

ونستطيع مثلاً أن نحسب متوسط درجات المجموعة التجريبية

ومتوسط درجات المجموعة الضابطة ونقارن بينهما لكي نعرف هل توجد فروق جوهرية بين المجموعتين. فإذا وجدنا فروقاً جوهرية بينهما إعتبرنا ذلك راجعاً لتأثير العناصر الفعالة التي يحتوي عليها العقار.

أو يمكن أن نقارن بين متوسطات الدرجات التي حصلت عليها المجموعات التي سبق أن أعطيت كميات أو جرعات مختلفة من العقار. وبذلك نستطيع أن نعرف تأثير الجرعات المختلفة على السلوك.

وبهذه الطريقة: باستخدام المجموعات التجريبية والضابطة، وبتحديد أنواع الوظائف التي يؤثر عليها العقار، وقياس آثار العقار باستخدام المقاييس النفسية، ثم تحليل النتائج إحصائياً، نستطيع الوصول إلى نتائج علمية ودقيقة ومحددة عن الآثار النفسية للعقاقير. وبذلك نضمن الحصول على نتائج موضوعية دقيقة تضيف جديداً إلى فهمنا للأساس البيوكيميائي والفزيولوجي للسلوك.

وهذا الأسلوب العلمي الدقيق يختلف عن الأساليب غير العلمية التي تعتمد على الملاحظات العابرة والآراء الشخصية غير الموضوعية. كما أن الضبط المنهجي للتجارب مثل تقسيم العينة إلى مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة يمكن من عزل الآثار النفسية التي لا ترجع للعناصر الفعالة، وبالتالي يتضح لنا حجم التأثير الذي يرجع إلى العناصر الفعالة التي يتضمنها العقار.

العقاقير والشخصية:

هناك سؤال هام: هل يختلف تأثير العقاقير من شخص لآخر؟ أو بعبارة أخرى هل يختلف شكل تأثير العقار باختلاف شخصية الفرد الذي يتناول العقار؟

لقد لاحظنا من قبل أن إستجابة الأفراد للبلاسيبو تختلف من شخص إلى آخر وأن حوالي ثلث الناس يتأثرون بهذه المـواد غير النشـطة (غير الفعالة).

كما لاحظنا أن نتائج العلاج الطبي تتأثر بشخصية الطبيب المعالج. ولكننا هنا نتناول العلاقة بين الإستجابة للعقار من ناحية وشخصية الفرد الذي يتناوله من ناحية أخرى. . . والواقع أن هناك بعض الأفكار الشائعة عن الفـروق الفرديـة في الإستجابـة للمواد أو العقـاقير، فتـأثـر النـاس بالكحول يختلف من شخص لآخـر. ويصبح البعض عنيفـاً أو متهيجاً، بينما يظل البعض الآخر في حالة هدوء وإتزان.

كذلك لـوحظ منذ حـوالي قرن من الـزمن أن النساء العصبيـات أو الهستيـريات يتـطلبن كميات أكبـر من الإيثر المخـدر، حتى يصلن إلى فقدان الشعور.

ومنـذ حوالي نصف قـرن لاحظ العلماء الإختـلاف بين الأفراد في كمية الأسبرين التي يحتاجون إليها لتخفيف الألم.

ولذلك فمن المألوف أن نجد الأطباء يغيرون في حجم جرعة الدواء من فرد لآخر تبعاً لإستجابة الفرد وحاجاته الخاصة.

وقـد قدم عـالم النفس البريـطاني «أيزنـك» Eysenck فرضـاً يدور حول العلاقة بين شكل الإستجابة للعقاقير وخصائص الشخصية لدى الفـرد. ويعطي أيزنك أهمية خاصة لبعد الإنطواء ـ الإنبساط، ويربط بينـه وبين إستجابة الفرد للعقاقير المنبهة والمهبطة.

وهـو يربط بعـد الإنـطواء ـ الإنبسـاط بخصـائص الجهـاز العصبي المركزي. فهناك عمليتان أساسيتان في الجهاز العصبي هما: الإثـارة،

والكف، فإذا زاد الكف في الجهاز العصبي كان الشخص أميل الى الإنبساط، حيث يحدث كف سريع وقوي في الجهاز العصبي وتصبح المنبهات الخارجية الفيزيقية والإجتماعية ذات تأثير أكبر على نشاط الجهاز العصبي، وعلى تفكير الشخص وإهتماماته.

أما إذا زادت الإثارة في الجهاز العصبي كان الشخص أميل الى التأمل الداخلي، وإلى إنخفاض التأثر بالمنبهات الخارجية، وبالتالي يصبح الشخص أميل إلى الإنطواء.

وهذا البعد الخاص بالإنطواء والإنبساط له علاقة بتأثير العقاقير على السلوك فالأشخاص المرتفعون في الإنبساط (والذين يتميزون بزيادة سريعة في الكف المركزي) يكون للعقاقير المنبهة تأثير ضعيف فيهم، ولكنهم يستجيبون للعقاقير المهبطة إستجابة أكبر بحيث تظهر عليهم تغيرات سلوكية. . أما الأشخاص الإنطوائيون (الذين ينخفض الكف الداخلي بالجهاز العصبي لديهم وتزيد الإثارة الداخلية) فإنهم يحتاجون إلى مقادير أكبر من العقاقير المهبطة لكي تظهر لديهم تغيرات سلوكية، بينما تؤثر عليهم العقاقير المنبهة تأثيراً أكبر مما يحدث لدى الإنبساطين.

ومعنى ذلك أن الإنطوائيين أكثر إستجابة للعقاقير المنبهة أما الأشخاص الإنبساطيين فإنهم أكثر إستجابة للعقاقير المهبطة.

وقد أجريت دراسات تجريبية كثيرة للتحقق من هذا الغرض. فكان يتم قياس بعد الإنطواء ـ الإنبساط باختبار للشخصية، وذلك لدى عينة كبيرة من الأفراد. وبناء على درجات هؤلاء الأفراد على المقياس، يتم تقسيمهم إلى مجموعتين:

(أ) مرتفعين في الإنطواء.

(ب) مرتفعين في الإنبساط.

وبعد ذلك يتم إعطاء الأفراد في المجموعتين عقاراً منبهاً كأحد مشتقات الأمفيتامين ثم تقاس بعد ذلك آثار العقار على السلوك في الوظائف النفسية المختلفة (كالإدراك والإنتباه والتعلم) وبعد ذلك تتم المقارنة بين المجموعتين لمعرفة مدى تأثر كل منهما بالعقار المنبه.

ويمكن إعادة إجراء التجربة باستخدام أحد العقاقير المهبطة مثل أحد مشتقات حامض الباربتريك. وتدرس آثاره على السلوك عند كل من المجموعيتن الإنطوائية والإنبساطية.

ولكننا نلاحظ هنا أن تصنيف العقاقير إلى منبهات ومهبطات ينطوي على تبسيط زائد للمواقف. فهناك إختلافات بين أنواع المنبهات وبعضها، وكذلك بين أنواع المهبطات وبعضها في تأثيراتها على السلوك. ومع ذلك فهذا الغرض العلمي له قيمته ويحتاج فقط لمزيد من الدراسة المفصلة.

كذلك قد يختلف تأثير العقار على الفرد الواحد بحسب مقدار الجرعة التي يتناولها وهل هي جرعة صغيرة أم متوسطة أم كبيرة؟

هل تؤثر العقاقير على الشخصية؟

تستخدم العقاقير على نطاق واسع في مجال علاج الأمراض النفسية. ولعل ذلك يدعونا إلى التساؤل عما إذا كانت هذه العقاقير يمكن أن تغير شخصية الفرد؟

إن إستخدام العقاقير الملائمة للمريض، وبالجرعات المناسبة، وفي الوقت المناسب يؤدي بدون شك إلى التخفيف من حدة المرض

النفسي، وإلى الشفاء من الأعراض المرضية أو يحسنها.

ولكن العقاقير وحدها لا تكفي لتحقيق هذا الشفاء المطلوب، فدور العقاقير هو مساعدة الشخص المريض على أن يعيد بناء علاقاته مع البيئة المحيطة. وخاصة حين يتوافر شخص معالج على صلة بالمريض، قد يكون صديقاً أو قريباً وذلك إلى جانب الطبيب النفسي.

فالعقار يخفف من حدة الإضطراب النفسي، يقلل من القلق الشديد أو من الإتجاه العدواني نحو الآخرين، أو يوقظ الشخص وينبهه، وهذا يعطي الفرصة لإستفادة المريض من العلاقات مع الآخرين. وبدون العقاقير قد لا يتيسر إقامة هذه العلاقات إطلاقاً.

ومع ذلك فبعد تحسين الأعراض نتيجة للعقاقير، تتاح الفرصة للعلاج النفسي الذي يساعد المريض على إعادة تقييم سلوكه وإتجاهاته نحو ذاته ونحو الآخرين.

وعندما يتحقق ذلك فإن الشخصية التي تبرز بعد الشفاء تشبه كثيراً الشخصية التي كانت قبل المرض. فالعقار، وكذلك المعالج النفسي، لا يغيران من شخصية المريض، بل يساعدانه على تنمية شخصيته التي تكونت من خلال تفاعل خصائصه الوراثية مع خبراته الخاصة التي مر بها.

فالعقاقير وحدها لا تكفي للشفاء من المرض بل لا بد أن يصحبها تلك العلاقات الإجتماعية البناءة التي تتمثل على خير وجه في العلاج النفسي السلوكي.

العقاقير النفسية وآثارها السلوكية:

هناك أنواع عديدة من العقاقير ذات الأثر النفسي، بعضها يستخدم في الأغراض العلاجية وبعضها يستخـدم في أغراض غيـر طبية وهنـاك تصنيفات متعددة للعقاقير ذات التـأثير النفسي، والتصنيف التـالي ينبني جزئياً على الإستخدام الإكلينكي أو العلاجي، وجزئياً على النمط العام للتأثير السلوكي (W. D. Ecsmon, 193, P. 756)

أولاً: العقاقير المضادة للذهان، والمضادة للقلق:

(أ) مشتقات الفينوثيازين Phenothiazine

(ب) أشباه القلويات راولفيا Rauwolfia

ثانياً: مثبتات الحالة المزاجية.

(أ) المنبهات المباشرة.

(ب) المنبهات غير المباشرة.

ثالثاً: منبهات الجهاز العصبي المركزي.

رابعاً: المنومات، والمهدئات، وعقاقير التخدير:

(أ) مشتقات حمض الباريتريك.

(ب) المهدئات.

(ج) عقاقير التخدير العام.

خامساً: عقاقير محاكاة المرض العقلي.

وسوف نتناول بالحديث نتائج بعض الدراسات التجـريبية المتصلة بالآثار السلوكية لهذه العقاقير. علماً بأن لهـذه العقاقيـر تأثيـرات أخرى على النشاط العصبي أو على عمليات البناء والهدم بالجسم.

أولاً : العقاقير المضادة للذهان والمضادة للقلق :

(أ) مشتقات الفينوثيازين :

أفضل ما يمثل هذه المشتقات هو عقار الكلوربرومازين Chlrpromazine الذي كان أول ما إستخدم من هذه الفئة من المركبات في مجال الطب النفسي ورغم أن هذا العقار يوصف بأنه مهديء، إلا أن هذا الوصف لا يكفي لتغطية كل أنواع التأثير التي يحدثها هذا العقار في الوظائف النفسية الحركية والإدراكية والتفكير، واضطراب التفكير.

ولهذا العقار تأثير على نشاط الجهاز العصبي الذي يتضح بإستخدام رسام المخ الكهربائي حيث تشبه الموجات التي يرسمها الجهاز ما يظهر في حالة النعاس.

الآثار السلوكية :

أجريت دراسات على الآثار السلوكية للعقار لدى الحيوانات ولدى الإنسان. وتوضح الدراسات التي أجريت باستخدام الحيوانات أنه يحدث إنخفاض في النشاط الحركي التلقائي. ويعتمد هذا التأثير على حجم الجرعة، ومع ذلك فإن الجرعات الكبيرة من العقار لا تؤدي إلى النوم.

وتؤثر مشتقات الفينوثيازين على الإستجابات الشرطية المتعلمة كما وجد أيضاً أن عقار الكلوربرمازين يؤدي إلى خفض السلوك الإنفعالي والعدواني لدى الحيوانات ويزيد من سلوكها الإجتماعي أي ميلها لمخالطة الحيوانات الأخرى دون إظهار سلوك عدواني.

كذلك درس تأثير مشتقات العقار على السلوك الإنساني. وتشير نتائج الدراسات عموماً إلى تأثير الوظائف الحركية بدرجات متفاوتة حيث

يظهر البطء الحركي. كما ينخفض مستوى الأداء في المهام العقلية حيث تظهر بعض الآثار الجانبية المصاحبة لهذه التغيرات.

وقد إستخدمت مشتقات العقار في علاج عديد من الأمراض النفسية والعقلية المختلفة وقد لوحظ التفاعل بين العقار وبين شخصية المريض ونوع المرض والعقلية وعمل المريض. وفي دراسة لتقييم أثر العقار على أعراض مرض الفصام لوحظ أن هناك تحسناً واضحاًلدى المرضى الذين عولجوا بالعقار. كما أن أكبر تحسن حدث في وظيفة الذاكرة كما أدى العلاج إلى تحسن أعراض التوتر النفسي وبطء الكلام والحركات، وأعراض التوتر الأخرى مثل عدم الإكتراث بالبيئة المحيطة وكذلك زيادة القدرة على الإعتماد على النفس.

ثانياً: العقاقير التي تؤدي إلى إتزان الحالة الوجدانية:

المنبهات المباشرة. مشتقات الأمفيتامين

يتوفر الأمفيتامين في عدد من المشتقات. وتستخدم بعض هذه المشتقات في علاج السمنة نظراً لأنها تخفض من شهية الفرد للطعام، ومن رغبته في الشرب.

وقد درست آثار الأمفيتامين دراسة وافرة، سواء لدى حيوانات التجارب أو لدى الإنسان. وفي هذه التجارب تم قياس الآثار السلوكية المترتبة على تناول مشتقات الأمفيتامين. وكان من أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسات ما يلي:

١ ـ تؤدي الجرعات المعتدلة (١٠ مجم) من البنزدرين إلى زيادة سرعة زمن الرجع في حركات الشخص، وذلك طالما كانت هذه الحركات لا تحتاج إلى التفكير العقلي.

أما الجرعات الكبيرة (٢٠ مجم) فإنها تؤدي إلى البطء في هذه الحركات.

٢ ـ الأعمال التي من قبيل الجمع الحسابي تميل إلى التحسن، خاصة عندما تطول جلسات الإختبار، حيث يعمل الأمفيتامين على التقليل من الإحساس بالتعب والإجهاد.

٣ ـ الوظائف المعرفية المعقدة كالأداء على إختبارات الذكاء، لا يظهر عليها التحسن.

٤ ـ تظهر آثار مشتقات الأمفيتامين واضحة في الأعمال التي تتضمن إستمرار الأداء لفترات زمنية طويلة، حيث يقلل الأمفيتامين من آثار التعب.

٥ ـ تتأثر القدرة على الحكم والتقدير بتناول مشتقات الأمفيتامين، حيث تميل أحكام الشخص لأن تصبح أقل دقة. وقد إتضح ذلك من تجارب كان يطلب فيها من الأفراد تقدير طول مدة إستمرار إشارة صوتية يسمعونها فسلامة تقدير الأفراد للزمن تتأثر بتعاطي الأمفيتامين.

٦ ـ ينتج من تعاطي الأمفيتامين اليقظة، وإنخفاض الإحساس بالتعب، وإرتفاع الحال المزجية، وزيادة المبادأة، وزيادة في الحركات والكلام. كما يصعب التركيز (يزيد صعوبة تركيز الإنتباه). ويشعر الفرد بالزهو أو النشوة، ولكنه عقب ذلك يشعر بانقباض النفس.

٧ ـ يترتب على تعاطي الأمفيتامين حدوث الإعتياد أو الإدمان. وكذلك حدوث ما يسمى بالتحمل الذي يجعل الفرد يميل إلى زيادة الجرعة مع تكرار الإستخدام.

وهناك أنواع أخرى من المنبهات غير المباشرة والمتنوعة. كما أن هناك أيضاً بعض المنبهات الأخرى التي تسمى بمنبهات الجهاز العصبي كالكافور والنيكوتين وغير ذلك. ولن نتعرض لهذه الأنواع من المنبهات في هذا السياق.

ثالثاً: المنومات:

يوجد الكثير من أنواع المنومات أهمها حامض البارتريك ومشتقاته وقد إستخدمت هذه المشتقات منذ وقت طويل. ومن آثار المنومات أنها تهبط من عمل قشرة المخ وعمل مراكز التنفس بالمخ، وتخفض درجة حرارة الجسم، وعمليات البناء والهدم. كما أن الكميات الكبيرة منها تؤدي إلى هبوط وشلل في مراكز التنفس. ومن مخاطرها الإدمان، والتحمل، حيث يزيد الشخص من مقدار الجرعة تدريجياً مع إستمرار تناول العقار، إلى أن يؤدي ذلك إلى ظهور أعراض مرضية.

وفيما يتعلق بالآثار الأكلينيكية لهذه العقاقير فقد لوحظ أنها تزيد من الإنبساط ومن علاقة الشخص بالبيئة المحيطة به كما تزيد من الشعور بالزهو النفسي.

وقد درست الآثار السلوكية للمنومات باستخدام الإختبارات النفسية الموضوعية وقد لوحظ إنخفاض الشهية لدى حيوانات التجارب، وتناقص الحركة وإنخفاض سرعة الجري ويمكن تفسير هذه الملاحظات على أنها تشير إلى إنخفاض الدافع النفسي لدى هذه الحيوانات.

واظهرت الدراسات التجريبية التي أجريت على الإنسان تأثير الأموباربيتال على سرعة زمن الرجع، وسرعة النقر بالأصابع، وتآزر اليدين، وثبات الجسم عند الوقوف. فالجرعات الصغيرة تؤدي إلى

إضعـاف الأداء (١٥٠ مجم)، أما الجـرعـات المتـوسـطة (٣٠٠ مجم) فتحسن الأداء، والجـرعـات الكبيــرة (٤٥٠ مجم) تؤدي إلى إضعـاف مستوى الأداء.

كما لوحظ تأثر الوظائف الإدراكية بهذا العقار، حيث ينخفض الأداء على بعض الإختبارات الإدراكية.

كذلك لوحظ أن أحد المشتقات الأخرى (سيكلوباربيتال) يؤدي إلى خفض مستوى الأداء في إختبارات القدرة الحسابية والتآزر الحركي.

عقاقير محاكاة المرض العقلي:

لهذه العقاقير تاريـخ طويـل، وهناك الكثيـر من الأقوال والكتـابات عنها. وكثير من هذه المواد يستخدم في صورته الطبيعية أو مع قليل من التحضير والتصنيع. ويطلق على هذه المواد إسم عقاقير محاكاة المرض العقلي (الـذهان)، لأنهـا تؤدي إلى إحداث حـالات نفسية أو أعـراض شبيهة بأعراض المرض العقلي. ومن أمثلة ذلك الهلاوس والإنفعالات الشديدة، وضعف الذاكرة، وصعـوبة التـركيز، وفقـدان إحساس الفـرد بشخصيته.

وهنــاك الكثيـر من هــذه المـواد نعـرض لإثنين منهـا فقط هي: المسكالين وعقار ل. س. د.

(أ) المسكالين:

يستخرج هذا العقار من نبات الكاكتوس. وقد عرفه الهنود الحمـر منـذ وقت طويـل. ويؤدي تعـاطي المسكـالين إلى حـالـة الإستـرخـاء الجسمي، وإلى حـدوث هلاوس بصـريـة، فتمـر هـذه الهـلاوس على

الشخص كأنه يشاهد فيلماً سينمائياً. وقد شبه البعض هذه الهلاوس بتلك الهلاوس التي يشاهدها مريض الفصام. كما وجه بعض العلماء الإنتباه إلى تشابه المعادلات الكيميائية للمسكالين والإدرينالين، وإفترضوا أن هناك مادة تشبه المسكالين هي الأصل في ظهور الفصام.

وتشير الدراسات التجريبية إلى أن تأثير هذه المادة يعتمد على حجم الجرعة، كما توجد فروق بين الأفراد في إستجابتهم لها. كذلك تتأثر إستجابات الأفراد بالظروف المحيطة بهم عند تعاطي هذه المادة.

(ب) عقار LSD-25:

يرجع إكتشاف الآثار السلوكية لهذا العقار إلى سنة ١٩٤٣ وقد سجّل «هوفمان» Hofmann مكتشف العقار ملاحظاته الذاتية للآثار السلوكية التي أحس بها عندما جرب تناول هذا العقار. ومن بين ما أشار إليه هوفمان إحساسه بعدم الإستقرار الحركي، وبالدوار، والنشاط الشديد للخيال، والصور الخيالية الغريبة في مرونتها وحيويتها. وتشوه الإدراك بحيث يبصر الأشياء وكأنه يراها في مرايا منحنية أو في الماء. والشعور بصعوبة الحركة وثقل الجسم. وصعوبة الحديث المتماسك وإختلال الإدراك السمعي، بحيث يترجم الأصوات إلى هلاوس ملونة. وهو يعيش هذه الخيالات كأنها حقيقة حية.

وقد درست آثار العقار على نشاط الجهاز العصبي وعلى عمليات البناء والهدم كما درست الآثار السلوكية للعقار على الحيوانات وعلى الإنسان، وذلك بقياس هذه الآثار في الوظائف النفسية المختلفة.

وقد ركزت الدراسات الحسية والإدراكية إهتمامها على دراسة تأثير العقار على الوظائف البصرية. وقد لوحظ أن التمييز بين الألوان ينخفض

تحت تأثير العقار. كما يحدث تداخل بين فئات الإحساس المختلفة السمعية والبصرية.. إلخ.. ويشير البعض إلى زيادة القابلية للإيحاء لدى الشخص الذي يتعاطى العقار. ويحتمل أن تؤثر هذه القابلية للإيحاء على نوع الإحساسات والمشاعر التي يظهر بها للشخص تأثير العقار.

كذلك وجد أن تعاطي العقار يؤدي إلى تعطيل التفكير المجرد ويقلل القدرة على التركيز، والقدرة على التذكر كما يؤدي إلى خفض الأداء على إختبارات الذكاء. ويتشوه إدراك الزمن وحدود الذات نتيجة لتعاطي العقار.

الحشيش:

يعتبر الحشيش من المواد الشائعة في كثير من بلاد العالم. وهو يستخرج من نبات القنب. ويتم تعاطيه بأساليب متعددة أكثرها إنتشاراً طريقة التدخين.

وقد إهتم العلماء بدراسة تعاطي الحشيش من زوايا متعددة مثل التركيب الكيميائي للمادة، وآثاره الجسمية والنفسية، وشكل إنتشاره في المجتمع، والعوامل المؤدية إلى تعاطي الحشيش، وعلاقته بتعاطي العقاقير والمركبات الأخرى.

وقد أجريت في مصر دراسات هامة على تعاطي الحشيش أشرف على إجرائها الدكتور مصطفى سويف في المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية. وتعتبر هذه الدراسة من أضخم وأهم الدراسات التي أجريت على الجوانب النفسية والإجتماعية في العالم.

وقد أظهرت الدراسات التجريبة على تأثير الحشيش أن تأثيره يبدأ بعد التدخين بوقت قصير جداً (حوالي دقيقة) وتصل الآثار إلى قمتها بعد فترة تتراوح بين ٢٠ و٣٠ دقيقة من التدخين.

وتعتمد الإحساسات الناتجة عن تعاطي الحشيش على مقدار الجرعة ومن بين الإحساسات (الأعراض) التي تنتج عن التعاطي حدوث بعض التغيرات الحسية والإدراكية، وعندما تزيد الجرعة يؤدي ذلك إلى حدوث تشويه في الإدراك الحسي، وفقدان للإحساس بالشخصية، وفقدان الإحساس بالواقعية، كما تحدث هلاوس بصرية وسمعية.

كما يحس المتعاطي بالجوع إلى المواد السكرية، مما قد يرجع إلى إنخفاض سكر الدم نتيجة التعاطي.

وتؤدي الجرعات المختلفة من الحشيش إلى إضعاف ثبات الجسم واليد، وكذلك سرعة النقر بالأصابع، وسرعة زمن الرجع، وإلى إنخفاض القوة العضلية. ويؤدي التعاطي أيضاً إلى تشويه الإحساس بالزمن ودقة تقديره.

ويذكر المتعاطون أنهم يحسون بزيادة في الحساسية السمعية وفي تذوق الموسيقى.. ومع ذلك فإن إختبارات تمييز الأنغام لم تكشف عن وجود أي تحسن في تذوق الموسيقى بل بالعكس، حدوث إنخفاض في تقدير الموسيقى.

كما تتأثر الذاكرة والمهام العقلية المعقدةمثل حل المسائل الحسابية بالتعاطي. وإن كان ذلك يربط أيضاً بحجم الجرعة. وبوجه عام يؤدي

تعاطي الحشيش إلى خفض مستوى الوظائف المعرفية كالتذكر والتعلم والتفكير.

مشكلة الإعتماد:

يعتبر الإعتماد، أو الإدمان من المشاكل الخطيرة بالنسبة للفرد والمجتمع. حيث يتضح بالنسبة لإدمان كثير من العقاقير والمواد تأثر كفاءة الشخص، ومستقبله وعلاقاته الإجتماعية كنتيجة للإدمان.

ويتميز الإعتماد بعدد من الخصائص:

١ ـ رغبة ملحة وقهرية في الحصول على العقار وتناوله بأي وسيلة.

٢ ـ الإتجاه المستمر إلى زيادة الجرعة، وذلك كنتيجة للتحمل. حيث تصبح الجرعات المألوفة بدون تأثير، مما يدفع الشخص إلى زيادة حجم الجرعة لكي يحصل على ذلك التأثير.

٣ ـ الإعتماد الجسمي والنفسي على العقار.

٤ ـ ظهور أعراض جانبية شديدة عند التوقف عن تناول العقار. وهو الأعراض الجانبية المؤلمة التي تسهم في دفع الشخص إلى العودة إلى تناول العقار.

وقد أظهرت بعض الدراسات أن نسبة كبيرة من المشتغلين بمهن الطب والصيدلة يدمنون العقاقير (حوالي ٤٠٪ في بعض التقديرات).

وهذا ينبهنا إلى ضرورة الحذر من تعاطيها لأن علاج الإدمان من الأمور الشاقة، كما أن النتائج المترتبة على الإدمان تشكل خطورة على المدمن نفسياً وجسمياً.

ويحسن دائماً تفادي تناول العقار على سبيل التجربة، أو لشعور

الشخص ببعض المتاعب الجسمية أو النفسيـة. ويحسن أيضاً مـواجهة المشكلات وحلها بدلاً من الهروب إلى العقاقير التي لا تحل المشكلات بل تخلق مشكلات إضافية.

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر